نهب

روبرت كازانوفاس

رواية

ملخص

تستعيد هذه الرواية التاريخية، المستوحاة من أحداث حقيقية، الحملة الفرنسية البريطانية عام 1860 على الصين ونهب القصر الصيفي في بكين. بعد الانتصارات العسكرية في داغو وباليكاو، تكتشف الجيوش المتحالفة القصر الصيفي (يوان مينغ يوان)، وهو مقر إمبراطوري يزخر بكنوز عمرها آلاف السنين. أمام هذه الثروات، ينهار الانضباط: فخلال ثلاثة أيام، ينهب الجنود بشكل منهجي الخزف والبشم والبرونز. ثم يُشعل البريطانيون النار في القصر. تُنقل القطع المسروقة إلى فرنسا وتُقدَّم للإمبراطورة أوجيني، التي تُنشئ المتحف الصيني في فونتينبلو. يدين فيكتور هوغو علنًا هذا النهب، واصفًا فرنسا وإنجلترا بـ«قطّاع الطرق». يطالب الدبلوماسي الصيني بين تشون باسترداد الكنوز، متنبئًا بأن الصين لن تنسى أبدًا هذا الإذلال. تستكشف الرواية ضمائر الشخصيات المعذبة أمام التحويل المنافق للنهب إلى «حماية ثقافية».

المؤلف

روبرت كازانوفاس، الذي سبق له نشر «الغرفة المسروقة» و«الوصية كانت مزوَّرة»، أستاذ جامعي فخري وعضو في جمعية أهل الأدب الفرنسية. محامٍ شغوف بتاريخ مجموعات الفنون، كرّس سنوات طويلة لدراسة استيلاء الدول على الأعمال الفنية. بصفته رئيسًا للمنظمة غير الحكومية Restitutions، International نشر العديد من الأعمال الأكاديمية حول هذا الموضوع.

ISBN 9791098073151

نهب
روبرت كاسانوفاس
casanovas@hotmail.com
إيداع قانوني ديسمبر 2025 - نسخة إلكترونية ونسخة ورقية
© 2025 كازانوفاس. جميع الحقوق محفوظة.
رقم الكتاب المعياري الدولي: 979-10-980731-5-1
www.international-restitutions.org
الغلاف: القصر الصيفي القديم بعد ترميمه – أخبار الصين 2025

النسخة الفرنسية
الطبعة الثانية المنقحة والمصححة

للمؤلف نفسه: الغرفة المسروقة (رواية)
كانت الوصية مزورة (روا

تحذير

تستند هذه الرواية إلى بحث تاريخي معمق، يشمل شهادات صينية قليلة باقية، وتقارير عسكرية بريطانية وفرنسية، ومقالات صحفية معاصرة، ومحفوظات متاحف أوروبية. ورغم أن بعض الشخصيات خيالية، إلا أن تجاربها وأفعالها مستوحاة من روايات حقيقية لناجين. أما تفاصيل الأشياء والمباني والأحداث، فهي دقيقة تاريخيًا قدر الإمكان وفقًا للمصادر المتاحة.
كان القصر الصيفي حقاً أحد عجائب العالم المعمارية، ويمثل تدميره واحدة من أعظم الخسائر الثقافية في القرن التاسع عشر.
تمت ترجمة النسخة الأصلية المكتوبة باللغة الفرنسية إلى عدة لغات أجنبية. وقد تحتوي النسخ المترجمة على أخطاء لغوية أو ترجمات خاطئة أو معلومات غير دقيقة.

جدول المحتويات

مقدمة

الفصل الأول: الطريق إلى العار

الفصل الثاني: كنز ابن السماء

الفصل الثالث: الشهود الصامتون

الفصل الرابع: الرحلة

خاتمة

6

نـهب

مقدمة

باريس، 4 نوفمبر 1859

تألقت حجارة شارع سان دومينيك المرصوفة بالحصى تحت المطر الخفيف الذي حوّل باريس إلى لوحة رمادية. وقف الجنرال شارل غيوم كوزان دي مونتوبان أمام النافذة، ويداه خلف ظهره، يراقب المارة وهم يسرعون تحت مظلاتهم.

خلفه، كان المارشال راندون، وزير الحرب، يقلب صفحات الوثائق بآلية. ساد الصمت بينهما، لم يقطعه سوى صرير ألواح الأرضية وحفيف الصفحات بين الحين والآخر. رفع راندون رأسه، وعقد حاجبيه الكثيفين.

— يا مونتوبان، إن الإمبراطور يوكل إليك مهمة تتجاوز بكثير نطاق الحملة العسكرية العادية، قال بصوت جاد.

التفت الجنرال نحوه. ظل وجهه الخشن، الذي طبعته الحملات الأفريقية، جامداً. استقرت عيناه الزرقاوان، اللامعتان بشكل مثير للقلق، على الوزير.

— أنا مستعد لخدمة الإمبراطورية أينما كانت يا مارشال. لا تُخيفني الصين أكثر من صحاري الجزائر.

ابتسم راندون ابتسامة خفيفة. نهض من كرسيه ذي الذراعين - إذ جعلت ضخامة جسده كل حركة منه شاقة - واتجه نحو خريطة كبيرة مفرودة على طاولة مجاورة. أظهرت الخريطة الإمبراطورية الصينية بكل اتساعها، وهي منطقة شاسعة تحمل علامات غريبة وخطوطًا تقريبية.

ـــ الأمر لا يقتصر على الشجاعة يا مونتوبان. لقد فشل الإنجليز العام الماضي في اقتحام مصب نهر بي هو. تم صد سفنهم، وبلغ عدد قتلاهم العشرات. إن خسارتهم للوجه تنخر فيهم كجرح ملتهب. اللورد إلجين يتوق للانتقام.

ثم التفت الجنرال إلى الخريطة، وفحصها بتركيز الصياد الذي يدرس تضاريس منطقته. ورسم بإصبعه خطاً من الساحل إلى الداخل.

ـــ لقد ارتكبوا خطأً بالهجوم المباشر. إذا فهمت التقارير بشكل صحيح، فقد أتيحت للصينيين فرصة لتحصين مصب النهر. سيتعين علينا الالتفاف عليهم، وضربهم حيث لا يتوقعوننا.

ـــ هذا ما يتوقعه جلالته منك، أجاب راندون واضعًا يده على كتف الجنرال. تناقضت هذه اللفتة الودية بشدة مع تحفظه المعتاد. سيتم تخصيص عشرة آلاف جندي لك. لواءان بقيادة الجنرالين جامين وكولينو. رجالٌ مخضرمون، سيتبعونك إلى أقاصي الأرض إن لزم الأمر.

أومأ مونتوبان برأسه. ثم أدار وجهه عن الخريطة وسار بضع خطوات في أرجاء الغرفة. كان عقله يحسب المسافات والتأخيرات والمتغيرات التي لا حصر لها لحملة عسكرية على الجانب الآخر من العالم.

ـــ وماذا عن الإنجليز؟ ما مدى التزامهم؟

ـــ سيكون لدى الجنرال غرانت اثنا عشر ألف رجل تحت إمرته. عددهم أكبر بلا شك، لكنهم أقل انضباطًا من قواتنا. ستتعاملون مع قوات استعمارية، وهنود، ومجموعة متنوعة من الوحدات. سيكون التنسيق تحديًا بحد ذاته.

أصدر الجنرال أنينًا خافتًا. كان يعلم سمعة الجيوش البريطانية، وكفاءتها التي تشوبها نزعة نحو النهب يكافح الضباط للسيطرة عليها. كانت فكرة الحملة المشتركة تُقلقه، لكنه لم يُبدِ أي علامة على ذلك.

ـــ متى يجب أن أغادر؟

ـــ في أقرب وقت ممكن. السفن جاهزة في بريست وتولون. من المفترض أن تكون في هونغ كونغ في فبراير.

عاد راندون إلى مكتبه وأخرج ظرفاً يحمل الختم الإمبراطوري.

ـــ هذه هي تعليماتكم الرسمية. لقد أرفق الإمبراطور رسالة شخصية. لا تخيبوا أمله.

تناول الجنرال الظرف بخشوعٍ يكاد يكون مقدساً. ثقل الورق، ولمعان الشمع الأحمر، كل شيء فيه يجسد إرادة الإمبراطورية. ثم دسّ الظرف في سترته، ملاصقاً لقلبه.

ـــ ستكون ثقتك في محلها يا مارشال.

رافقه راندون إلى الباب. وقبل أن يغادر، استدار مونتوبان للمرة الأخيرة.

ـــ هل لي أن أطرح سؤالاً يا مارشال؟

ـــ أنا أستمع إليك.

ـــ ما الذي نعرفه حقاً عن هذا الإمبراطور الصيني؟ وعن هذا القصر الذي يتحدث عنه الجميع؟

تصلّب وجه راندون. وتردد، كما لو كان يزن الفرصة لمشاركة سرّ ما.

ـــ يتحدث اليسوعيون الذين أقاموا هناك عن تحفة معمارية. حدائق شاسعة، وعشرات القصور. فضّل الإمبراطور شيان فونغ الإقامة هناك على الإقامة في المدينة المحرمة. ويُقال إن هذا المكان يضم كنوزًا تراكمت على مرّ القرون. لكن هذه مجرد شائعات يا مونتوبان. مهمتك عسكرية. فرض التصديق على معاهدة تيانجين. أما الباقي... فسيعتمد على الظروف.

خرج مونتوبان إلى الممر الخافت الإضاءة. ترددت خطواته على الرخام بإيقاع عسكري. راودته فكرة: في الحروب البعيدة، تميل الظروف، للأسف، إلى الخروج عن السيطرة.

الفصل الأول - الطريق إلى العار

وداع باريس

باريس، 10 نوفمبر 1859

بعد أسبوع من لقائه مع راندون، في غرفة استقبال منزل عائلة مونتوبان في شارع دو فارين، ساد جوٌّ مختلفٌ تمامًا. ستائر مخملية ثقيلة بلون العقيق حجبت أصوات الشارع. ثريات برونزية ألقت ضوءًا ذهبيًا على وجوه الحاضرين. لويز دو مونتوبان، زوجة الجنرال، ترأست هذا اللقاء المتواضع بأناقةٍ بالكاد أخفت قلقها.

جلست بجوار المدفأة، ممسكةً بفنجان من خزف سيفر بين أصابعها، لم تلمسه. وقفت ابنتاها، ماتيلد وكليمنس، بجانبها في صمت غير معتاد. في الجهة المقابلة، كان الكابتن أرماند ديماس، ضابط مدفعية شاب رُقّي حديثًا إلى هيئة أركان الجنرال، يحاول طمأنة السيدتين بتفاؤل لم يكن يشعر به إلا بفتور.

— سيدتي، بدأ حديثه وهو ينتقي كلماته بعناية. إن الجنرال زوجك رجل ذو خبرة لا مثيل لها. لقد صنعت حملاته في الجزائر سمعة يعترف بها الجيش بأكمله.

رفعت لويز رأسها. كانت عيناها، اللتان عادة ما تكونان لطيفين وودودين، تحملان حدة مقلقة.

— يا قبطان، لقد تزوجت تشارلز قبل ثلاثة وعشرين عاماً. لقد تعلمت أن أقرأ في صمته ما لا يقوله أبداً. هذه الرحلة الاستكشافية تقلقه أكثر مما يرغب في الاعتراف به. الصين ليست الجزائر.

انحنى القبطان إلى الأمام، واضعاً يديه بين ركبتيه. في الثامنة والعشرين من عمره، كان لا يزال يمتلك تلك الحماسة الشبابية التي تدفع الرجال إلى الإيمان بالمجد العسكري. ومع ذلك، أمام هذه المرأة التي عانت الكثير من الرحيل والانتظار، تزعزعت ثقته بنفسه.

ـــ لهذا السبب اختار الإمبراطور زوجكِ يا سيدتي. لأنه يعرف كيف يتأقلم، وكيف يتوقع. لن نكون وحدنا. الإنجليز...

ـــ الإنجليز؟ قاطعت ماتيلد، الابنة الكبرى، بنبرة لاذعة. كانت في الحادية والعشرين من عمرها، تتمتع بثقة الشابات المهذبات اللواتي يقرأن الصحف ويتابعن شؤون العالم. الإنجليز أنفسهم الذين صُدّوا العام الماضي؟ يقول أبي إن أميرالهم هوب فقد أربع سفن ومئات الرجال.

بحث الضابط عن كلماته، لكن كليمنس، الأخت الصغرى، هي من كسرت حاجز الصمت المحرج بصراحة طاغية نابعة من سنها السابع عشر.

ـــ سمعت أن إمبراطور الصين يعيش في قصر فخم، تحيط به حدائق تمتد بلا نهاية. هل هذا صحيح يا قبطان؟

ـــ بالفعل، تُقال أشياء غير عادية يا آنسة. لقد رأى المبشرون هذا القصر المسمى يوين مينغ يوين، أي حديقة الصفاء التام. ويبدو أنه مدينة داخل مدينة، ببحيرات اصطناعية وجسور رخامية ومئات الأجنحة. وقد أمر الإمبراطور ببناء نسخ من مناظر طبيعية شهيرة من جميع أنحاء الإمبراطورية هناك.

ـــ وماذا عن الكنوز؟ سألت ماتيلد، وقد أصبح فضولها أقل براءة. إننا نتحدث عن اليشم، والخزف القديم، والأشياء الثمينة التي تراكمت عبر السلالات الحاكمة.

وضعت لويز كوبها على طاولة صغيرة، فصدر صوت ارتطام حاد لفت الانتباه إليها مجدداً.

ـــ ماتيلد، كليمنس، هذه الأسئلة غير مناسبة. والدكما ذاهب في مهمة عسكرية، وليس لنهب القصور مثل بعض المغامرين العاديين.

رغم أن التوبيخ كان لطيفاً، إلا أنه جعل الفتاتين الصغيرتين تحمران خجلاً. حاول ديماس، وهو يشعر بالحرج، تدارك الموقف.

— بالطبع يا سيدتي. الجنرال واضح تمامًا في هذه النقطة. هدفنا هو إجبار الصينيين على احترام المعاهدة الموقعة في تيانجين، والتي تشمل فتح موانئ جديدة للتجارة، وحرية تنقل مبشرينا. لا شيء أكثر من ذلك.

— لا شيء أكثر من ذلك، كررت لويز وهي تحدق به. وهل تصدق ذلك حقاً يا كابتن؟

فاجأه السؤال. في تلك العيون الفاحصة، قرأ حكمةً نابعةً من سنواتٍ قضتها في الانتظار والأمل والخوف من أخبار الجبهة. لقد رأت رجالًا يذهبون إلى الحرب بآمالٍ عريضة، ويعودون محطمين، أو لا يعودون أبدًا. كانت تعلم أن الصراعات دائمًا ما تتحدى التخطيط، وأن ما هو غير متوقع يفرض قواعده الخاصة.

— أعتقد يا سيدتي أن الجنرال سيؤدي واجبه بشرفه المعهود. أما ما سيحدث هناك... فلا أحد يستطيع التنبؤ به حقاً. لكنني أعدكِ بأنني سأراقبه بكل ما أوتيت من قوة.

ابتسمت لويز ابتسامة حزينة.

— أنت رجل صادق يا قبطان. آمل أن يبقى هذا الصدق بعد ما تراه في الصين.

في مساء ذلك اليوم نفسه، كانت الحركة في مكاتب القيادة العامة في شارع سان دومينيك على أشدها رغم تأخر الوقت. كان الجنرال جامين، قائد اللواء الأول، والجنرال كولينو، قائد اللواء الثاني، منهمكين في مراجعة قوائم لا تنتهي مع مونتوبان. وقد انتشرت رائحة التبغ والقهوة القديمة في المكان الضيق.

كان جامين يرسم الحدود على الخريطة بقلمه الرصاص.

— القوات بكامل قوتها. خمسة آلاف رجل لكل لواء. مشاة، مدفعية، مهندسون. لقد تأكدت من وجود مدافع جبلية؛ ستكون ضرورية إذا اضطررنا إلى الابتعاد عن الممرات المائية.

تدخل كولينو، الأكثر ضخامة وبهجة.

— ما يقلقني ليس المدافع، بل الجوع. عشرة آلاف رجل يجب إطعامهم لأشهر في بلد معادٍ. سيكون للإنجليز خطوط إمدادهم الخاصة، وسيكون لنا خطوطنا. إذا وجدنا أنفسنا منفصلين...

— لن ننفصل، أعلن مونتوبان بحزم لا يقبل النقاش. لقد أبلغت غرانت. ستتقدم قواتنا معًا. لقد دفع الإنجليز ثمنًا باهظًا لعزلتهم العام الماضي. ولن يكرروا هذا الخطأ مرة أخرى.

وضع جامين قلمه جانباً وتمدد.

— ماذا لو رفض الصينيون التفاوض؟ ماذا لو اضطررنا إلى التوجه نحو بكين؟

كان الصمت الذي أعقب ذلك يحمل كل دلالات هذا السؤال. اتجه مونتوبان إلى النافذة وتأمل ليل باريس. كانت بعض مصابيح الغاز تومض في الظلام. فكر في زوجته وبناته والحياة الرغيدة التي كان على وشك أن يتركها لأشهر.

— إذن سنزحف نحو بكين. وسنفعل ما يجب فعله.

تبادل كولينو نظرة خاطفة مع جامين. كلاهما كانا يعرفان تصميم مونتوبان الراسخ. فإذا ما اتخذ قرارًا، لا شيء يزعزعه. هذه الصفة جعلته قائدًا مهيبًا، لكنها أثارت قلق من يعرفونه جيدًا.

— الرجال جاهزون، أكد جامين. سينطلقون من بريست في غضون شهرين.

— جيد.

واجه مونتوبان جنرالاته.

— انشروا الخبر: انضباط مطلق. لا نهب، لا تجاوزات. نحن جيش الإمبراطورية الفرنسية، لسنا فرقة من المرتزقة. إذا اضطررنا لمواجهة الصينيين، فسنفعل ذلك مع احترام قوانين الحرب.

وافق كولينو.

— أما الإنجليز؟ فقواتهم الاستعمارية ليست معروفة بضبط النفس.

ـــ للإنجليز أن يفعلوا ما يشاؤون برجالهم. سنحافظ على انضباطنا. ومع ذلك، لا أملك أي أوهام. فبمجرد أن يتذوق الجيش طعم الدم والنهب، يصبح احتواؤه تحديًا. يجب أن نبقى متيقظين.

عاد إلى مكتبه وأخرج ورقة بيضاء. على ضوء المصباح الزيتي الخافت، بدأ في صياغة أوامره الأولية. خط قلمه على الورقة بثبات، راسماً الكلمات التي ستحدد مصير آلاف الرجال.

راقبه جامين وكولينو وهو يعمل. لقد كانا يشهدان لحظة تاريخية. في غضون أشهر قليلة، سيكونان على الجانب الآخر من العالم، يواجهان إمبراطورية عريقة عمرها آلاف السنين ترفض الخضوع للغرب. ما سيحدث هناك سيُخالف بلا شك حتى أدق الخطط وأشد الأوامر صرامة.

للحروب منطقها الخاص. وهذا المنطق، كما فكر كولينو وهو يراقب الظلال وهي ترقص على الجدران، لا يحترم النوايا النبيلة أبداً.

في صباح اليوم التالي، استقبلت الإمبراطورة أوجيني في إحدى غرف قصر التويلري البارون غروس، المفوض المعين لمرافقة الحملة. وقد خلقت الزخارف المذهبة على طراز الروكوكو، والستائر الحريرية، واللوحات التي رسمها كبار الفنانين، أجواءً فخمة تتناقض بشكل صارخ مع بساطة المكاتب العسكرية.

وقفت أوجيني، مرتديةً فستانًا أزرق باهتًا من الساتان أبرز جمال بشرتها البيضاء كالبورسلين، بجوار نافذة تُطل على الحدائق. في الثالثة والثلاثين من عمرها، جسّدت الأناقة الإمبراطورية برقة طبيعية أسرت البلاط. لكن وراء هذا المظهر الرقيق، كان يكمن عقل سياسي حاد وإرادة حديدية.

ـــ البارون غروس، طلب مني الإمبراطور رعاية هذه الرحلة الاستكشافية. قبلتُ بالطبع. لكنني أود أن أفهم ما هو المتوقع من هذه المهمة.

انحنى البارون غروس، وهو دبلوماسي مخضرم ذو وجه نحيل وأخلاق رفيعة، باحترام.

— يا صاحبة الجلالة، الهدف دبلوماسي في المقام الأول. إجبار الإمبراطور الصيني على التصديق على معاهدة تيانجين، وضمان أمن بعثاتنا الكاثوليكية، وفتح موانئ جديدة للتجارة الفرنسية.

— وماذا عن الإنجليز؟ ما هي أهدافهم الحقيقية؟

لمعت في عيني الدبلوماسي لمحة من التسلية. لقد أصابت الإمبراطورة لبّ الموضوع بفطنتها المعهودة.

— يا جلالة الإمبراطورة، اللورد إلجين رجلٌ ذو شخصية معقدة. فهو ابن اللورد إلجين الشهير الذي أعاد منحوتات البارثينون إلى لندن، ويحمل اسمًا مرموقًا وطموحًا عظيمًا. وقد ألحق به فشله في العام الماضي إهانةً بالغة، لكنه سيسعى إلى استعادة مكانته بتحقيق نصرٍ ساحق.

جلست أوجيني برشاقة على الأريكة وأشارت إلى غروس ليجلس مقابلها.

— ماذا يعني ذلك؟

— وهذا يعني يا جلالة الإمبراطورة، أننا سنضطر إلى توخي الحذر الشديد. فالإنجليز لديهم مصالحهم الخاصة، والتي لا تتوافق دائمًا مع مصالحنا. تجارة الأفيون، على سبيل المثال...

— الأفيون، كررت أوجيني باشمئزاز بالكاد أخفته. تلك التجارة المشؤومة التي يدافع عنها الإنجليز بكل هذا الحماس.

— يا للأسف يا جلالة الإمبراطورة. أحد أسباب هذه الحرب يكمن في هذا. الصينيون يريدون حظر تجارتها، والإنجليز يريدون تقنينها. ونحن الفرنسيون عالقون في مرمى النيران.

نهضت الإمبراطورة من مقعدها وخطت بضع خطوات إلى غرفة الرسم، وسمع صوت حفيف تنانيرها على أرضية الباركيه المصقولة. توقفت أمام كرة أرضية مرصعة وأدارتها حتى وصلت إلى الصين.

— لقد سمعت عن هذا القصر. قصر يوين مينغ يوين. يقولون إنه يحوي عجائب.

تصلب وجه غروس. لقد اتخذ الحديث منحىً غير متوقع.

ـــ نعم يا جلالة الإمبراطورة. لقد قدم المبشرون اليسوعيون الذين عملوا لدى الإمبراطور أوصافاً استثنائية.

ـــ وماذا لو وقعت هذه العجائب في أيدينا؟ ماذا لو قادتنا تقلبات الحرب إلى هذا القصر؟

اختار البارون كلماته بعناية. كل كلمة نطق بها أمام الإمبراطورة كان لها وزنها.

ـــ قوانين الحرب واضحة يا جلالة الإمبراطورة. ما يملكه العدو المهزوم... يصبح ملكاً للمنتصر. ولكن ثمة فرق بين الاستيلاء على الممتلكات في العمليات العسكرية والسماح بالنهب المستشري.

ـــ بالطبع.

عادت أوجيني إلى مقعدها، وهي تحدق بتأمل في الدبلوماسي.

ـــ الجنرال دي مونتوبان رجل شريف. وأنا أعتمد عليه في الحفاظ على كرامة جيشنا.

ـــ سيفعل ذلك يا جلالة الإمبراطورة. أنا مقتنع بذلك.

حدّقت أوجيني من النافذة في الحدائق المُعتنى بها بدقة، تلك الحدائق الفرنسية الرسمية التي تُجسّد النظام والسيطرة على الطبيعة. وتذكرت تلك الحدائق الصينية التي يتحدث عنها الناس، المختلفة تمامًا، حيث تُحتفى بالطبيعة في حريتها الظاهرة.

ـــ يا بارون غروس، لقد زودتُ البعثة بالإمدادات والمعدات الطبية لعلاج جرحانا. واجبي كعرابة يقتضي ذلك. لكنني أتوقع أيضاً شيئاً في المقابل.

ـــ جلالتكم؟

ـــ إذا ما وقعت أي أعمال فنية بين أيدينا، فأود أن تُعاد إليّ مجموعة مختارة من أروعها. لأكوّن منها مجموعة. شاهدة على ذلك العصر، على ذلك اللقاء بين حضارتين.

انحنى غروس، محاولاً إخفاء القلق الذي انتابه. كانت كلمات الإمبراطورة بمثابة مباركة إمبراطورية للاستيلاء على الكنوز الصينية. أدرك أن هذه الحملة تتجاوز بكثير مجرد صراع عسكري بسيط، فهي تحمل في طياتها بذور تساؤلات أخلاقية ستطارده لسنوات قادمة.

— سيتم ذلك وفقاً لإرادتك يا صاحبة الجلالة.

عندما غادر القصر بعد ساعة، كان غروس يسير بخطوات متأنية، غارقاً في أفكاره. كانت سماء باريس رمادية قاتمة، تنذر بقدوم الثلج. بعد أسابيع قليلة، سيكون على متن سفينة متجهة إلى الجانب الآخر من العالم. كان يحمل معه تعليمات دبلوماسية، وأوامر رسمية، ورغبة الإمبراطورة المكبوتة.

تساءل كيف ستتطور الأمور، وكيف ستتغير النوايا النبيلة أمام الواقع على الأرض. لقد علمه التاريخ أن الحروب البعيدة تفلت دائماً من سيطرة من يأمرون بها من قصورهم الفخمة.

في ذلك المساء نفسه، ومع إضاءة أضواء الشوارع في باريس، عاد الجنرال دي مونتوبان إلى منزله. كانت لويز تنتظره في غرفة الاستقبال الخاصة، وفي حجرها قطعة تطريز لم تُمس. عندما دخل، رفعت رأسها وابتسمت له بحزنٍ مُستسلم.

— هل تم اتخاذ القرار؟ هل ستغادر؟

— خلال أسبوعين.

جلس بجانبها وأمسك بيدها. وللحظة، بقيا على هذه الحال، صامتين، متحدين في صمتٍ أبلغ من أي كلام. في الخارج، استمرت باريس في حياتها الهانئة، غافلةً عن أحداثٍ تلوح في الأفق ستُخلّد في التاريخ وتُلطخ شرف من سيشاركون فيها إلى الأبد.

تسارعت الاستعدادات. تم تحميل السفن، وتجميع الرجال، وإصدار الأوامر النهائية. وفي صباح ضبابي أواخر يناير 1860، غادرت أولى

سفن النقل بريست، حاملةً جيشًا فرنسيًا متجهًا شرقًا، غير مدركة لما ينتظرها.

المعبر

في البحر، يناير - يونيو 1860

انطلقت الفرقاطة إمبيراتريس أوجيني عبر أمواج المحيط الأطلسي. على متنها، وقف الجنرال دي مونتوبان على سطح السفينة الخلفي، ممسكًا بالدرابزين، ناظرًا إلى الامتداد الرمادي الشاسع الممتد حتى الأفق. صفعت الرياح المالحة وجهه، حاملةً معها رائحة اليود ورذاذ البحر التي ذكّرته برحلات أخرى، وحملات أخرى. لكنه لم يذهب قط إلى هذا الحد. لم تكن المسافة بينه وبين باريس بهذا القدر من الدوار.

خلفه، اقترب الكابتن دوبريه بخطوات متمايلة كبحارة قضوا وقتاً أطول في البحر منه على اليابسة. رجل في الخمسينيات من عمره، وجهه متعب من الشمس والملح، وجفونه مجعدة من كثرة التحديق في الأفق.

— يا جنرال، نحن نسير على الطريق الصحيح. إذا استمر الطقس على ما هو عليه، فسندور حول رأس الرجاء الصالح في غضون ثلاثة أسابيع.

أومأ مونتوبان موافقًا دون أن يرفع عينيه عن المحيط. كانت الأمواج تتلاطم بانتظام ساحر، كل واحدة تشبه سابقتها، لكنها فريدة في الوقت نفسه. فكّر في لويز، وبناته، وباريس، التي كانت تتلاشى شيئًا فشيئًا مع كل نبضة من قلبه.

— ثلاثة أسابيع للوصول إلى كيب تاون. وكم من الوقت للوصول إلى هونغ كونغ؟

— شهرين ونصف، وربما ثلاثة أشهر إذا اضطررنا للتوقف في عدن أو سنغافورة.

انتظر دوبريه لحظة.

ـــ كما تعلم يا جنرال، لقد أبحرْتُ في هذا الطريق اثنتي عشرة مرة. المحيط الهندي قد يكون غادراً. العواصف تأتي دون سابق إنذار، وعندما تفعل ذلك...

ـــ عندما تأتي يا قبطان، سنواجهها كما نواجه أي شيء آخر. الجنود الذين أقودهم لا يخشون قسوة الطبيعة.

ارتسمت ابتسامة خاطفة على شفتي دوبريه. لقد سبق له أن نقل جنودًا، ورأى رجالًا مخضرمين على البر يتحول لونهم إلى الأخضر ويرتجفون بمجرد أن تهتز السفينة ولو قليلًا. لكنه امتنع عن أي تعليق.

ـــ رجالكم صامدون حتى الآن. سُجّلت بعض حالات دوار البحر في الكتائب السفلى، لكن لا شيء يدعو للقلق. كبير الأطباء يوزّع الأدوية والنصائح.

واجه مونتوبان القبطان. حدق بعينيه الزرقاوين في البحار بتمعن.

ـــ تحدث إليّ بصراحة يا دوبريه، أنت الذي تعرف هذه البحار وهذه الأراضي البعيدة. ما رأيك في الرحلة الاستكشافية؟ وفي فرصنا؟

تردد القائد. كان السؤال مباشراً، بل فظاً بعض الشيء. لم يكن معتاداً على أن يسأله جنرال عن رأيه في الأمور الاستراتيجية. لكن صوت مونتوبان، بنبرته الخفيفة، دعاه إلى البوح له بأسراره.

ـــ يا جنرال، أعتقد أننا لا نواجه قبائل المغرب العربي. الصينيون كثيرون ومنظمون. إمبراطوريتهم قائمة منذ آلاف السنين. سنضربهم في صميمهم، والإمبراطورية الجريحة يمكن أن تتفاعل بشكل غير متوقع.

ـــ كلامك يشبه كلام زوجتي تماماً. لقد حذرتني هي الأخرى. لديها تلك الحدس الأنثوي الذي يرى ما يغفل عنه الاستراتيجيون العسكريون.

ـــ غالباً ما تكون النساء أكثر حكمة منا يا جنرال. إنهن لا يملكن غرورنا الذكوري، ولا حاجتنا إلى المجد.

في الأفق، كانت سفن نقل أخرى تابعة للأسطول تتقدم بتشكيل متقارب، وأشرعتها ترفرف في الرياح اللاحقة.

— كم عدد الرجال الذين ننقلهم على متن فرقاطتنا؟

— ثلاثمائة وخمسون جندياً يا جنرال، بالإضافة إلى الطاقم وهيئة أركانك. نحن محملون عن آخرنا. مخازننا مليئة بالذخيرة والمؤن والمعدات. إذا واجهنا عاصفة شديدة...

— لن نغرق يا قبطان. الإمبراطورية بحاجة إلينا في الصين.

— يا قائدي، لا يعرف المحيط إمبراطورية ولا ملكاً. إنه يأخذ ما يريد، وقتما يريد.

في الطوابق السفلية، كان الجو مختلفًا تمامًا. مكتظين في مساحات ضيقة بالكاد يتجدد فيها الهواء، حاول الجنود التأقلم مع الحياة البحرية غير المألوفة. امتزجت روائح العرق والقطران والقيء في رائحة كريهة خانقة. وتدلت الأراجيح في صفوف متراصة، تتمايل مع إيقاع السفينة.

حاول الرقيب بومونت، وهو جندي مخضرم يبلغ من العمر أربعين عاماً ويحمل ندبة على خده، الحفاظ على معنويات فصيلته. كان يجلس على حقيبته، ويقدم النصائح ويلقي النكات بطيبة قلب فظة جعلته قائداً محبوباً.

— هيا يا شباب، نادى على مجموعة من المجندين الجدد. الأمر أشبه برحلة بالقارب في نهر السين. إلا أنها تستغرق وقتاً أطول ومياهها مالحة.

— يا رقيب، أنَّ فتى لم يكن عمره يتجاوز العشرين. أعتقد أنني سأموت. معدتي...

— ستتحمل معدتك يا دوبوا. في غضون ثلاثة أيام، ستعتاد على الأمر. وفي غضون أسبوع، ستصعد إلى سطح السفينة مطالباً بحصتك من الروم مثل بحار حقيقي.

— ماذا لو لم أعتد على ذلك أبداً؟ ماذا لو بقيت مريضاً طوال الوقت؟

انحنى بومونت نحوه بنظرة أبوية.

ستصاب بالغثيان. لكنك ستصل إلى الصين. وهناك، صدقني، ستواجه ما هو أكثر من مجرد دوار البحر.

تدخل جندي آخر أكبر سناً. العريف ليرو، رجل ذو أكتاف عريضة وأيدٍ سميكة تشبه أيدي الفلاحين.

— يا رقيب، هل ما يقولونه صحيح؟ أن الصينيين يمتلكون أسلحة سرية؟ مساحيق تُصيب الناس بالجنون، وسموم تقتل في ثوانٍ؟

— هراء يا ليرو. دعاية لإخافتنا. الصينيون بشر مثلنا. ينزفون مثلنا، ويموتون مثلنا.

لكن عددهم كبير. يقولون إن بإمكانهم حشد مئات الآلاف من الجنود.

نهض بومونت، وسمع طقطقة مفاصله. لقد نجا من ثلاث حملات في الجزائر، ورأى أشياء لم يكن هؤلاء الشباب ليتخيلوها.

استمعوا إليّ جيداً جميعاً. نعم، هناك الكثير من الصينيين. نعم، سنقاتل بعيداً عن ديارنا، في بلد لا نعرف عنه شيئاً. لكن لدينا ميزتان: انضباطنا وأسلحتنا. بنادق مينييه التي نحملها قادرة على القتل من مسافة 300 متر. مدافعنا الحلزونية هي الأفضل في العالم. وفوق كل ذلك، لدينا الجنرال دي مونتوبان، الرجل الذي لم يُهزم في معركة قط.

— لكل شيء بداية، تمتم أحدهم.

— من قال ذلك؟

دوى صوت بومونت عالياً.

— من يجرؤ على التحدث كالجبان؟

ترك بومونت انتباهه يتجول على الوجوه المتوترة، التي أضاءها التوهج الخافت لمصابيح الزيت.

لسنا جبناء، بل جنود الإمبراطورية الفرنسية. في غضون أشهر قليلة، سنصنع التاريخ. ستُخلّد أسماؤنا في سجلات التاريخ العسكري.

سيروي أبناؤنا بفخر أن والدهم شارك في حملة الصين. ارفعوا رؤوسكم عالياً، وحافظوا على نظافة بنادقكم. والباقي سيأتي في وقته.

انتشرت همهمة موافقة في أرجاء مقصورة الدرجة الثالثة. أومأ بومونت برأسه. لكنه لم يكن واثقًا كما بدا. لقد رأى الكثير، وفقد الكثير من رفاقه، فلا يمكنه أن يصدق وعودًا جوفاء دون تفكير. الحرب أشبه باليانصيب، ولا أحد يستطيع التنبؤ بمن سيعود ومن سيبقى هناك، في أرض غريبة، تحت صليب مجهول.

في الطابق العلوي، في مقصورة الجنرال، كان اجتماعٌ يُعقد حول طاولةٍ مُكتظةٍ بالخرائط والوثائق. ترأس الاجتماع مونتوبان، وإلى جانبه الكابتن ديماس والقائد فافييه، رئيس مدفعيته. ألقت المصابيح المُتدلية من السقف ظلالاً مُتغيرة على وجوههم المُركزة.

— إن آخر التقارير التي تلقيناها قبل المغادرة مثيرة للقلق، أوضح فافييه. فقد عزز الصينيون الحصون في داغو. وقاموا بتركيب مدافع جديدة، وحفر خنادق، ووضعوا عوائق في النهر.

درس مونتوبان الخريطة بعناية. حددت أصابعه معالم وهمية، وحسب المسافات، وقدر زوايا إطلاق النار.

— إذا هاجمنا مباشرة كما فعل البريطانيون، فسنتكبد نفس الخسائر. نحتاج إلى إيجاد نقطة إنزال أخرى. ربما في الشمال. الالتفاف على هذه الدفاعات.

— يا جنرال، لن يوافق الإنجليز أبداً، قاطع الضابط. يريد اللورد إلجين الانتقام لإهانة العام الماضي. سيريد الاستيلاء على هذه الحصون بالقوة.

سيفعل ذلك بدوننا. لن أضحي برجالي لإرضاء غرور سيد إنجليزي.

تلاقت عينا فافييه والقبطان. كان كلاهما يدرك أن هذا الموقف سيضع مونتوبان في مواجهة مع البريطانيين.

ـــ علينا أن نكون دبلوماسيين يا جنرال. نحن بحاجة إلى البريطانيين. سفنهم الحربية، ومدفعيتهم البحرية، وقواتهم الاستعمارية التي تعرف التضاريس.

سأكون دبلوماسياً، لكنني لن أكون انتحارياً. سننزل في بيه تانغ، شمال الحصون. سنستولي على الدفاعات من الخلف. إنها الاستراتيجية المنطقية الوحيدة.

انحنى فوق الخريطة، متتبعاً خط الساحل بإصبعه.

تقع بيه-تانغ على بعد حوالي عشرين كيلومترًا شمالًا. سيتعين علينا السير عبر أراضٍ معادية، دون أن نعرف ما سنجده. قد يكون الصينيون بانتظارنا هناك أيضًا. لا يمكنهم التواجد في كل مكان. وحتى لو كانوا بانتظارنا، فسنتمتع بميزة الحركة. بمجرد وصولنا إلى البر، يمكننا المناورة واختيار أرضنا.

استمر النقاش لأكثر من ساعة، حيث تمّ فحص كل تفصيل وكل احتمال. طرح مونتوبان أسئلة دقيقة وطالب بإجابات واضحة. جعلته دقته استراتيجياً بارعاً. لم يترك شيئاً للصدفة، بل كان يتوقع المشاكل قبل وقوعها.

عندما انتهى الاجتماع وغادر فافييه، بقي ديلماس وحيداً مع الجنرال. وتردد في طرح السؤال الذي كان يؤرقه.

ـــ أيها الجنرال، هل لي أن أتحدث إليك سراً؟

رفع مونتوبان نظره عن الخريطة التي كان لا يزال يدرسها.

ـــ أنا أستمع يا قبطان.

ـــ ما زلت أفكر في زيارتي لزوجتك قبل مغادرتنا. قالت لي شيئاً لا يزال يؤرقني. سألتني إن كنت أعتقد أن مهمتنا عسكرية بحتة.

استقام الجنرال.

ـــ وماذا كان ردك عليه؟

ـــ ظننتُ أنك ستؤدي واجبك بشرف. لكنها رأت شيئًا لم أكن أرغب برؤيته. هذه الحملة... إنها ليست مجرد عملية عسكرية، أليس كذلك؟

وصل مونتوبان إلى كوة السفينة ونظر إلى المحيط الأسود الممتد تحت ضوء القمر. كانت الأمواج تتلألأ باللون الفضي في الليل. في مكان ما، بعيدًا، كانت الصين تنتظرهم بأسرارها ومخاطرها.

— للحروب وجوهٌ كثيرة يا صديقي. الوجه الرسمي، وجه المعاهدات والأهداف الاستراتيجية. ثم هناك الوجه الآخر، الوجه الذي لا يرغب أحدٌ برؤيته، لكن الجميع يعرفه. الغنائم، والنهب، والثروات التي تتبادل الأيدي.

لكنك أخبرت جنرالاتك...

قلت ما يجب على القائد قوله للحفاظ على الانضباط. لكنني لست ساذجاً. تحدث البارون غروس مع الإمبراطورة قبل مغادرتنا. أوضحت له أنها تتوقع أشياء معينة من البعثة: أعمال فنية، وآثار من تلك الحضارة البعيدة.

شعر القبطان بقشعريرة تتسلل إلى عروقه. لقد اصطدمت المثالية التي كانت تسكنه بواقع السلطة.

— هل سنستولي على هذا المكان؟ يوين مينغ يوين الذي يتحدث عنه الجميع؟

سنفعل ما تقتضيه الظروف. إذا قادتنا الحرب إلى هذا القصر، وإذا رفض الإمبراطور الصيني التفاوض، وإذا هاجمتنا قواته... فحينها نعم، سنأخذ ما يمكن أخذه. لكننا سنفعل ذلك بطريقة منظمة ومنضبطة. ليس كبرابرة، بل كممثلين لأمة متحضرة.

— وتظن أننا نستطيع النهب بطريقة حضارية؟

كان السؤال مباشراً، بل وقحاً. استدار مونتوبان، وفي عينيه أشرق نور لم يره فيه من قبل.

— أنت شاب يا نقيب. لديك أوهام حول طبيعة الحرب. تعتقد أن هناك طريقة مثلى للقتال، وأن الشرف العسكري قادر على حماية أرواحنا من ظلام المعركة. أغبطك. لقد كانت لديّ هذه الأوهام بنفسي، منذ

سنوات، قبل الجزائر. قبل أن أرى ما يصبح عليه الرجال عندما يخافون، عندما يجوعون، عندما يرون رفاقهم يموتون.

ـــ لكنك مختلف يا جنرال. أنت رجل مبدأ.

المبادئ كأشرعة هذه السفينة، تدفعنا للأمام حين يكون الريح مواتياً. لكن حين تهب العاصفة، تصبح أوامر الإمبراطور هي الفيصل. والإمبراطور يريد نصراً كاملاً. يريد أن تفتح الصين أبوابها للتجارة الفرنسية، وأن يتمكن مبشرونا من السفر بحرية. كما يريد أن يُظهر لإنجلترا أن فرنسا ندٌّ لها. كل هذا له ثمن.

تمايلت السفينة وتأرجحت، مُصدرةً صوت صرير الخشب المألوف أثناء اهتزازها. وفي مكان ما في الطوابق السفلية، عزفت آلة الهارمونيكا لحنًا يُشير إلى أوطان بعيدة وحب ضائع.

لست متأكدًا من قدرتي على القبول.

ـــ لستَ مُلزماً بالقبول يا قائد. عليكَ الطاعة. هذه هي الفضيلة الوحيدة المطلوبة من الجندي. ومع ذلك، أعدك بشيء واحد: سأبذل قصارى جهدي لضمان بقائنا رجالاً ذوي شرف.

خرج من المقصورة. على سطح السفينة، استنشق هواء الليل المالح. فوقه، تألقت النجوم ببريق لم يره من قبل في باريس. بدأت تتشكل في السماء مجموعات نجمية غير مألوفة.

ترددت كلمات لويز دي مونتوبان في رأسه. لقد كانت محقة. لم تكن هذه الحملة كما ادعت. فخلف الأهداف الدبلوماسية النبيلة تكمن طموحاتٌ أشد ظلمة، ورغباتٌ أقل شرفًا. وهو، أرماند ديماس، قبطانٌ مليءٌ بالمبادئ، على وشك أن يصبح متواطئًا في أمرٍ يكرهه بشدة.

مرت الأسابيع ببطءٍ مُرهِق. تقدمت السفينة جنوبًا، محاذيةً الساحل الأفريقي، عابرةً مياهًا كانت هادئةً أحيانًا، وهائجةً أحيانًا أخرى. اعتاد الجنود تدريجيًا على الحياة في البحر؛ اكتسبت وجوههم سمرةً، وتكيفت أجسادهم مع التمايل المستمر.

في صباح أحد الأيام، ومع شروق الشمس في انفجار من الألوان البرتقالية، صرخت حارسة المراقبة من عشها الذي يشبه عش العقعق.

— أرض! أرض على الجانب الأيمن!

اتجهت الأنظار جميعها نحو الأفق. كتلة داكنة كانت تبرز من ضباب الصباح. رأس الرجاء الصالح. نهاية العالم التي يعرفها الكثير من هؤلاء الرجال الذين لم يغادروا فرنسا قط.

وقف مونتوبان على سطح السفينة، يراقب اقتراب اليابسة الأفريقية. وإلى جانبه، كان الجنرال جامين، الذي كان يقود سفينة نقل أخرى في الأسطول، والذي انتقل إلى السفينة إمبيراتريس أوجيني لإجراء مشاورات، يتأمل المشهد بتعبير غامض.

— لقد قطعنا نصف الطريق. شهران فقط وسنكون في الصين.

— إذا سارت الأمور على ما يرام. المحيط الهندي متقلب. ولا نعلم ما سنجده في هونغ كونغ. آخر الأخبار تعود لعدة أسابيع.

— هل تعتقد أن الإنجليز موجودون هناك؟

كان من المفترض أن يغادر غرانت في نفس وقت مغادرتنا. نأمل أن نصل معًا، وهذا سيسهل التنسيق.

التفت جامين إلى قائده. رجل عملي، لا يميل إلى العاطفة، ولكنه كان قلقاً منذ بداية الرحلة.

— مونتوبان، هل فكرت فيما سيحدث إذا اضطررنا للزحف نحو بكين؟ إذا اضطررنا لدخول تلك المدينة المحرمة التي يتحدث عنها المبشرون؟

— أفكر في الأمر كل يوم.

— و؟

ولا أدري. هذه هي المرة الأولى في مسيرتي التي أخوض فيها حربًا دون فكرة واضحة عن النتيجة. كانت الجزائر مختلفة. كنا نعرف ما نواجهه: قبائل بدوية، شجاعة لكنها غير منظمة. أما هنا... فنحن

سنضرب إمبراطورية عمرها آلاف السنين. إمبراطورية صمدت أمام غزاة أكثر من أن يُحصى عددهم.

ـــ هل تشك في ذلك؟

ـــ أفكر. الأمر ليس نفسه.

مر بحار بجانبهم وهو يسحب حبلاً، ويدندن لحناً من موطنه بريتاني.

ـــ هل الرجال في حالة معنوية جيدة؟

إنهم يشعرون بالملل. علامة جيدة. الرجال الذين يشعرون بالملل لا يخافون. لكن علينا أن نشغلهم حالما يصلون إلى الشاطئ. بعد ثلاثة أشهر في البحر، سيتوقون إلى العمل.

سيقاتلون عاجلاً أم آجلاً. أفضل الجنود الذين يشعرون بالملل على الجنود المتلهفين للقتال. فالأخيرون يرتكبون الأخطاء.

انحرف الحديث إلى مسائل تكتيكية، وتنظيم الألوية، واحتياجات الذخيرة والإمدادات. لكنهما كانا يشتركان في نفس القلق الصامت: كانا يدخلان المجهول، ولا يمكن لأي تجربة سابقة أن تُهيئهما حقًا لما ينتظرهما.

أبحروا حول رأس الرجاء الصالح دون حوادث تُذكر، رغم أن عاصفة هوجاء ضربتهم ليومين، فمزقت شراعًا وألقت ببرميلين من المؤن في البحر. ثم امتد أمامهم المحيط الهندي الشاسع، هذا الفراغ المائي الذي تتخلله جزر نائية قليلة توقفوا عندها لتجديد مخزونهم من المياه العذبة.

في عدن، وهي ميناء بريطاني ذو مناخ لا يُطاق، مكثوا خمسة أيام. سُمح للرجال بالنزول إلى الشاطئ وشرب بيرة فاترة في حانات مُدخّنة حيث كان البحارة من جميع الجنسيات يختلطون. استغل مونتوبان هذا الوضع للقاء الحاكم البريطاني، وهو عقيد بدين ومتغطرس، والذي أكد أن الأسطول الإنجليزي في طريقه إلى الصين.

الجنرال غرانت رجلٌ حازم. لن يسمح للصينيين بالإفلات بفعلتهم هذه المرة. سنريهم من أين أتت الإمبراطورية البريطانية.

استمع مونتوبان بأدب، لكن غطرسة البريطانيين أثارت غضبه. كان الإنجليز يعتبرون أنفسهم سادة العالم، وطريقة حديثهم عن الشعوب الأخرى، بمزيج من التعالي والازدراء، كشفت عن عقلية استعمارية أثارت حفيظته.

— نأمل، يا سيادة العقيد، أن تُدار هذه الحملة وفقاً لقوانين الحرب. لا ترغب فرنسا في أن تُربط بالتجاوزات.

انفجر العقيد في ضحكة مدوية جعلت ذقنه الثلاثية ترتجف.

— قوانين الحرب! أيها الجنرال، ستتعلم قريباً أن الشرقيين لا يعرفون هذه القوانين. إنهم غادرون، قساة، لا يمكن التنبؤ بتصرفاتهم. يجب أن تتحدث إليهم باللغة الوحيدة التي يفهمونها: لغة القوة.

امتنع مونتوبان عن الرد. انحنى ببرود وغادر مقر إقامة الحاكم وهو يشعر بشعورٍ مُقلق. سيكون التنسيق مع الإنجليز صعباً. لم تكن أهدافهم متطابقة، وكانت نظرتهم للعالم مختلفة جذرياً.

وبعد عودته إلى السفينة، استدعى طاقمه وأطلعهم على مخاوفه.

— يجب أن نكون يقظين. للإنجليز أجندتهم الخاصة: تجارة الأفيون، والتوسع الإقليمي، وإذلال الصين. أما نحن الفرنسيين، فيجب أن نبقى أوفياء لأهدافنا: حماية بعثاتنا الكاثوليكية، والتجارة الحرة، والكرامة في النصر.

— إذا كان هناك نصر، همس فافييه.

سيكون هناك نصر. لأنه ليس لدينا خيار آخر.

كانت سنغافورة محطتهم الأخيرة قبل هونغ كونغ. كان الميناء يعجّ بالحركة، مزيج من السفن الصينية التقليدية، والبواخر البريطانية، والمراكب الشراعية العربية. كان الهواء مشبعًا بالرطوبة والروائح العطرة: التوابل، والبخور، والأسماك المجففة، والفواكه الاستوائية. بالنسبة لمعظم الجنود الفرنسيين، كانت هذه أول تجربة لهم مع الشرق، فجالوا في الشوارع الضيقة بدهشة الأطفال الذين يكتشفون عالمًا جديدًا.

انتهز مونتوبان الفرصة للقاء التجار الفرنسيين المقيمين في المنطقة. هؤلاء الرجال، الذين كانوا يعيشون في آسيا، كانوا على دراية تامة بالوضع في الصين.

في ردهة خاصة بفندق يعود إلى الحقبة الاستعمارية، تحدث مع السيد دوفريسن، وهو تاجر حرير كان يتاجر مع كانتون.

— يا جنرال، لا يمكنك أن تتخيل حالة الفوضى التي تسود الصين الآن. إمبراطورية تشينغ تتآكل من الداخل. تمرد تايبينغ حصد أرواح مئات الآلاف. المقاطعات الجنوبية تعيش أتون حرب أهلية. الإمبراطور شيان فونغ ضعيف، يتلاعب به مستشارون غير أكفاء.

— هذا من شأنه أن يجعل مهمتنا أسهل، أليس كذلك؟

هز دوفريسن رأسه بشدة.

لا تنخدعوا. الإمبراطورية المتداعية أشد خطراً من الإمبراطورية القوية، لأنها لم تعد تملك ما تخسره، ولأن القواعد المعتادة لم تعد سارية. لقد رأيتُ أهوالاً في السنوات الأخيرة، قرى بأكملها تُباد، وعائلات تُباد. لقد بلغ العنف مستويات لا تُصدق.

— هل سيقاتل الصينيون؟

— أجل، سيقاتلون. ربما ليس بالطريقة التقليدية. لكنهم سيقاتلون. وإذا وصلتم إلى بكين، إذا هددتم قلب الإمبراطورية...

— تكلم بصراحة يا سيد دوفريسن. ممّ تخاف؟

قام التاجر بسحق سيجاره في منفضة السجائر.

أخشى أن تطلقوا العنان لقوة لا يمكن لأحد السيطرة عليها. الصينيون لا ينسون. إذا أهنتُم إمبراطورهم، إذا دنستم مقدساتهم، إذا نهبتم كنوزهم... فلن ينسوا أبدًا. ونحن الفرنسيون، الذين نعيش هنا ونتاجر معهم، سندفع الثمن لأجيال.

غادر مونتوبان الاجتماع وهو قلق. رنّت كلمات دوفريسن في ذهنه، مرددةً مخاوف زوجته، وشكوك ديماس، وتساؤلاته الخاصة. لكن فات

الأوان للتراجع. لقد حُسم الأمر، وانطلقت القوات. لم يبقَ له سوى أن يبذل قصارى جهده لضمان انتهاء هذه الحملة بأكثر الطرق شرفًا.

في منتصف فبراير، وبعد أكثر من شهرين في البحر، لاحت شواطئ هونغ كونغ في الأفق. برزت التلال الخضراء في مقابل السماء الزرقاء الصافية. كان الميناء يعج بالسفن البريطانية، ترفرف أعلامها في مهب الريح. كان أسطول الجنرال غرانت هناك، مهيبًا ومهيبًا.

عندما رست سفينة الإمبراطورة أوجيني في الميناء، اقترب منها زورق بريطاني طويل. وكان على متنه ضابط يرتدي زياً قرمزياً عرّف عن نفسه بأنه الرائد وورثينجتون، مساعد الجنرال غرانت.

— الجنرال دي مونتوبان، يرسل الجنرال غرانت تحياته ويدعوكم إلى اجتماع تخطيطي صباح الغد على متن سفينة إتش إم إس فيوريوس. وسيكون اللورد إلجين حاضراً أيضاً.

أومأ مونتوبان برأسه بتيبس. لقد حانت اللحظة التي كان يخشاها. سيتعين عليه التعاون بشكل وثيق مع هؤلاء الإنجليز الذين لا يعرفهم، ومشاركتهم المخاطر، وربما أيضاً مسؤوليات القرارات التي لم يوافق عليها.

في تلك الليلة، ولعدم قدرته على النوم، كتب إلى لويز:

"عزيزتي لويز،

وصلنا إلى هونغ كونغ بعد رحلة بحرية بدت وكأنها لا تنتهي. الرجال بخير، ومعنوياتهم عالية. غداً سأجتمع مع البريطانيين لوضع اللمسات الأخيرة على خطة حملتنا.

كثيرًا ما أفكر فيكِ، وفي بناتنا. في باريس، البعيدة جدًا، والمختلفة تمامًا عن هذا الشرق الذي نعيش فيه. أحيانًا أتساءل ما الذي أفعله هنا، ولماذا قبلتُ هذه المهمة. ثم أتذكر أنني جندي، وأن واجبي هو خدمة الإمبراطور.

قبل رحيلي، أخبرتني أنك تخشى أن أفقد شيئًا من نفسي خلال هذه الحملة. ضحكتُ، بتلك النزعة الذكورية الغريبة لرفض الإصغاء إلى

الحدس الأنثوي. لكن ربما كنتَ محقًا. أشعر بأمور تحدث بداخلي لا أستطيع فهمها تمامًا.

صلّي من أجلنا يا حبيبتي. صلّي أن نبقى رجالاً ذوي شرف، مهما حدث. زوجكِ المُحب، تشارلز."

أغلق الرسالة، مدركًا أنها ستستغرق شهورًا للوصول إلى باريس، وأن لويز ستقرأها عندما ينتهي كل شيء. لكن الكتابة أفادته، إذ خلقت له صلة واهية بالعالم الذي تركه وراءه.

المعارك الأولى

كان الاجتماع الذي عُقد في اليوم التالي كل ما كان مونتوبان يخشاه. ففي المقصورة الفسيحة لسفينة إتش إم إس فيوريوس، السفينة البريطانية الرئيسية، احتشد نحو عشرين ضابطاً إنجليزياً وفرنسياً حول طاولة كبيرة كانت معروضة عليها خريطة لمنطقة تيانجين.

كان الجنرال غرانت رجلاً طويلاً ذا أخلاق فظة. أما اللورد إلجين، المفوض البريطاني، فكان أقصر قامة وأكثر بدانة، لكن نظراته الثاقبة وصوته الحاد كشفا عن شخصية متسلطة.

ـــ أيها السادة، بدأ إلجين حديثه بالإنجليزية، ثم كررها بالفرنسية الركيكة: نحن هنا لنثأر للإهانة التي ألحقها بنا الصينيون العام الماضي. هذه المرة، لن يكون هناك فشل. سنستولي على حصون داغو، وسنزحف عبر نهر بيهو إلى تيانجين، وإذا لزم الأمر، فسنزحف نحو بكين. سيوقع الإمبراطور الصيني على المعاهدة، أو سنجبره على توقيعها.

انتظر مونتوبان بأدب حتى نهاية الخطاب، ثم تدخل.

ـــ يا سيد إلجين، أعتقد أن الهجوم المباشر على حصون داغو سيكون خطأً استراتيجياً. لقد عزز الصينيون دفاعاتهم، وهم ينتظروننا. أقترح أن ننزل شمالاً، في بيه تانغ، ونستولي على الحصون من الخلف.

تبادل الضباط البريطانيون نظرات كشفت عن رأيهم في هؤلاء الفرنسيين الذين تجرأوا على إعطائهم دروساً في الاستراتيجية.

انحنى غرانت فوق الخريطة، ودرس موقع بيه تانغ، ثم رفع رأسه.

— أيها الجنرال دي مونتوبان، اقتراحك وجيه، ولكنه ينطوي على مخاطر أيضاً. تقع بيه-تانغ على بعد عشرين كيلومتراً إلى الشمال، وهذا يعني مسيرة عبر أراضٍ معادية دون غطاء بحري.

— أعلم. لكن هذا أفضل من هجوم مباشر قد يكلف مئات الأرواح.

تحدث إلجين بصوت مليء بنفاد الصبر.

— يا جنرال، نحن لا نخشى القتال. الشرف البريطاني يقتضي أن نواجه العدو حيثما يتحدانا.

الشرف لا يقتضي الانتحار. لن أضحي برجالي لإرضاء مبدأ مجرد.

تبادل الفرنسيون والإنجليز النظرات، وكلٌّ منهم متمركز في موقعه. وكان البارون غروس هو من هدّأ الموقف.

أيها السادة، نحن حلفاء في هذا المسعى. أهدافنا واحدة: إجبار الصين على احترام المعاهدات. يمكن مناقشة سبل تحقيق ذلك بشكل معقول. أقترح أن ندرس كلا الخيارين بالتفصيل، ونقيّم مزاياهما ومخاطرهما، ونتوصل إلى قرار مشترك قائم على المنطق العسكري لا على الكبرياء الوطني.

هدأت حدة النقاش. واستؤنف النقاش، وكان أكثر تخصصاً وأقل حماسة. وتم عرض الخرائط، وإجراء الحسابات، ودراسة السيناريوهات.

بعد ثلاث ساعات من النقاش، تم التوصل إلى حل وسط. ستنزل قوات الحلفاء في بيه تانغ، كما رغب مونتوبان، لكن جزءًا من الأسطول البريطاني سيقوم باستعراض أمام حصون داغو لجذب انتباه المدافعين الصينيين.

عندما انتهى الاجتماع، خرج مونتوبان إلى سطح السفينة بمشاعر مختلطة. لقد انتصر في النقطة الجوهرية، لكن بثمن باهظ تمثل في

توتر دائم مع البريطانيين. نظر إليه غرانت ببرود جديد، ولم يكلف إلجين نفسه عناء مصافحته عند مغادرته.

وجده البارون غروس بعد لحظات قليلة، وعلى شفتيه ابتسامة غامضة.

لقد صنعت أعداءً اليوم، أيها الجنرال.

— لا يهمني. المهم هم رجالي. حياتهم أغلى من صداقة اللورد إلجين.

— شعور نبيل. لكن سيتعين علينا التعايش مع هؤلاء الناس لأشهر. هذه البرود قد تعقد أموراً كثيرة.

هز مونتوبان كتفيه وحدق في ميناء هونغ كونغ الممتد أمامهم، وهو أشبه بخلية نمل بشرية حيث يختلط الصينيون والأوروبيون والماليزيون في رقصة تجارية لا تتوقف.

سيدرك الإنجليز في النهاية أنني على حق. عندما نستولي على الحصون دون خسائر فادحة، سينسون استياءهم.

ربما. أو ربما سيحاولون التعويض لاحقًا، والانتقام من حذرنا بجرأة مفرطة. أحيانًا يتصرف البريطانيون بشكل غير متوقع عندما تُجرح كبرياؤهم.

هذه الكلمات النبوئية تطارد مونتوبان لفترة طويلة. لكن في الوقت الراهن، كانت لديه هموم أخرى: الاستعدادات للإنزال، والتنظيم اللوجستي، والتنسيق مع مختلف فيالق الجيش. لقد انتهى وقت التفكير، وحان وقت العمل.

بدأت الاستعدادات المكثفة بسرعة. تدربت القوات الفرنسية على شواطئ هونغ كونغ، محاكاةً عمليات الإنزال واختبار معداتها في حرارة خانقة ورطوبة عالية. أصيب العديد من الجنود بالمرض، حيث أصابتهم الحمى الاستوائية أو الزحار الذي ألحق خسائر فادحة بالصفوف كما لو كانت معركة.

شارك الرقيب بومونت وفصيلته في هذه التدريبات اليومية. لقد نضج المجندون خلال فترة العبور؛ وفقدت ملامحهم استدارة المراهقة. لقد أصبحوا رجالاً، أو على الأقل أقرب ما يكونون إلى ذلك.

في إحدى الأمسيات، بينما كانوا يخيمون على الشاطئ، جمع بومونت فرقته.

— استمعوا إليّ جيداً يا رفاق. في غضون أيام قليلة، سنبحر فعلاً. سنتجه شمالاً، وهناك سنقاتل. لن يكون الأمر مثل التدريبات. سيكون هناك دماء وخوف وفوضى. سيموت بعضكم. هذه هي حقيقة الحرب، ولن أكذب عليكم وأقول غير ذلك.

كان الصمت مطبقاً. حتى الحشرات بدت وكأنها تنتظر. سأل دوبوا، الجندي الذي عانى كثيراً من دوار البحر، بصوت مرتعش:

— يا رقيب، كيف نتجنب الخوف؟

حدق بومونت فيه قبل أن يجيب.

— لا نستطيع فعل ذلك. الخوف موجود دائمًا. حتى بالنسبة لي، بعد عشرين عامًا من الخدمة. حتى بالنسبة للجنرال. المهم ليس عدم الخوف، بل أداء الواجب رغم الخوف. البقاء في الموقع. حماية الرفيق بجانبك. هذا هو جوهر الجندية.

— ماذا لو واجهنا رجلاً صينياً وجهاً لوجه؟ ماذا لو اضطررنا لقتله؟

ستقتله. وإلا سيقتلك. لا مجال للتردد في المعركة، فالبقاء هو الغاية.

تدخل العريف ليرو، الذي كان يستمع في صمت.

يُقال إن الصينيين يشوهون أسراهم، ويقطعون رؤوسهم ويلصقونها على الرماح.

هذا هراء محض. الصينيون بشر مثلنا. يشعرون بالخوف مثلنا، ويتألمون مثلنا، ويموتون مثلنا. لا تجرّدوهم من إنسانيتهم بتخيّل أهوالٍ كهذه. فهذا لا يُبرّر إلا فظائعنا.

انحرف الحديث إلى مواضيع أخرى أخف وطأة. تحدث الجنود عن عائلاتهم وقراهم، وعن خططهم عند عودتهم إلى فرنسا. تركهم بومونت يحلمون، مدركًا أن هذه الأحلام قد تكون أحيانًا الشيء الوحيد الذي يُبقي الإنسان على قيد الحياة في أحلك اللحظات.

لكن ليس جميعهم سيعودون. بعض الوجوه التي رآها ستختفي قريباً، إما برصاصة، أو بمرض، أو بتقلبات الحرب القاسية.

انطلقت عملية الإبحار في أوائل شهر يوليو. غادر أسطول ضخم من السفن الفرنسية والبريطانية هونغ كونغ متجهاً شمالاً. ورافقت الفرقاطات سفن نقل الجنود، موجهة مدافعها نحو الأفق وكأنها تنذر بالعنف.

على سطح سفينة الإمبراطورة أوجيني، راقب مونتوبان الميناء وهو يبتعد في الأفق. وقف ديلماس بجانبه صامتاً. نشأت بينهما علاقة تواطؤ جديدة، نابعة من تلك المحادثات الليلية التي تبادلا فيها شكوكهما وآمالهما.

— هل أنت مستعد يا قبطان؟

— بقدر ما يستطيع المرء يا جنرال. لقد فكرت فيما أخبرتني به. في طبيعة الحملة، وفيما ينتظرنا. لقد حاولت أن أهيئ نفسي ذهنياً.

— و؟

— لا أعلم إن كان من الممكن الاستعداد لبعض الأمور. فهناك مواقف تُختبر فيها جميع مبادئنا وقناعاتنا. أدعو الله أن يمنحني القوة لأبقى وفياً لما أؤمن به.

— كلنا ندعو الله أن يتحقق ذلك. لكن في بعض الأحيان، تُغيرنا الحرب رغماً عنا. لقد رأيت رجالاً صالحين يتحولون إلى قساة، ورجالاً شرفاء يرتكبون أعمالاً مشينة. ليس باختيارهم، بل لأن الظروف دفعتهم إلى ذلك. كن حذراً يا ديماس. انتبه لأفعالك. هذه هي النصيحة الوحيدة التي أستطيع تقديمها لك.

تقدم الأسطول شمالاً، محاذياً الساحل الصيني. مرت الأيام بتوتر متزايد. فحص الجنود أسلحتهم، وشحذوا حرابهم، وربما كانوا يكتبون رسائلهم الأخيرة. كان الجو مشحوناً بالترقب الذي يسبق الأحداث الكبرى.

في الأول من أغسطس عام 1860، بدت شواطئ بيه تانغ في الأفق. شاطئ مهجور، تحيط به الكثبان الرملية والمستنقعات. لا تحصينات ظاهرة، ولا أثر لوجود عسكري صيني. بدا أن خطة مونتوبان ناجحة.

بدأ الإنزال مع بزوغ الفجر. تنقلت الزوارق ذهابًا وإيابًا بين السفن والشاطئ، حاملةً الرجال والخيول والمدافع والذخيرة والمؤن. كان مشهدًا متقنًا، أشرف عليه ضباط البحرية بدقة متناهية. نزل الفرنسيون في الشمال، والبريطانيون في الجنوب، وحددت كل فرقة حدودها.

كان مونتوبان من أوائل من نزلوا من السفينة. غاصت حذائه في الرمال الرطبة، ولأول مرة منذ شهور، شعر تحت قدميه بصلابة الأرض الثابتة. ذكّره هذا الإحساس المنسي منذ زمن طويل بأنه عاد جنديًا بريًا، وأن بيئته الطبيعية هي قيادة الرجال في ساحة المعركة، لا العيش في حيز السفينة الضيق.

— قم بإنشاء محيط أمني. أرسل كشافة. أريد أن أعرف ما إذا كان الصينيون ينتظروننا في مكان ما.

شهدت الساعات التالية نشاطاً محموماً. انتشرت القوات، وأقامت معسكراً، وحفرت خنادق. وُضعت المدافع في مواقعها، موجهة نحو الداخل. تشكل خط دفاعي، محولاً هذا الشاطئ المهجور إلى موقع محصن.

كان الليل قد حلّ عندما عاد الكشافة الأوائل. وأكد تقريرهم ما كان مونتوبان يأمله: لم يتوقع الصينيون إنزالًا في هذا الموقع. وكانت حصون داغو، الواقعة على بعد نحو عشرين كيلومترًا جنوبًا، تُركّز كل قواتها.

لقد حققنا تقدمنا الأول. غداً، سنبدأ تقدمنا نحو الحصون. سنستولي عليها من الخلف ونخطو خطوتنا الأولى نحو النصر.

بزغ فجر الثاني من أغسطس وسط ضباب كثيف غطى المعسكر. خرج الجنود من خيامهم، منهكين من ليلة مضطربة. كان الحر خانقاً رغم الوقت المبكر، والتصقت الرطوبة بملابسهم العسكرية كأنها جلد ثانٍ.

تفحّص الجنرال القوات بنظرة فاحصة. بدت ملامحهم متوترة، لكنها عازمة. هؤلاء الرجال، الذين قطعوا نصف العالم، كانوا مستعدين للقتال.

وصل غرانت على ظهر حصانه، محاطًا بضباطه. كان لقاؤه مع مونتوبان وديًا، لكنه بارد. تبادل الرجلان التحية بفتور، وتبادلا بضع كلمات حول الطقس واللوجستيات، ثم افترقا ليلتحقا بقواتهما.

— ما زال لا يحبنا، هكذا علّق ديماس، الذي شهد المشهد.

— لا يهم إن كان يحبني أم لا. المهم هو أن يقوم بعمله.

انطلقت القافلة حوالي الساعة التاسعة. عشرة آلاف جندي فرنسي في الشمال، واثنا عشر ألف جندي بريطاني في الجنوب، يتقدمون بالتوازي عبر حقول الأرز والقرى المهجورة. كان الفلاحون الصينيون قد فروا عند اقتراب الجيش الأجنبي، تاركين منازلهم ومحاصيلهم، بل وحتى مواشيهم في بعض الأحيان.

خلق هجر الريف جواً موحشاً ومخيفاً. سار الجنود في هدوء نسبي، لم يقطعه سوى دويّ الأحذية، وصوت الأسلحة، وأوامر الضباط. وفي السماء، حلّقت الغربان، حراساً سوداء ربما تنذر بالمذبحة الوشيكة.

سار الرقيب بومونت في مقدمة فصيلته، يراقب الأفق بحذر. لقد علمته سنوات خدمته في الجزائر قراءة علامات الخطر: حركة في العشب الطويل، انعكاس مريب، صمت عميق غير طبيعي. في الوقت الراهن، لم يكن هناك ما يشير إلى وجود عدو، لكنه ظل متيقظًا.

— يا رقيب، لماذا كل هذه القرى خالية؟ أين ذهب كل الناس؟

لقد فروا. هذا ما يفعله المدنيون عندما يستعد جيشان للقتال. إنهم يعلمون أن وجودنا لن يجلب لهم أي خير.

لكننا لا نتمنى لهم أي أذى. نحن هنا من أجل إمبراطورهم، وليس من أجلهم.

ـــ هل تعتقد أن الفلاحين يفرقون بيننا وبينهم؟ بالنسبة لهم، نحن غزاة أجانب، شياطين ذوو عيون مستديرة قادمون من أقاصي الأرض لنشر الفوضى. وتعرف ماذا؟ إنهم ليسوا مخطئين.

توقف الحديث فجأةً عندما ركض ضابطٌ نحو الرتل وهو يصرخ بالأوامر. تسارعت وتيرة المسير. رصدت الكشافة تحركات القوات الصينية على بُعد بضعة كيلومترات. كان العدو يعلم بوجودهم هناك.

وقع أول اتصال في منتصف الظهيرة. خرج الرتل الفرنسي من بستان ليجد نفسه أمام سهل ينتشر فيه جيش صيني. آلاف الجنود بزيّهم الملون، ورياتهم ترفرف في الريح، وطبولهم تدق بإيقاع ينذر بالخطر.

رفع مونتوبان يده، فتوقف الرتل بأكمله. تفحص بدقة مواقع العدو. كان الصينيون كثيرين، ربما ما بين خمسة عشر إلى عشرين ألف رجل، لكن تشكيلهم بدا غير منظم. كتل متراصة من المشاة، وبعض قطع المدفعية ذات التصميم القديم، وفرسان التتار على الأجنحة.

إنهم يريدون منعنا من الوصول إلى الحصون. محاولة فاشلة. إنهم يعلمون أنهم سيخسرون.

ربما. لكن الرجال اليائسين قد يكونون أقوياء.

التفت مونتوبان إلى فافييه.

ـــ ضعوا المدفعية على هذا التل. أريدكم أن تبدأوا قصفهم حالما نتخذ مواقعنا. ستتقدم المشاة على دفعات، محافظةً على تماسكها. لا داعي للمجازفة غير الضرورية.

تم إرسال الأوامر. انتشر الجيش الفرنسي بدقة تشبه الاستعراض العسكري. وُضعت المدافع في مواقعها، وشكّلت كتائب المشاة خطوطاً مثالية، واتخذت قوات الاستطلاع مواقعها في الطليعة.

أما الصينيون، فقد ظلوا بلا حراك، وكأنهم متجمدون من هول هذا الاستعراض للانضباط العسكري. استمرت طبولهم في القرع،

ورایاتهم في التلویح، لكن كان بالإمكان استشعار تردد وحيرة في مواجهة آلة الحرب هذه التي كانت تُنشر أمامهم.

انضم البارون غروس، الذي بقي مع المدنيين، إلى مونتوبان.

ـــ أيها الجنرال، ربما ينبغي لنا محاولة التفاوض؟ تجنب إراقة الدماء غير الضرورية؟

لقد اختاروا أن يعرقلوا طريقنا. إنهم يدركون العواقب.

لكن لننظر إلى التداعيات الدبلوماسية. فإذا استطعنا الحصول على استسلامهم دون قتال، فسيسهل ذلك المفاوضات المستقبلية.

تردد مونتوبان. كان الاقتراح منطقياً، لكنه أدرك أيضاً مخاطر التأخير. فقد يفسر الصينيون هذه الفرصة على أنها علامة ضعف، أو يعززون موقفهم أثناء استمرار المفاوضات، أو يشنون هجوماً مفاجئاً.

ـــ حسناً. أرسل مبعوثاً تحت راية بيضاء. أخبرهم أننا لا نسعى إلى قتال، ولكننا سنتجاوز الأمر بطريقة أو بأخرى.

انحنى غروس وانسحب لتنظيم هذه العملية. وتقدم ضابط فرنسي، برفقة مترجم صيني يعمل في هونغ كونغ، نحو خطوط العدو حاملاً راية بيضاء. وتبعه الجميع.

استمر الحوار حوالي عشر دقائق. ثم عاد الضابط مسرعاً، وكان حصانه يزبد من فمه.

ـــ يا جنرال، الصينيون يرفضون الانسحاب. يقول قائدهم إنه تلقى أوامر بإيقافنا، وأنه يفضل الموت على عصيان إمبراطوره.

سيموت. فافيير، يمكنك البدء.

رفع قائد المدفعية ذراعه، ثم أنزلها. دوّت المدافع الفرنسية في انسجام تام، نافثةً النيران والدخان. انطلقت قذائف المدفعية في الهواء بصوت مميت، وانهالت على صفوف القوات الصينية.

كانت النتيجة كارثية. شكلت تشكيلات مشاة العدو الكثيفة أهدافًا مثالية. حفرت قذائف المدفعية أخاديد دموية، حاصدةً عشرات الرجال مع كل

إصابة. ارتفعت صرخات الجرحى في الهواء الحار، ممزوجةً بدويّ المدفعية.

كان بومونت يراقب من موقعه المرتفع مع فرقته. لقد شهد معارك، ويعرف أهوال الحرب. لكن في هذا المشهد، انتابه شعورٌ بالقلق. هؤلاء الصينيون، يموتون بالمئات، لم تُتح لهم حتى فرصة القتال. إعدام، لا معركة.

— يا رقيب، انظر ماذا نفعل بهم. إنها... إنها مذبحة، همس دوبوا وعيناه متسعتان.

— حرب حديثة. مدافعنا في مواجهة رماحهم. تكنولوجيتنا في مواجهة شجاعتهم. أهلاً بكم في العالم المتحضر.

قصفت المدفعية الفرنسية المواقع الصينية بكثافة. وبعد خمس عشرة دقيقة من هذا القصف المتواصل، بدأ جيش العدو بالتفكك. فرّت مجموعات من الجنود في حالة من الفوضى، تاركين أسلحتهم وجرحاهم. حاولت فرسان التتار شنّ هجوم على الجناح الأيسر الفرنسي، لكنها واجهت نيرانًا كثيفة من المشاة. وسقط الرجال والخيول في فوضى عارمة من الجثث والصراخ.

وقف إطلاق النار. جامين، ابدأ المطاردة، ولكن بضبط النفس. لا أريد أن نتفرق.

تقدمت المشاة الفرنسية راكضةً، وقد ثبتت حرابها. لكن لم يبقَ الكثير لملاحقته. فقد اختفى الجيش الصيني، تاركاً وراءه ساحةً مليئةً بالقتلى والجرحى.

ترجّل مونتوبان وسار بين الجثث. كانت وجوههم، وقد تجمدت في الموت، تحدق به بتعابير مختلفة: الدهشة، والألم، والاستسلام. معظمهم من الشبان، فلاحون انتُزعوا من قراهم وأُلقوا في هذه المعركة التي ربما لم يفهموها.

وجده القبطان شاحباً.

ـــ خسائرنا ضئيلة يا جنرال. ثلاثة قتلى، ونحو عشرة جرحى. أما الصينيون... فلا بد أن عددهم يزيد عن ألف.

ـــ إجلاء جرحانا. من أجل الصينيين...

تردد مونتوبان.

ـــ افعل ما بوسعك من أجل الجرحى. أولئك الذين يمكن إنقاذهم. أما الآخرون...

لم نتمكن من إنقاذ الجميع.

حلّ الليل على ساحة المعركة المؤقتة. انشغل المسعفون الفرنسيون بالجرحى، يُعطونهم الأفيون لتسكين آلامهم، ويبترون الأطراف المهشمة، ويخيطون الجروح الغائرة. كانت مآزرهم البيضاء ملطخة بالدماء، ووجوههم تحمل آثار التعب والاشمئزاز.

عمل الجراح الرائد رينو بكفاءة آلية نابعة من العادة. لقد رأى الكثير من الإصابات، والكثير من المعاناة، لدرجة أنه بنى حول نفسه درعًا عاطفيًا.

ـــ يا قبطان، تعال وانظر إلى شيء ما.

دخل ديلماس الخيمة، التي كانت مضاءة بشكل خافت بالفوانيس. انبعثت رائحة حلوة من الدم واللحم المحروق، فخنقته. وعلى نقالات مؤقتة، كان يرقد نحو عشرة جنود صينيين جرحى.

انظر إلى هذا. إحدى ساقيه محطمة، وذراعه اليسرى ممزقة. بضع ساعات من الحياة، على الأكثر. لكن انظر إلى وجهه. إنه يبتسم.

ذُهل القبطان عندما رأى أن الطبيب كان صادقاً. الشاب الصيني، رغم ألمه، كان يرتسم على وجهه ابتسامة هادئة. تحركت شفتاه وهمس بكلمات غير مفهومة.

ـــ ماذا قال؟

ـــ قام المترجم بالترجمة لي. ثم تلا دعاءً بوذياً. كان يستعد للموت بكرامة.

شعر بضيق في صدره. هذا الشاب، الذي يموت بعيداً عن وطنه، وقد شوهته أسلحة لم يرها من قبل، واجه مصيره بشجاعة تفوق شجاعة العديد من الرجال الذين عرفهم.

ـــ هل هناك أي شيء يمكننا فعله من أجله؟

ـــ لتخفيف العبء عنه. هذا كل شيء.

انتظر رينو لحظة.

ـــ أتعلم يا قبطان، لقد كرست حياتي لرعاية الجنود. الفرنسيين والعرب، والآن الصينيين. وأحياناً أتساءل إن كنا جميعاً مجانين. إن كان لكل هذا العنف، ولكل هذه المعاناة، أي معنى.

ـــ لطالما وُجدت الحرب، وستبقى موجودة.

ـــ وهذا لا يعني أنه صحيح. أو ضروري.

لم يكن لدى الشاب جوابٌ على ذلك. غادر الخيمة وسار عبر المخيم باحثًا عن مكان هادئ ليجمع أفكاره. جلس أخيرًا على صخرة، بعيدًا عن النيران والأحاديث. امتدت السماء المرصعة بالنجوم فوقه، شاسعةً غير مبالية بالمآسي الإنسانية التي تتكشف في الأسفل.

تذكر ذلك الشاب الصيني المحتضر، ولويز دي مونتوبان وكلماتها النبوئية، وسذاجته حين ظن أن الحرب يمكن أن تكون نظيفة وشريفة. لم يرَ شيئًا، كان يعلم ذلك. هذه المناوشة لم تكن سوى مقدمة. ما ينتظرهم لاحقًا، في حصون داغو، وتيانجين، وربما بكين، سيكون أسوأ بكثير.

واصل جيش الحلفاء تقدمه. وبذل الصينيون عدة محاولات أخرى لإيقافه، شنّوا خلالها هجمات تم صدّها جميعها بخسائر فادحة. أما الفرنسيون والبريطانيون، فتقدموا بثبات لا هوادة فيه، إذ اكتسح تفوقهم التكنولوجي كل مقاومة.

في الحادي والعشرين من أغسطس، اقتربوا من الحصون. منشآت ضخمة من التراب والحجر، مُجهزة بمدافع من جميع العيارات، ويدافع

عنها آلاف الجنود. لكن الفرنسيين كانوا يهاجمونهم من الخلف، كما توقع مونتوبان، بينما كان الأسطول البريطاني يقصفهم من الأمام.

كانت المعركة قصيرة لكنها شرسة. اخترقت المدفعية الفرنسية الأسوار، وتدفقت قوات المشاة من خلالها. كان القتال المباشر عنيفًا. دافع الصينيون عن أنفسهم بشجاعة فائقة، مدركين أنهم يقاتلون من أجل شرفهم وشرف إمبراطورهم.

وجد الرقيب بومونت نفسه في خضم المعركة، وقد أصبح بندقيته عديمة الفائدة، يقاتل بالحراب وأعقاب البنادق. من حوله، كان رجاله يصرخون ويضربون ويقتلون. تلاشت الحضارة وقواعدها في ضراوة القتال. لم يبقَ سوى البقاء، الغريزة البدائية التي تدفع المرء إلى القضاء على غيره قبل أن يُقضى عليه هو نفسه.

دوبوا، الجندي الذي عانى كثيراً من دوار البحر، قاتل بشراسة لم يكن أحد ليتوقعها. كان وجهه ملطخاً بالدماء، وعيناه تلمعان ببريق جامح. لقد فقد براءته تماماً في ثوانٍ معدودة من القتال.

عندما سقطت الحصون في وقت متأخر من بعد الظهر، كانت الخسائر فادحة. ففي الجانب الفرنسي، قُتل نحو خمسين شخصًا وجُرح أكثر من مئتي شخص. أما في الجانب الصيني، فقد قُتل آلاف الأشخاص. وكان الناجون قد فروا باتجاه تيانجين، تاركين مواقعهم وأسلحتهم وشرفهم.

وقف مونتوبان على الأسوار التي تم الاستيلاء عليها، يُراقب ساحة المعركة الممتدة أسفله. تناثرت الجثث على الأرض، وتصاعد الدخان من المباني المحترقة. نصرٌ ممزوجٌ بالحزن والفرح.

وجده الجنرال غرانت، وعلى شفتيه ابتسامة رضا.

— انتصار عظيم يا مونتوبان. كانت استراتيجيتك هي الصحيحة. أعترف بذلك بكل سهولة.

— شكراً لك يا جنرال.

ـــ الآن يمكننا الصعود إلى نهر بيهو باتجاه تيانجين. الطريق إلى بكين مفتوح.

تصافح الرجلان، مُعلنين انتصارهما المشترك. لكن في نظر مونتوبان، ربما رأى غرانت شيئًا آخر غير الرضا عن أداء الواجب. ربما رأى قلقًا، وتساؤلات، وربما حتى بوادر ندم.

لكن غرانت لم يحاول قراءة عيون الرجال. جندي بسيط، كان يرى العالم من منظور الانتصارات والهزائم، والأعداء والحلفاء. لم تكن الفروق الدقيقة الأخلاقية تهمه.

بينما احتفل المعسكر المنتصر بالاستيلاء على الحصون بحصص إضافية من الروم، انسحب مونتوبان إلى خيمته وكتب:

"عزيزتي لويز،

لقد حققنا أول انتصار كبير لنا. سقطت حصون داغو، وأصبح الطريق إلى الداخل مفتوحاً. الرجال فخورون، والبريطانيون يحترموننا من جديد.

ومع ذلك، لا يسعني إلا أن أفكر في جميع الصينيين الذين ماتوا اليوم. لقد كانوا يقاتلون من أجل وطنهم، من أجل إمبراطورهم. كانوا يعلمون أنهم سيخسرون، لكنهم قاتلوا على أي حال.

كل انتصار يزيد من وطأة الأمر عليّ قليلاً. وكل موت يذكرني بأن وراء أهدافنا النبيلة حقائق أفضل أن أتجاهلها.

لكنني جندي. واجبي هو الطاعة، والنصر، وقيادة رجالي إلى الغلبة. لا مكان للشكوك في الحملات العسكرية.

ـــ ادعُ لي يا حبيبي. ادعُ أن أحافظ على سلامة روحي وسط كل هذه الفوضى.

زوجك الذي يحبك ويفكر بك كل يوم، تشارلز."

أغلق الرسالة، التي لن تُبحر لعدة أيام، حتى تعود سفينة إلى هونغ كونغ. قد يحدث الكثير خلال هذه الفترة. المزيد من المعارك، المزيد من القتلى، المزيد من الانتصارات...

مسيرة بكين

في اليوم التالي، بدأ أسطول الحلفاء بالتقدم في نهر بيهو. وتقدمت سفن النقل ببطء، برفقة زوارق حربية. كانت ضفاف النهر مهجورة، والقرى متروكة. امتدت صحراء قاحلة على جانبي النهر، شاهدة على العنف الذي اجتاح هذه المنطقة.

في الرابع والعشرين من أغسطس، دخلت قوات الحلفاء مدينة تيانجين دون مقاومة. كانت المدينة خالية، فقد فرّ سكانها مع اقتراب الغزاة الأجانب. لم يبقَ سوى عدد قليل من كبار السنّ الذين لم يستطيعوا المغادرة بسبب ضعفهم، وكانت الشوارع تعجّ بالكلاب الضالة.

اتخذ مونتوبان من معبد مهجور مقراً له. كانت جدرانه مغطاة بلوحات جدارية تصور مشاهد من الأساطير الصينية، وتنانين وعنقاء بألوان زاهية. تأمل هذه الصور لعالم مختلف تماماً عن عالمه، محاولاً فهم عقلية الشعب الذي كان يحاربه.

انضم إليه البارون غروس في المساء، حاملاً معه الأخبار.

أيها الجنرال، وصل المبعوثون الصينيون. إنهم يطلبون التفاوض. الإمبراطور مستعد لمناقشة التصديق على المعاهدة.

— حقاً؟ بعد كل هذه المقاومة، هو يستسلم؟

لقد أقنعته انتصاراتنا. إنه يعلم أنه إذا لم يتفاوض، فسنزحف نحو بكين. وهو لا يستطيع السماح بذلك. سيكون ذلك إهانة بالغة.

فكر مونتوبان للحظة. كانت المهمة الرسمية على وشك الإنجاز. سيتم التصديق على المعاهدة، وتحقيق الأهداف الدبلوماسية. بإمكانهم العودة إلى فرنسا مرفوعي الرأس، بعد أن أجبروا الصين على الانفتاح على التجارة الغربية.

لكنه شعر أن الأمر لن يكون بهذه البساطة. أراد البريطانيون المزيد. تحدث اللورد إلجين عن "دروس يجب تلقينها"، وعن "عقوبات رادعة". وكانت الإمبراطورة أوجيني تنتظر كنوزها من الشرق.

ـــ ابدأ المفاوضات يا بارون. لكن لا تتعجل الأمور. سنرى إلى أين ستؤدي.

انحنى غروس وغادر، مدركاً أن القرارات الحقيقية ستُتخذ في مكان آخر، في اجتماعات لن يُدعى إليها، بين رجال عسكريين لديهم أولويات أخرى غير الدبلوماسية.

تعثّرت المفاوضات. قدّم المبعوثون الصينيون تنازلات، لكنها لم تكن كافية في نظر البريطانيين. طالب اللورد إلجين بتعويضات مالية فلكية، وفتح موانئ جديدة، وامتيازات خارج الحدود الإقليمية. حاول البارون غروس تخفيف هذه المطالب، لكن صوته طغى عليه صوت الدبلوماسية البريطانية الأقوى.

في هذه الأثناء، كان الجنود يستقرون في تيانجين. وبدأ السكان الأصليون بالعودة بحذر، يختبرون نوايا هؤلاء الغزاة. ونشأت أسواق مؤقتة، حيث كان الجنود الفرنسيون والبريطانيون يقايضون ممتلكاتهم بالطعام الطازج والهدايا التذكارية، وأحيانًا حتى بخدمات بائعات الهوى الصينيات اللواتي دفعهن الفقر إلى هذه التجارة.

حاول الرقيب بومونت الحفاظ على الانضباط في فصيلته، لكنها كانت معركة خاسرة. فبعد شهور في البحر وأسابيع من القتال، كان الرجال يتوقون إلى الاستمتاع بالحياة. وطالما بقيت الأمور ضمن الحدود المقبولة، كان يتغاضى عن الأمر.

في إحدى الأمسيات، وبينما كان يقوم بجولاته في الشوارع القريبة من المخيم، فاجأ ثلاثة من رجاله وهم يقتحمون باب متجر مهجور على ما يبدو. اقترب منهم مهدداً.

ـــ ماذا تفعلون يا مجموعة الحمقى؟

تجمّد الجنود الثلاثة في أماكنهم، وقد تم ضبطهم متلبسين. فراشون، وكولاود، وثالث يُدعى دامباخ، الذين اكتسبوا سمعة سيئة كعناصر فاسدة.

ـــ يا رقيب، كنا نبحث فقط عن...

ـــ كنت تحاول السرقة.

صفعهم بومونت واحداً تلو الآخر، وترددت أصداء الصفعات العالية في الشارع الخالي.

ـــ كم مرة علينا أن نخبركم أننا لسنا لصوصاً؟ وأننا نمثل الجيش الفرنسي؟

ـــ لكن يا رقيب، احتج دامباخ. الإنجليز يفعلون ذلك على أكمل وجه. لقد رأيناهم يعودون إلى المعسكر بصناديق مليئة بالإمدادات.

ـــ لا يهمني ما يفعله الإنجليز. أنتم تحت إمرتي، وأوامري واضحة: ممنوع النهب. إذا ضبطت أحدكم يسرق، فسأجلده في الساحة العامة. مفهوم؟

استسلموا بخجل. لكن بومونت استطاع أن يرى في عيونهم أن الإغراء ما زال قويًا. كان الانضباط يتلاشى شيئًا فشيئًا. وكان يعلم أنه لا يستطيع التواجد في كل مكان للحفاظ عليه.

في أوائل سبتمبر، تدهورت المفاوضات بشكل حاد. فقد شدد المبعوثون الصينيون، تحت ضغط من العناصر المحافظة داخل البلاط الإمبراطوري، موقفهم. ورفضوا العديد من المطالب البريطانية ودعوا إلى انسحاب قوات الحلفاء.

ثم، تحت ستار هدنة تهدف إلى استئناف المحادثات، ألقت قوات الأمير المانشو سينغ رينشن القبض على الوفد الذي جاء للتفاوض: دبلوماسيون وضباط ومترجمون إنجليز وفرنسيون، وحتى صحفي من صحيفة التايمز كان يرافق البعثة. لقد كان عملاً بالغ الخطورة.

نُقل هؤلاء السجناء على يد الصينيين إلى بكين، حيث اختفوا في زنزانات الإمبراطورية. لعدة أيام، انقطعت أخبارهم. ثم بدأت الشائعات تنتشر تدريجياً، شائعات مروعة عن التعذيب والتشويه.

تلقى مونتوبان النبأ في اجتماع طارئ دعا إليه غرانت. وتحدث الضباط الإنجليز، بوجوه عابسة، بنبرة هامسة. أما إلجين، فكان يذرع المكان جيئة وذهاباً كحيوان محبوس في قفص.

ـــ هؤلاء المتخلفون تجرأوا على أسر دبلوماسيين بريطانيين! صاح غاضباً. انتهاك صارخ للقانون الدولي! إهانة لا تُطاق!

ـــ ماذا تقترح؟ سأل مونتوبان بهدوء، في تناقض مع الهستيريا المحيطة.

نظر إليه إلجين، وعيناه تلمعان بالغضب.

سنزحف نحو بكين. سنحرر رجالنا. وسنجعل هؤلاء الصينيين يدفعون ثمن خيانتهم.

ـــ إن الزحف نحو بكين مغامرة محفوفة بالمخاطر. فنحن بعيدون عن قواعدنا، وخطوط إمدادنا ممتدة...

ـــ لا أبالي بالمخاطر! لقد دُست كرامتنا. وسننتقم لها مهما كلف الأمر، قاطعه إلجين.

حاول البارون غروس التدخل.

ـــ يا سيد إلجين، ربما ينبغي علينا أولاً محاولة تأمين إطلاق سراح هؤلاء الرجال عن طريق التفاوض...

ـــ التفاوض؟ مع هؤلاء الخونة الذين ينقضون وعودهم؟ مستحيل!

استمر الاجتماع لأكثر من ساعتين، لكن القرار كان قد اتُخذ في ذهن إلجين. ستزحف جيوش الحلفاء نحو بكين. سيسحقون كل مقاومة. سيعيدون الأسرى، طوعاً أو قسراً.

غادر مونتوبان الاجتماع وهو يشعر بشعورٍ مُسبقٍ بالخطر. كانت الأمور تخرج عن السيطرة. كانت المهمة الدبلوماسية تتحول إلى حملة عقابية. وكان لديه إحساس بأن الأسوأ لم يأتِ بعد.

بدأ الزحف نحو بكين في 18 سبتمبر 1860. انطلق اثنان وعشرون ألف رجل، فرنسيون وبريطانيون، نحو العاصمة الإمبراطورية. شكّلوا طابوراً مهيباً امتدّ لعدة كيلومترات، متعرجاً عبر سهول شمال الصين الخصبة.

ركب ديلماس بجانب مونتوبان، يراقب المشهد المتغير. قرى محترقة، حقول مدمرة، جثث جنود صينيين تتعفن تحت أشعة الشمس. الحرب تترك بصمتها على هذه الأرض العريقة.

— أيها الجنرال، هل تعتقد أننا سنجد هؤلاء السجناء أحياء؟

أبقت مونتوبان انتباهها مثبتاً على الأفق.

— أتمنى ذلك يا قبطان. أتمنى ذلك من صميم قلبي. لأنه إذا كانوا أمواتاً، إذا كان الصينيون قد عذبوهم... فلن يكون هناك ما يكبح جماح الانتقام البريطاني. وسنُجرف في دوامة العنف تلك، شئنا أم أبينا.

— بإمكاننا الرفض. أن نحافظ على مسافة بيننا وبين التجاوزات الإنجليزية.

— نحن حلفاء. شرفنا يُلزمنا بالبقاء متحدين، حتى عندما لا نوافق على أفعالهم.

— شرف...

هز القبطان رأسه.

— لدي انطباع بأن هذه الكلمة تفقد معناها مع تقدمنا في العمر.

شارك مونتوبان هذا الشعور. الشرف العسكري، والمبادئ النبيلة، والكلمات الرقيقة من باريس... كل ذلك تلاشى أمام قسوة واقع هذه الحملة. لم يبقَ سوى ضرورة التقدم، والغزو، والبقاء.

وفي مكان ما أمامهم، وراء الأفق، كانت بكين تنتظرهم بأسرارها ومخاطرها. القصر الصيفي، الذي طالما تحدث عنه المبشرون، كان يقترب. ومعه جاءت الإغراءات، والطمع، وإمكانية النهب التي ستطبع تاريخ هذه الرحلة إلى الأبد.

في صباح يوم 21 سبتمبر، استأنف رتل الحلفاء مسيرته بعد ليلة مضطربة. كان الجنود قد ناموا في الحقول، ملفوفين بمعاطفهم الثقيلة، وقد هدأت أعصابهم على أصوات الريف الصيني الغريبة: نقيق الضفادع في حقول الأرز، وعواء الكلاب البرية البعيد، وأحيانًا صراخ طائر ليلي يشبه رثاءً بشريًا.

لم يغمض بومونت عينيه إلا قليلاً. ظل مستيقظاً يدخن غليونه، يراقب النجوم المتلألئة. بالقرب منه، كان رجاله يشخرون، منهكين من مسيرة اليوم السابق القسرية. أما دوبوا، فكان يئن في نومه، تطارده كوابيس كان بومونت يتخيلها بسهولة. لقد قتل الفتى للمرة الأولى خلال الاستيلاء على حصون داغو، وقد تركت تلك التجربة أثراً عميقاً في نفسه.

مع بزوغ الفجر، أيقظ بومونت فرقته بأوامر مفاجئة. خرج الرجال من تحت أغطية أسرّتهم وهم يتذمرون، وأطرافهم مخدرة، ووجوههم شاحبة. تناولوا فطورًا هزيلًا من البسكويت الجاف والقهوة الفاترة، ثم اصطفوا في انتظار إشارة الانطلاق.

مرّ ديماس على صهوة جواده متجاوزًا إياهم، يراقب الجنود بعين شاردة. هو الآخر لم ينم جيدًا، تطارده أفكار مزعجة. الحديث الذي دار بينه وبين مونتوبان على متن السفينة، وكلمات لويز النبوئية - كل ذلك كان يدور في ذهنه.

— يا قبطان، ما هي وجهتنا اليوم؟ نادى بومونت عليه قائلاً.

أوقف حصانه.

— نتجه شمال غرب. توجد قرية محصنة على بعد حوالي خمسة عشر كيلومتراً. أفاد الكشافة أن القوات الصينية قد تحصنت هناك. على الأرجح سنضطر إلى شق طريقنا بالقوة.

— المزيد من الدماء. دائماً المزيد من الدماء.

— إنها حرب يا رقيب. أنت تعلم ذلك جيداً مثلي.

— أعلم. لكن هذا لا يجعل الأمر أسهل.

أومأ ديلماس موافقًا وانسحب. لقد فهم مشاعر بومونت. كان هو الآخر قد سئم من هذه المعارك التي لا تنتهي، ومن هذه الانتصارات التي لا طعم لها. لكن لم يكن أمامهم خيار. كان عليهم التقدم، والتقدم دائمًا، حتى يستسلم الإمبراطور الصيني أو تُستنزف قواتهم.

تقدم الرتل لثلاث ساعات عبر مناظر طبيعية تتناوب بين حقول الأرز المغمورة وحقول الذرة الرفيعة. كان الحر خانقًا، والرطوبة تشبع الهواء لدرجة أنه كان أشبه بتنفس الماء. التصقت الملابس العسكرية بجلودهم، وثقلت الحقائب على أكتافهم المنهكة.

حوالي الساعة العاشرة، انطلقت الطلقات الأولى. قناصة متفرقون، مختبئون في العشب الطويل، يضايقون الرتل. صفّرت رصاصاتهم فوق رؤوسهم، ونادراً ما تسببت في أضرار، لكنها أبقت الجنود في حالة توتر دائم.

— أيها المناوشون، تقدموا! أزيلوا هذه الأحراش! صرخ أحد الضباط.

انتشر جنود المشاة في تشكيل متفرق، يفتشون المناطق المشبوهة بحذر. بين الحين والآخر، كانت تُسمع طلقات نارية، يتبعها صراخ. أحيانًا كان يسقط جندي صيني، وأحيانًا جندي فرنسي. استمرت الحرب بلا هوادة، محولةً الرجال إلى مجرد إحصائيات، إلى أرقام في التقارير العسكرية.

ظهرت القرية المحصنة في وقت مبكر من بعد الظهر. مجموعة من حوالي مئة منزل محاطة بسور من الطين المدكوك. رفرفت الأعلام الصينية على الأسوار، ويمكن رؤية ظلال الجنود وهم يترددون عليها.

أوقف مونتوبان الموكب على بعد كيلومتر واحد من القرية واستدعى ضباطه. تجمعوا حول خريطة مفرودة على غطاء عربة، يدرسون تضاريس المنطقة.

— موقع دفاعي تقليدي. يتمتعون بميزة التضاريس، والجدران المتينة، وربما مخزون من الطعام والذخيرة. سيكون الهجوم المباشر مكلفًا.

— لن نهاجم مباشرة. فافييه، ضع مدفعيتك على تلك التلة شرقاً. ستقصف الدفاعات. في هذه الأثناء، كولينو، ستطوّق القرية شمالاً بلواءك. عندما يركز المدافعون على مدفعيتنا، ستضرب من الخلف.

ـــ ماذا لو كان الصينيون قد خططوا لهذه المناورة؟ ماذا لو كانوا ينتظروننا في الشمال؟

سنرتجل. لكنني أشك في أن لديهم القوة البشرية الكافية للدفاع عن جميع الأطراف في نفس الوقت.

صدرت الأوامر. انقسم الجيش الفرنسي إلى عدة مجموعات، اتجهت كل منها نحو موقعها المحدد. سار الجنود بتوتر يسبق المعركة، يتفقدون أسلحتهم، يعدلون معداتهم، ويتبادلون بضع كلمات بصوت خافت.

جمع بومونت مجموعته خلف بستان من الأشجار القزمة وكرر لهم ما قاله لهم بالفعل في مناسبات عديدة.

ـــ استمعوا إليّ جيداً. في غضون ساعة، وربما أقل، سنهاجم هذه القرية. سيموت بعضكم، وسيُصاب آخرون. لن أكذب عليكم وأقول غير ذلك.

ترك كلماته تؤثر فيهم، متفحصاً الوجوه المتوترة والفكوك المشدودة.

ـــ لكن إذا تكاتفتم، وإذا دعمتم بعضكم بعضاً، وإذا أطعتم الأوامر دون تردد، فستكون لديكم فرصة. فرصة جيدة. نحن أفضل جنود العالم. لا تنسوا ذلك أبداً.

فتحت المدفعية الفرنسية نيرانها في تمام الساعة الثانية. دوّت المدافع في ضجيجٍ صاخبٍ يصم الآذان، وهي تقذف قذائفها الحديدية على أسوار القرية. كانت النتيجة فورية. انهارت أجزاءٌ كاملةٌ من السور في سحبٍ من الغبار، واقتلعت الأسقف، واندلع حريقٌ هنا وهناك.

من موقعه المرتفع، راقب مونتوبان القصف بمزيج من الرضا والقلق. لقد كان استعراضًا لقوة ساحقة، ولكنه ذكّره أيضًا بمدى تجريد الحروب الحديثة من الطابع الشخصي. يموت الرجال عن بُعد، يُقتلون بقذائف يطلقها مدفعيون لن يروهم أبدًا، ولن يعرفوا أسماءهم، ولن يتحملوا وطأة موتهم.

أيها الجنرال، لواء كولينو في موقعه. إنه ينتظر إشارتك للهجوم.

ـــ دعها تنتظر عشر دقائق. أريد أن يكون الصينيون في حالة ارتباك تام قبل شن الهجوم.

مرت تلك الدقائق العشر وسط دويّ المدفعية المتواصل. أطلقت المدافع الفرنسية نيرانها بانتظامٍ دقيق، مدمرةً دفاعات العدو. في القرية، تخيّل الناس الذعر والرعب وصراخ الجرحى وأكوام القتلى.

أعطى مونتوبان الإشارة. رفرف علم على التل، وانطلقت كتيبة كولينو في هجومها. خرج خمسة آلاف رجل من الشمال، وهم يهتفون، ويندفعون نحو الثغرات التي فُتحت في الأسوار.

كانت المقاومة الصينية قصيرة لكنها شرسة. حاول المدافعون، المذهولون من القصف، صد المهاجمين بشجاعة محمومة. اندلع قتال بالأيدي في الأزقة الضيقة، كان وحشيًا لا يرحم.

كان بومونت وفصيلته جزءاً من الموجة الثانية من الهجوم. لقد اكتشفوا مشهداً من الدمار. كانت الجثث المقطعة تملأ الشوارع، والمنازل تحترق، والجرحى يزحفون ويتأوهون.

ـــ إلى الأمام! لا تتوقفوا، استمروا! صرخ بومونت.

تقدموا عبر القرية المحترقة، دافعين آخر جيوب المقاومة إلى الوراء. أطلق دوبوا النار على جندي صيني كان يندفع نحوه، فأصابه في صدره. سقط الرجل أرضًا، يبصق دمًا، وعيناه الواسعتان تحدقان في السماء بتعبير جامد من الدهشة.

ظل الشاب الفرنسي متجمداً في مكانه، يحدق في الرجل الذي قتله للتو. صفعه بومونت بعنف.

ـــ ليس لدينا وقت لذلك! أعد تعبئة بندقيتك وتقدم للأمام!

أطاع دوبوا بشكل آلي، لكن وجهه شحب كالموت. شيء ما بداخله قد انكسر، شيء لن يُصلح أبداً.

كانت المعركة خاطفة. وما إن عاد الصمت حتى سقطت القرية. فرّ الصينيون الناجون غربًا، تاركين وراءهم جرحاهم وقتلاهم. أحصى

الفرنسيون خسائرهم: خمسة عشر قتيلاً، ونحو أربعين جريحًا. أما الصينيون فقد تركوا ما يقارب ثلاثمائة جثة.

دخل مونتوبان القرية على ظهر حصان، برفقة حاشيته. وحوله، فتش الجنود المنازل المهجورة، بحثاً عن الطعام والماء، وأحياناً عن الأشياء الثمينة.

أوقفوا النهب. أريد انضباطاً صارماً. قد يعود هؤلاء الناس بعد رحيلنا. يجب ألا يظنوا أننا متوحشون.

انطلق جامين لتسليم الأمر، لكن مونتوبان كان يعلم أن سلطته محدودة. فالنهب قديم قدم الحرب نفسها. يمكن احتواؤه، لكن لا يمكن منعه. كان الجنود يأخذون ما يريدون، مبررين أفعالهم بالمخاطر التي يواجهونها، وببعدهم عن ديارهم، وبيقينهم أن لا أحد سيعاقبهم حقًا.

في فناء داخلي، أقام الجراح الرائد رينو مركز الإسعافات الأولية. كان الجرحى يرقدون على الحصائر، ينتظرون دورهم. بعضهم يصرخ من الألم، والبعض الآخر يبقى ساكناً، وعيونه شاردة. كان رينو ينتقل من واحد إلى آخر، يقدم لهم الرعاية.

— يا جنرال، لدينا مشكلة. أصيب العديد من جرحانا بأسلحة مسمومة. سهام مغموسة في مادة مجهولة. الجروح تصاب بالعدوى بمعدل مرعب.

— هل يمكنك إنقاذهم؟

ربما. إذا بترنا الأطراف دون تأخير، قبل أن ينتشر السم في جميع أنحاء الجسم. لكن ذلك سيكون مؤلماً، ولا أملك الأفيون لتخديرهم.

— افعل ما بوسعك. إنهم رجالنا.

أومأ رينو برأسه وعاد إلى عمله الدامي. ابتعد مونتوبان، غير قادر على تحمل صرخات مبتوري الأطراف أكثر من ذلك. لقد قاد جيوشًا، وحقق انتصارات، وحصل على أوسمة. لكن صرخات هؤلاء الرجال المشوهين ظلت تطارده أكثر من أي معركة.

حلّ الليل على القرية المحتلة. أقام الجنود الفرنسيون معسكراً في الأنقاض، وأشعلوا النيران للتدفئة. كان الجو غريباً، مزيجاً من الارتياح لنجاتهم والقلق من الدمار الذي تسببوا به.

جلس بومونت مع رجاله حول نار موقدة، يتقاسمون حصة من اللحم المعلب ذي المذاق المعدني غير المستساغ. لم ينبس أحد ببنت شفة. تناول الجنود طعامهم في صمت، غارقين في أفكارهم.

كان ليرو هو من كسر هذا الصمت القمعي.

— يا رقيب، هل سبق لك أن قتلت رجلاً من مسافة قريبة؟ أقصد، بمجرد النظر إليه؟

واصل بومونت تناول طعامه دون أن يجيب على الفور. كان هذا سؤالاً طُرح عليه عشرات المرات على مر السنين، ولم يجد إجابة شافية قط.

— نعم. في الجزائر. متمرد فاجأني في واحة. تقاتلنا لوقت بدا وكأنه دهر. وفي النهاية غرست خنجري في حلقه. شعرت بدمه الدافئ يسيل على يديّ. رأيت النور ينطفئ من عينيه.

— وكيف... كيف استطعت الاستمرار؟ كيف استطعت التعايش مع تلك الذكرى؟

ليس لدينا خيار آخر. نستمر لأننا مضطرون للاستمرار. نشرب أكثر قليلاً مما ينبغي، ونحاول ألا نفكر في الأمر كثيراً، ونركز على الرفاق الذين ما زالوا على قيد الحياة.

انتظر لحظة.

ثم، مع مرور الوقت، تصبح الذكرى أقل وضوحاً. ليس أننا ننسى، كلا. نحن لا ننسى أبداً. لكن الألم يصبح أقل.

تدخل دوبوا، الذي بالكاد لمس طعامه، بصوت مكتوم.

— قتلته اليوم. ذلك الرجل الصيني. شاهدته يموت. ولا يسعني إلا أن أتساءل من كان. هل كانت له عائلة؟ أطفال ينتظرونه في مكان ما، ولن يعرفوا أبدًا ما حدث له.

— لا تفعل ذلك. لا تُعرّض نفسك لهذا العذاب. لقد فعلت ما كان عليك فعله. لقد دافعت عن حياتك وحياة رفاقك. هذا كل ما يهم.

— لكنه كان رجلاً يا رقيب. إنسان مثلنا. لم يفعل بنا شيئاً.

— كان يرتدي زي العدو. كان يدافع عن موقع كان من المفترض أن نهاجمه. هذا يكفي. الحرب ليست مسألة شخصية يا دوبوا. إنها مسألة دول، وسياسة، وأمور تتجاوز فهمنا جميعاً.

هزّ الجندي الشاب رأسه غير مقتنع. نهض وابتعد عن النار، باحثًا عن العزلة. تركه بومونت يذهب، مدركًا أن على كل شخص أن يواجه شياطينه بطريقته الخاصة.

قام دامباخ، الذي كان يستمع إلى الحوار، بالبصق في النار.

— ما الهدف من كل هذا؟ هل هو إجبار الصينيين على شراء بضائعنا؟ أم أن التجار سيثرون بينما نموت نحن هنا؟

— انتبهي يا دامباخ. هذا النوع من الكلام قد يوقعك أمام محكمة عسكرية.

— لا يهمني. أنا فقط أقول ما يدور في أذهان الجميع. هذه الحملة لا معنى لها. نقتل أناسًا لم يرتكبوا أي ذنب، وندمر قرى، ونحرق محاصيل. ولماذا؟ من أجل شرف الإمبراطورية؟

التزم بومونت الصمت. شارك هذه الشكوك. لكنه كان رقيباً؛ كان عليه الحفاظ على الانضباط ورفع الروح المعنوية. كتم تساؤلاته وأجبر نفسه على الابتسام.

— لن يكون لهذه الحرب معنى إلا عندما نعود إلى فرنسا، متوجين بالمجد، وجيوبنا مليئة بالمال والأوسمة على صدورنا. هذا هو المهم يا رفاق. ليس الفلسفة، بل المكافأة.

لكن كلماته بدت كاذبة، حتى بالنسبة له.

القصر الصيفي

في هذه الأثناء، كان مونتوبان يترأس اجتماعاً مع كبار ضباطه في منزل مهجور حُوّل إلى مقر مؤقت. وكان الجنرال غرانت حاضراً أيضاً، وكذلك اللورد إلجين والبارون غروس. وكان الجو متوتراً.

بدأ إلجين حديثه وهو يذرع الغرفة جيئة وذهاباً: ـــ أيها السادة، لقد تلقينا أخباراً عن سجنائنا. أخبار مروعة.

توقف والتفت نحو الحضور، وقد بدت ملامحه مشوهة من شدة الانفعال.

ـــ ثمانية عشر من رجالنا لقوا حتفهم. لقوا حتفهم في السجون الصينية، بعد أن تعرضوا للتعذيب بأبشع الطرق الممكنة. عُثر على جثثهم مشوهة وممزقة. بعضهم رُبط في أوضاع لا تُطاق حتى انكسرت أطرافهم. وآخرون حُرموا من الطعام والماء حتى ماتوا عطشاً.

أعقب هذه الاكتشافات صمتٌ مرعب. حتى أكثر الضباط الفرنسيين صلابةً شحبت وجوههم عند سرد هذه الفظائع.

ـــ هذا غير مقبول. إنه انتهاكٌ صارخٌ لجميع قوانين الحرب، ولجميع الاتفاقيات بين الدول المتحضرة. يجب أن يدفع الصينيون ثمن هذه الجرائم. يجب معاقبتهم عقاباً رادعاً.

ـــ ما هو اقتراحك؟

أقترح أن ندمر شيئاً ثميناً بالنسبة لهم. شيئاً يجعلهم يفهمون أن المبعوثين البريطانيين لا يُعاملون بهذه الطريقة.

ـــ هل تتحدث عن القصر الصيفي؟

واجه إلجين الفرنسي بنظرة ثابتة لا تتزعزع.

يُعدّ القصر الصيفي المقرّ المفضّل للإمبراطور، فهو المكان الذي يحتفظ فيه بأثمن كنوزه وأندر أعماله الفنية. وسيكون تدميره ضربة قاسية لهيبة الإمبراطورية.

ـــ سيكون ذلك أيضاً عملاً غير مسبوق من أعمال التخريب الثقافي، اعترض غروس. أنت تتحدث عن تدمير قرون من الفن والحضارة. أعمال لا يمكن تعويضها.

ـــ أنا أتحدث عن العدالة يا بارون غروس، عن الثأر للرجال الذين عُذِّبوا حتى الموت. ضميرك لا قيمة له أمام هذه الفظائع.

التفت البارون نحو مونتوبان، طالباً الدعم. لكن الجنرال الفرنسي ظل صامتاً، ووجهه جامد. كان يدرس الموقف، ويوازن بين الخيارات المختلفة.

ـــ يا سيادة الجنرال، لا يمكنك التغاضي عن هذا. لطالما دافعت فرنسا عن الفنون والثقافة والحفاظ على تراث الإنسانية. لا يمكننا أن نُربط بالتدمير المتعمد لمعلم تاريخي.

لقد قام الصينيون بتعذيب الدبلوماسيين حتى الموت. هذه الحقيقة تستدعي رداً.

لكن ليس هذا! ليس التدمير المجاني! هناك طرق أخرى لمعاقبة المسؤولين، لجعلهم يدفعون ثمن جرائمهم.

ـــ أيّها؟ غرامة؟ بند إضافي في المعاهدة؟ سأل إلجين بازدراء. الصينيون يسخرون من مثل هذه العقوبات. إنهم لا يفهمون إلا القوة، ولا يفهمون إلا استعراض القوة.

تدخل غرانت، الذي ظل صامتاً حتى ذلك الحين.

ـــ اللورد إلجين محق. لقد تعرض رجالنا لمذبحة. يجب أن نرد. السؤال ليس ما إذا كان ينبغي علينا التحرك، بل كيف وإلى أي مدى.

استمر النقاش نحو عشرين دقيقة، وانقسمت الآراء بين من أرادوا انتقامًا مدويًا ومن دعوا إلى الاعتدال. لم يُتخذ أي قرار رسمي. أعلن إلجين أنه سيتشاور مع لندن، بينما وعد مونتوبان بتقديم تقرير إلى باريس. لكن الجميع كان يعلم أن الاتصالات تستغرق شهورًا، وأن القرارات ستُتخذ على أرض الواقع، من قِبل رجال لا يملكون الوقت لانتظار التعليمات من مكان بعيد.

عندما انتهى الاجتماع وتفرق المشاركون، قام مونتوبان باحتجاز ديلماس.

ـــ أيها القبطان، ما رأيك؟ بصراحة.

تردد ديلماس. كان السؤال فخاً. فقول الحقيقة قد يعرض مسيرته المهنية للخطر، لكن الكذب سيخون القيم التي يسعى جاهداً للتمسك بها.

ـــ أعتقد يا جنرال أننا نسير على طريق خطير، وأن كل عمل عنف سيؤدي إلى آخر، وأننا إذا دمرنا هذا القصر، فسنتجاوز خطاً لن نتمكن من تجاوزه مرة أخرى.

ـــ ماذا لو لم ندمرها؟ ماذا لو تركنا البريطانيين يفعلون ذلك بمفردهم؟

ـــ على الأقل سنتمكن من النظر إلى أنفسنا في المرآة دون خجل كبير. لن نكون متواطئين في هذا الفعل.

ـــ أنت شخص مثالي، وهذا أمرٌ يُثير الإعجاب. لكن المثالية لا تصمد أمام الحرب. عاجلاً أم آجلاً، سيتعين عليك تقديم تنازلات. هذا حال الجميع.

ـــ ليس أنت. لديك قيم تتجاوز هذه الظروف الطارئة.

ـــ أنا رجل مطيع. هناك فرق.

أدى الضابط التحية وانصرف تاركًا مونتوبان وحيدًا مع أفكاره. جلس الجنرال على كرسي. فكّر في لويز وبناته وباريس التي بدت وكأنها تنتمي إلى عالم آخر. فكّر في أولئك الرجال الثمانية عشر الذين عُذِّبوا حتى الموت، ومعاناتهم، وعائلاتهم التي ستتلقى قريبًا النبأ المروع. كما فكّر في ذلك القصر الغامض الذي يتحدث عنه الجميع، وكنوزه التي أثارت كل هذا الطمع.

وتساءل، للمرة المئة، كيف وصل إلى هذا الحال. كيف لرجلٍ اعتقد أنه شريف، وكرّس حياته لخدمة فرنسا، أن يجد نفسه متواطئاً في أفعالٍ أدانها؟

في الأيام التالية، واصل جيش الحلفاء تقدمه نحو بكين. وسقطت المزيد من القرى، ودارت معارك أخرى. وتزايدت الانتصارات، لكن الخسائر البشرية كانت تزايدت أيضاً. فكل يوم كان يحمل معه نصيبه من القتلى والجرحى، والجنود المنهكين من المسير والحرارة، والمرضى الذين قضوا نحبهم بسبب الأمراض الاستوائية.

كانت معنويات القوات تتدهور بسرعة.

بذل بومونت قصارى جهده في قسمه للحفاظ على التماسك. كان ينظم جلسات لعب الورق في المساء، ويروي قصصًا من حملاته السابقة، ويوزع التبغ بنفسه عندما تتأخر الإمدادات. لكن الانضباط كان يتلاشى.

أصبح دوبوا قليل الكلام. كان يؤدي واجباته آلياً، لكن نظراته كانت شاردة، غارقة في أفكار لا يمكن لأحد الوصول إليها. شعر بومونت بالقلق عليه. لقد رأى جنوداً آخرين يغرقون في كآبة قد تدفعهم إلى الفرار من الخدمة أو ما هو أسوأ، الانتحار.

أما دامباخ، فقد أصبح ساخرًا ومريرًا. انتقد الضباط علنًا، وشكك في الأوامر، وشجع على النهب والعنف غير المبرر. لقد كان عنصرًا مُزعزعًا للاستقرار، وكان على بومونت مراقبته باستمرار.

في إحدى الأمسيات، بينما كان الفريق يخيم بالقرب من مجرى مائي، أخذ بومونت دامباخ جانباً.

ـــ عليك أن تهدأ. تعليقاتك تُحبط الآخرين. إذا استمريت على هذا المنوال، فسأُجبرك على الخضوع للعقاب.

ـــ لأي سبب؟ لقول الحقيقة؟

ـــ بسبب العصيان. بسبب تقويض معنويات القوات. اختر الصياغة التي تفضلها. ستكون النتيجة واحدة: ستُعاقب.

بصق دامباخ على الأرض بازدراء.

ـــ أنتم جميعاً متشابهون، أيها الضباط غير المفوضين. دائماً ما تلعقون أحذية الضباط. ولا تفكرون أبداً في الرجال الذين تقودونهم.

أمسك بومونت بدامباخ من ياقته ودفعه بقوة نحو شجرة.

اسمعني جيدًا أيها الوغد الحقير. لقد رأيتُ أشياءً لا يمكنك حتى تخيلها. لقد دفنتُ من الرفاق أكثر مما عرفتَ طوال حياتك. وإذا كنتُ هنا، إذا كنتُ رقيبًا، فذلك لأني أهتم برجالي. لأني أبذل قصارى جهدي لإعادتهم إلى فرنسا أحياء.

— بإرسالهم ليُقتلوا في معارك لا طائل منها؟

— من خلال الحفاظ على انضباطهم وتنظيمهم ووحدتهم. لأنه في هذه الحرب، هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن ينقذهم. ليس شكواك، ولا انتقاداتك. الانضباط والتضامن.

أطلق سراح دامباخ، الذي تراجع وهو يتمتم بشتائم. لم ينجح بومونت في إقناع الجندي، لكن ربما جعله يفكر ملياً، ولو للحظة.

كان السادس من أكتوبر عام 1860 تاريخاً سيبقى محفوراً في تاريخ هذه الحملة. في ذلك اليوم، وصلت جيوش الحلفاء إلى مشارف بكين. وقفت العاصمة الإمبراطورية أمامهم، وأسوارها الشامخة ترسم ظلالاً على الأفق، وأسطحها القرميدية المزججة تتلألأ تحت أشعة الشمس.

لكن لم تكن المدينة هي ما أثار اهتمام البريطانيين. بل كان ما يقع على بعد حوالي عشرة كيلومترات إلى الشمال الغربي: القصر الصيفي، قصر يوين مينغ يوين الشهير الذي كان الجميع يتحدثون عنه.

قام الكشافة باستطلاع الموقع وعادوا بوصفٍ مُبهر. حدائق شاسعة، ومئات الأجنحة، وبحيرات اصطناعية، وجسور رخامية. وفوق كل ذلك، قيل إنها كنوز لا تُقدر بثمن، جمعها الأباطرة الصينيون على مر القرون.

كان الإمبراطور شيان فونغ قد فرّ من بكين قبل أيام قليلة، مصطحباً معه جزءاً من حاشيته إلى جيهول، مقر إقامته الصيفي في منشوريا. كان القصر الصيفي شبه مهجور، لا يحرسها سوى عدد قليل من الخصيان والخدم الذين لم يبدوا أي مقاومة.

دعا اللورد إلجين إلى اجتماع. في خيمة القيادة البريطانية، اجتمع جميع كبار الضباط. كان الجو مشحوناً بالحماس، يذكّر بمنقبي الذهب قبل اندفاعهم.

أيها السادة، سنحتل القصر الصيفي. سنؤمّن المبنى ونحصي محتوياته. ثم سنقرر ما سنفعله بعد ذلك.

— ماذا تقصد بكلمة "لاحقاً"؟ سأل البارون غروس بشك.

— أعني أننا سندرس جميع الخيارات، بما في ذلك خيار الدمار الكامل.

— لا! صاح غروس، وهو يقفز فجأة. سأعارض ذلك بكل قوتي! لا يمكنك تدمير مثل هذا النصب التذكاري! إنه... إنه عمل همجي!

— الأمر يتعلق بالعدالة. لقد تعرض رجالنا للتعذيب. يجب الثأر لموتهم.

تدخل مونتوبان محاولاً تهدئة الأمور.

أيها السادة، دعونا لا نتسرع في أي شيء. دعونا أولاً نرى هذا القصر بأعيننا. ثم سنتخذ قراراً مدروساً، بالتشاور مع حكوماتنا.

— لا تزال حكوماتنا على بعد أشهر. يجب أن نتحرك بناءً على المعلومات المتوفرة لدينا.

لهذا السبب علينا أن نكون حذرين. فالقرار المتسرع قد تكون له عواقب لا نتوقعها.

دار النقاش في حلقة مفرغة دون التوصل إلى أي اتفاق. تقرر أن تتوجه القوات الفرنسية والبريطانية معًا إلى القصر الصيفي صباح اليوم التالي لإجراء استطلاع واسع النطاق. وسيتوقف ما سيحدث لاحقًا على ما سيجدونه هناك.

في تلك الليلة، لم ينم سوى قلة قليلة في معسكر الحلفاء. همس الجنود فيما بينهم، يتكهنون بالثروات التي تنتظرهم. تحدث البعض عن اليشم الأخضر، والذهب الخالص، والخزف العتيق الذي يُقدر ثمنه بثروات

طائلة. وذكر آخرون أشياء سحرية، وتمائم مشحونة بقوى غامضة. انطلقت مخيلاتهم، تغذيها شهور من المشقة والخطر.

استمع بومونت إلى هذه المحادثات. شعر بأن أمورًا خطيرة على وشك الحدوث، وأن الأحداث تخرج عن السيطرة. لقد عاش ما يكفي ليدرك تلك اللحظات التي يتغير فيها مجرى التاريخ، عندما يقوم أناس عاديون بأعمال استثنائية، سواء للأفضل أو للأسوأ.

— يا رقيب، هل صحيح أن هناك ذهباً هناك؟ يمكننا أن نأخذه بأنفسنا؟

— لا أعرف ما يوجد هناك. وحتى لو كان هناك ذهب، فهو ليس ملكاً لنا. إنه ملك لإمبراطور الصين.

— الإمبراطور الذي أمر بتعذيب أسرانا؟ الذي شنّ الحرب علينا بلا سبب؟

— حتى هو. السرقة تبقى سرقة، مهما كانت المبررات التي تقدمها لنفسك.

— لكن ماذا لو سمح الضباط بذلك؟ ماذا لو اعتبر ذلك غنيمة حرب؟

تنهد بومونت.

— إذا سمح الضباط بذلك، فعليك أن تتبع ضميرك. أما أنا فلن آخذ شيئاً. لا فلساً واحداً، ولا شيئاً على الإطلاق. سأعود إلى فرنسا خالي الوفاض.

خفض الرجال أعينهم بقلق. كانوا يكنّون الاحترام لبومونت، وكلماته كانت ذات وزن. لكنهم كانوا يعلمون أن الإغراء سيكون قوياً. قوياً جداً.

بزغ فجر السادس من أكتوبر عام ١٨٦٠، وسط ضباب ذهبي غطى الريف الصيني بجمال ساحر. انطلقت جيوش الحلفاء حوالي الساعة العاشرة صباحًا، سالكةً الطريق المؤدي شمال غرب بكين. كان رتلًا مهيبًا: عشرون ألف رجل، فرنسيون وبريطانيون مختلطون، يتقدمون في نظام أشبه بموكب استعراضي منه بتشكيل عسكري.

كان مونتوبان يتقدم المجموعة برفقة غرانت وإلجين والبارون غروس. لم ينطق أحد بكلمة. كان كل منهم غارقاً في أفكاره، يتوقع ما سيكتشفه.

مروا أولاً بقرى مهجورة، ثم عبر حقول مزروعة تُركت لتتدهور. لقد أفرغت الحرب المنطقة من سكانها، وحولت مشهداً كان مزدهراً إلى نوع من أرض قاحلة موحشة.

عند الظهيرة تقريباً، لمحوا أولى مباني القصر الصيفي. هياكل أنيقة ذات أسقف مقوسة، محاطة بحدائق مُعتنى بها بدقة. أشجار صنوبر عتيقة تقف شامخة، وأغصانها الملتوية تُلقي بظلال متقنة على الأرض.

كلما توغلوا أكثر، ازداد المشهد روعةً. لم يكن القصر الصيفي مبنىً واحداً، بل مجمعاً ضخماً يمتد على مساحة عدة كيلومترات مربعة. توالت الأجنحة والمعابد والمعارض والجسور والأكشاك في تناغم معماري يشهد على قرون من الرقي.

— يا إلهي، همس البارون غروس. إنه لأمر رائع. رائع حقاً.

حتى إلجين بدا منبهراً، رغم أنه حاول إخفاء ذلك. أما غرانت، الأكثر واقعية، فقد درس المنطقة بعين عسكرية، باحثاً عن مواقع استراتيجية ونقاط دفاعية محتملة.

وصلوا أمام القصر الرئيسي، حيث كان الإمبراطور يقيم عادةً. مبنى مهيب، يتميز بأناقة بسيطة، محاط بفناء مرصوف بالرخام الأبيض. كانت الأبواب مفتوحة على مصراعيها، وكأنها تدعوهم للدخول.

ترجّل مونتوبان وسار إلى الأمام. دوّت خطواته، مُحدثةً صدىً بدا وكأنه يتردد بلا نهاية. عبر العتبة ليجد نفسه في قاعةٍ واسعةٍ أذهلته روعتها.

دعمت أعمدة مطلية باللونين الأحمر والذهبي سقفًا مزينًا بالتنانين. وزُينت الجدران بشاشات حريرية تصور مشاهد من الأساطير الصينية بألوان زاهية مذهلة. ورُتبت مزهريات خزفية، يبلغ ارتفاعها عدة

أمتار، بشكل متناظر على طول الجدران. وحملت طاولات من الخشب الثمين عددًا لا يحصى من الأعمال الفنية: اليشم، والبرونز، والبلورات الصخرية، والعاج المنحوت.

متحف، ومجموعة جمعها الأباطرة الذين جعلوا الجمال هاجساً. تم اختيار كل قطعة بعناية، وترتيبها ببراعة، وحفظها بإخلاص.

بقي القبطان، الذي كان يتبع مونتوبان، متجمداً في مكانه، غير قادر على صرف انتباهه عن المشهد.

— يا جنرال، إنه أمر لا يصدق. لم أرَ شيئاً كهذا من قبل، ولا حتى في متحف اللوفر، همس.

— ولا أنا أيضاً يا ديماس. ولا أنا أيضاً.

دخل المزيد من الضباط، ثم الجنود. وسرعان ما امتلأت الغرفة بالزيّ الفرنسي والبريطاني، في تناقض صارخ مع الانسجام الرقيق للمكان. سار الرجال على أطراف أصابعهم، كما لو كانوا في كنيسة، وقد أذهلتهم هذه الرهبة من هذا الجمال.

عاد البارون غروس إلى مونتوبان والدموع تملأ عينيه.

— أيها الجنرال، هل ترى ما أراه؟ هذا ليس قصراً، بل هو كنزٌ للبشرية. إذا دمرناه، إذا نهبناه، سنرتكب جريمةً ستلطخ شرفنا إلى الأبد.

واصل مونتوبان النظر حوله، محاولاً استيعاب روعة المكان. فكّر في الإمبراطورة أوجيني، وطلبها المبطّن بإعادة الأعمال الفنية. فكّر في الجنود المنتظرين في الخارج، المتعطشين للمكافآت بعد كل تلك التضحيات. فكّر في إلجين وعطشه للانتقام.

وأدرك أنه يقف عند مفترق طرق في التاريخ، وأن ما سيُقرر في الساعات القادمة ستكون له تداعيات لعقود، وربما لقرون.

— بارون غروس، أشاركك مشاعرك. لكنني أخشى أننا لم نعد نتحكم في مجريات الأمور. قوى أعظم منا تعمل هنا. انتقام، جشع، طموح

إمبريالي. كل هذه تجتمع في هذا المكان، ولا أدري إن كنا نستطيع منع ما هو مقدّر له أن يحدث.

ـــ أنت قائد القوات الفرنسية. لديك القدرة على الرفض.

ـــ لدي القدرة على الطاعة. هذا أمر مختلف.

في الخارج، بدأ الجنود باستكشاف المباني الأخرى للمجمع. واكتشفوا غرفة تلو الأخرى، وجناحًا تلو الآخر: مكتبات تحتوي على آلاف المخطوطات القديمة؛ ومعارض فنية تعرض لوحات لفنانين صينيين كبار؛ وغرف خزائن مليئة بسبائك الذهب والفضة.

تصاعدت حدة التوتر. ارتفعت الأصوات، وتراجعت الإيماءات احتراماً. أسقط أحدهم مزهرية، فتحطمت بصوتٍ بلوريّ. كان ذلك بمثابة إشارة. فجأة، اختفى كل ضبط للنفس.

اندفع الجنود إلى القاعات، واستولوا على كل ما يلمع، وكل ما يبدو ذا قيمة. كان البريطانيون الأكثر عدوانية، ولا سيما قواتهم الاستعمارية، لكن الفرنسيين سارعوا إلى اللحاق بهم. لم يستطع الترتيب الدقيق للمجموعات الصمود أمام هجوم هؤلاء الرجال الذين رأوا فيها فرصة لثروة لن يمتلكوها مرة أخرى.

شاهد بومونت، الذي بقي مع مجموعته في الفناء الرئيسي، بداية عملية النهب برعب.

ـــ لا! ليس لديك أي حق! إنها سرقة! صرخ قائلاً.

لكن صوته ضاع وسط الضجيج. لم يعد الرجال يستمعون إليه. حتى أولئك الذين كانوا في فصيلته ترددوا، وهم يشاهدون رفاقهم يلتهمون الغنائم، ويتساءلون لماذا يجب أن يبقوا خاليي الوفاض.

اقترب دوبوا من بومونت، وكان وجهه يعاني من عذاب شديد.

ـــ يا رقيب، ماذا نفعل؟

ـــ نحن لا نفعل شيئاً. لا نأخذ شيئاً. نحافظ على كرامتنا، حتى لو لم يفعل ذلك أحد آخر.

أما الآخرون...

— لا أهتم بالآخرين! لا يهمني ما يفعله هؤلاء اللصوص! أنت يا دوبوا، أثمن من ذلك بكثير. أنت أثمن من تلك العصابة من اللصوص.

أومأ الجندي الشاب موافقاً، والدموع تملأ عينيه. وبقي بجانب بومونت، يشاهد الدمار يستمر بشعور من الخزي والعجز.

داخل القصر الرئيسي، شاهد الجنرال دي مونتوبان الكارثة تتكشف أمام عينيه. حاول ضباطه من حوله الحفاظ على مظهر من النظام، لكن دون جدوى. فقد بدأ النهب، ولم يكن هناك ما يمكن أن يوقفه.

اقترب الجنرال جامين، ووجهه محمر من الغضب.

— يا جنرال، يجب فعل شيء! رجالنا يتصرفون كالمتوحشين! إنهم يدمرون كل شيء، ويسرقون كل شيء!

— أعرف يا جامين. أعرف.

— أعطِ أمرًا! أوقفهم!

واجه مونتوبان مرؤوسه، ورأى جامين في عينيه استسلاماً لم يره من قبل.

— أمر؟ ومن سينفذه؟ الرجال يتصرفون بجنون. إذا حاولت إيقافهم بالقوة، سينقلبون علينا. أنت تعرف التاريخ العسكري يا جامين. أنت تعرف ما يحدث عندما يتذوق الجيش طعم النهب. يصبح الأمر خارجًا عن السيطرة.

— هل سنقف هنا ونشاهد دون أن نتحرك؟ هل سنسمح بتدمير قرون من الحضارة؟

سنحاول الحد من الأضرار، والحفاظ على ما يمكن إنقاذه. لكننا لن نتمكن من إنقاذ كل شيء. عيّنوا مفوضين، ودعوهم يختاروا أثمن الأشياء ويؤمّنوها. أما الباقي... فسيأخذ مجراه.

أراد جامين الاحتجاج، لكنه أدرك أن ذلك لا طائل منه. أدى التحية العسكرية وانصرف لتنفيذ الأمر، والغضب يملأ قلبه.

ذهب ديلماس، الذي سمع الحوار، إلى مونتوبان.

ـــ يا جنرالي، أهكذا تنتهي مغامرتنا؟ بالنهب والعار؟

ـــ الشرف ترفٌ لم يعد بوسعنا تحمّله. لقد تجاوزنا الحدّ. علينا أن نتحمّل عواقب أفعالنا.

لكنك قلت... وعدتنا بأننا سنبقى رجالاً ذوي شرف. حتى في أسوأ الظروف.

ـــ لقد حاولت. يعلم الله أنني حاولت. لكنني فشلت.

ـــ وأنت أيضاً ستفشل يوماً ما. لأن الحرب لا تترك مجالاً للقديسين، بل للناجين فقط.

حرر نفسه وغادر القصر. كان بحاجة إلى الهواء والمساحة والابتعاد عن هذا الرعب. في الخارج، استمر النهب. تدفق الجنود من المباني محملين بمجموعة متنوعة من الأشياء. تشاجر بعضهم على المزهرية نفسها، فحطموها في صراعهم. وشرب آخرون الكحول الذي وجدوه في مخازن الإمبراطورية، فسكروا في حرارة الظهيرة.

فوضى. فوضى منظمة، بل وطقسية، كما لو أن النهب جزء لا يتجزأ من الحرب، كما لو كان مكافأة مستحقة.

حاول البارون غروس إنقاذ ما يمكن إنقاذه. فجمع، بمساعدة بعض الضباط الفرنسيين الذين شاركوه مخاوفه، مجموعة متواضعة من الأشياء التي كان يأمل في الحفاظ عليها. لكنها كانت قطرة في محيط الدمار.

مرت الساعات. بدأت الشمس تغيب. استمر النهب، وازدادت فوضوية مع سكر الجنود. اندلعت المشاجرات، ودوت أصوات إطلاق النار من حين لآخر.

ثم، مع حلول المساء، دعا اللورد إلجين إلى اجتماع آخر. وفي الفناء الرئيسي للقصر، أدلى بتصريح.

أيها السادة، لقد اتخذت قراراً. يجب تدمير هذا القصر تدميراً كاملاً. سنضرم فيه النار. سيكون هذا ردنا على الفظائع المرتكبة بحق أسرانا.

ستكون هذه رسالتنا إلى إمبراطور الصين: لا يمكن المساس بالشرف البريطاني دون عقاب.

الفصل الثاني ـ كنز ابن السماء

في السابع من أكتوبر عام 1860، مع بزوغ الفجر، استدعى الجنرال شارل كوزان دي مونتوبان أفضل ثلاثة ضباط لديه إلى قاعة العرش. وكانوا: النقيب جاك بيسيير، ضابط مدفعية وطالب سابق في المدرسة المتعددة التقنيات درس تاريخ الفن؛ والقائد هنري فولد، جامع التحف الصينية؛ والعقيد فرانسوا لامبرت، الذي أمضى عامين في مصر وعاد بعشرات الصناديق من القطع الأثرية الشرقية.

ـــ إنّ النهب الذي بدأ بالأمس مستمرٌّ اليوم. سنُنظّمه. أنتم الثلاثة أكثر الرجال ثقافةً في هذا الجيش. ستُصبحون مُفوّضين لغنائم الحرب. مهمتكم: فهرسة أثمن القطع، تلك التي تستحقّ أن تُضمّ إلى المجموعات الإمبراطورية. ستختارون ثلاثمئة قطعة. لا أكثر، فالنقل سيكون مُرهقًا للغاية. ستُرسل هذه القطع إلى الإمبراطور والإمبراطورة أوجيني. هيا يا سادة، ابدأوا العمل. لكم حرية التجوّل في القصر. خذوا وقتكم في الفحص والمقارنة والاختيار. أريد أن تكون هذه القطع الثلاثمئة هي الأجمل والأثمن والأكثر تميّزًا. ستشهد هذه القطع على هذه الحملة، وستُخلّد في التاريخ.

ثم تحدث الكولونيل لامبرت:

ـــ من أين نبدأ يا جنرال؟

ـــ عبر هذه الغرفة. العرش الإمبراطوري هناك، على المنصة. أبعد الجنود الداخلين والخارجين. ابدأ برموز السلطة. ثم استكشف بقية القصر. دوّن ملاحظاتك. أنشئ قائمة جرد شاملة. أريد قائمتك خلال ثلاثة أيام.

ـــ حسناً جداً يا جنرال.

قاعة العرش الكبرى

اقتربوا من المنصة حيث يقف العرش الإمبراطوري. صعد الكولونيل الدرجات الرخامية أولاً، وتبعه اثنان من مساعديه. تردد صدى خطواتهم في الصمت المطبق للقاعة الخالية الآن.

نُحت العرش من قطعة واحدة من خشب الصندل، ورُصّع بالصدف واليشم. أما ظهره، الذي يبلغ ارتفاعه مترين، فكان مزيناً بتنين ذي خمسة مخالب، وعينيه مصنوعتان من ياقوت بورمي بحجم بيضة حمامة.

انحنى القائد فولد فوق الأحجار الكريمة:

— لا بد أن وزن كل من هذه الياقوتات خمسين قيراطاً، وربما أكثر. أما جودة القطع... فلا شوائب ظاهرة على الإطلاق.

جلس الكابتن بيسيير على الدرجات، وهو ينظر إلى العرش بتعبير غريب.

— هل تعلمون ما يثير دهشتي أيها السادة؟ ربما لم يُستخدم هذا العرش منذ شهور. لم يعد الإمبراطور يأتي إلى هنا. لقد لجأ إلى جيهول، في مقر إقامته الصيفي. هذا العرش فارغ. لقد تبخرت السلطة التي يرمز إليها.

— أنت تهذي يا بيسيير، أجاب القائد مبتسماً.

— ربما. لكن هذه الوسادة الحريرية الصفراء لا تظهر عليها أي علامات حديثة. لا يوجد بها أي تجعيدة، كما لو أن الزمن توقف هنا. بالنسبة لهذه السلالة، بالنسبة لهذه الإمبراطورية، توقف الزمن يوم رسونا في تيانجين.

— لا تبالغ يا قبطان. ستنجو سلالة تشينغ من هذه الحرب. سيوقعون معاهدة، ويدفعون تعويضات، ويفتحون الموانئ. لكنهم سيبقون في السلطة.

— إلى متى؟ بعد خمسين عاماً، بعد مئة عام، هل ستظل الصين إمبراطورية؟ أم ستصبح مستعمرة أوروبية، مثل الهند؟

نهض القائد، وهو ينفض الغبار عن زيه العسكري:

ـــ لا يمكن لأحد أن يستعمر الصين. إنها شاسعة للغاية، ومكتظة بالسكان، وعريقة. كلا، ستبقى الصين صينية. لكن سيتعين عليها التكيف مع العالم الحديث.

اقترب العقيد من العرش، وفحصه عن كثب.

ـــ انسوا العرش، أعلن. إنه ضخم للغاية. لن نتمكن من نقله أبداً. الأشياء الموجودة على هذه الطاولة هي ما يهمنا.

نزل من المنصة وسار نحو طاولة خشب الورد المنخفضة الموضوعة أمام العرش.

ـــ تعالوا وانظروا أيها السادة.

وتجمعوا معًا. ورُتبت عدة أشياء هناك بعناية طقوسية: صولجانان من اليشم، ولوح، وأختام، ومبخرة.

أخرج القائد دفتر ملاحظاته من جيبه وفتحه على صفحة فارغة.

ـــ العنصر الأول. عصا القيادة. صولجان إمبراطوري. رويي.

مدّ يده، وتردد للحظة - كما لو كان يخشى ارتكاب تدنيس - ثم أمسك بالصولجان. كان طوله حوالي سبعين سنتيمتراً، وقد نُحت من كتلة واحدة من اليشم النفريتي الأخضر الداكن، الذي يكاد يكون أسود.

ـــ اشعر بثقل هذا الشيء.

مررها إلى فولد، الذي وزنها بين يديه باحترام.

ـــ هل يجب أن يزن ثلاثة كيلوغرامات؟ أم أربعة؟

ـــ أربعة على الأقل، أكد العقيد. قطعة من اليشم بهذا الحجم، وبهذا اللون النقي... لا تقدر بثمن.

مرر القائد أصابعه على السطح الأملس.

ـــ إنه بارد الملمس، ولكن في الوقت نفسه... هناك شيء حي في هذا الحجر. هل يمكنك الشعور به؟

اقترب الكابتن بيسيير:

ـــ يقول الصينيون إن اليشم يمتلك طاقة تشي، وهي طاقة حيوية. ويعتبرونه أثمن من الذهب أو الماس.

ـــ طاقة حيوية، كرر لامبرت بابتسامة متشككة. هل تصدق ذلك يا قبطان؟

لا يا سيدي العقيد. أمسكه لبضع دقائق. سيتدفأ.

استعاد لامبرت الصولجان وفحصه عن كثب.

ـــ النهاية على شكل فطر. فطر لينغزي، رمز طول العمر والحظ السعيد. وهناك، نُقشت حروف على طوله. خط جميل للغاية.

انحنى القائد إلى الأمام.

ـــ أيها القبطان، هل يمكنك فك رموز هذه النقوش؟

ـــ بضعة أحرف فقط، أيها القائد. درستُ قبل الحملة، مع أنني لم أتقن اللغة. لكن يكفي أن أتعرف على بعض الكلمات. هذا شعر. قصائد من تأليف الإمبراطور تشيان لونغ نفسه.

ـــ إمبراطور يكتب الشعر على صولجاناته؟ صاح فولد. في بلادنا، ينقش الملوك شعاراتهم وألقابهم. أما هم، من ناحية أخرى، فينقشون القصائد.

ـــ بالنسبة للصينيين، يجب أن يكون الحاكم عالماً بارعاً. فالقوة العسكرية وحدها لا تكفي. بل يجب عليه إتقان الأدب الكلاسيكي، وتأليف الشعر، وممارسة فن الخط. أما الإمبراطور الجاهل فهو أمر لا يُتصور.

ـــ ومع ذلك، فقد خسروا الحرب ضدنا، أشار العقيد.

ـــ إنّ صقلهم ليس سلاح حرب يا أيها العقيد. ولكن بعد ألف عام، من سيتذكر هذه الحرب؟ لا أحد. لكن قصائد تشيان لونغ ستظل تُقرأ، وسيظل هذا الصولجان محل إعجاب.

ـــ يا له من عزاءٍ رائعٍ لهزيمةٍ عسكرية! علّق فولد ساخرًا. هل تدركون ما نفعله؟ لقد حمل الإمبراطور هذا الصولجان خلال

الاحتفالات الكبرى. إنه بمثابة التاج الفرنسي، صولجان القديس لويس. ونحن نسرقه.

تصلب لامبرت:

— نحن لا نسرقها يا قائد. نحن نأخذها كغنيمة حرب.

— حقاً يا سيدي العقيد؟ ما الفرق؟

— إنه أمر قانوني. معترف به من قبل جميع الدول المتحضرة. يخول قانون الحرب المنتصرين الاستيلاء على ممتلكات المهزومين.

— حق الحرب... هل تعتقد أن هذا حق يستحق الاحترام يا عقيد؟

اقترب العقيد من فولد، وكان صوته حازماً:

— أيها القائد، إن لم تستطع قبول هذه المهمة، فأخبرني بذلك الآن. سأطلب من الجنرال استبدالك. أما إن بقيت، فأكمل مهمتك دون تردد. لسنا هنا لنحكم على عدالة هذه الحرب.

شدّ فولد فكيه.

— سأبقى يا سيدي العقيد، وسأنفذ الأوامر. لكن هذا لن يمنعني من التفكير.

— فكّر كما تشاء، ولكن اعمل أيضاً.

وضع القائد الصولجان بحرص ودوّن في دفتر ملاحظاته: "صولجان رويي إمبراطوري، من اليشم النفريتي الأخضر الداكن، طوله حوالي 70 سم، منقوش عليه قصائد للإمبراطور تشيان لونغ. سلالة تشينغ، أواخر القرن الثامن عشر. جودة استثنائية."

— سيرغب اللورد إلجين في الحصول على ذلك الصولجان، تنبأ الكولونيل. إنه رمز القوة الإمبراطورية بحد ذاته. سيرغب في أخذه إلى إنجلترا كغنيمة.

— لا شك في ذلك يا سيدي العقيد، اعترف بيسيير. لكن هناك واحداً ثانياً.

وأشار إلى روي ثانٍ، موضوع بجانب الأول. هذا الأخير منحوت من اليشم الأبيض الشفاف، ذو جمال مختلف، ولكنه لا يقل روعة.

رفعه القائد.

ـــ هذا أخف وزناً. ثلاثة كيلوغرامات، ربما.

ـــ واللون، لاحظ القبطان. اليشم الأبيض النقي. نادر. يأتي اليشم الأبيض بهذه الجودة من جبال كونلون، على بعد آلاف الكيلومترات. لا بد أن نقله كلف ثروة. لدينا صولجانان إمبراطوريان. واحد للورد إلجين، وواحد لنابليون الثالث.

لم يستطع فولد إلا أن يدلي بملاحظة.

ـــ للقدرة طريقة في ترتيب الأمور...

ضرب العقيد الطاولة بقبضته:

ـــ كفى! لن نقاتل كجامعي الخرق عند أقدام العرش الإمبراطوري! نعم، ما نفعله يثير تساؤلات أخلاقية. نعم، يمكن للمرء أن يناقش شرعية هذه الحرب وهذا النهب. لكننا جنود. واجبنا الطاعة. لقد أوكل إلينا الجنرال دي مونتوبان مهمة. سننجزها على أكمل وجه.

ـــ معك حق يا سيدي العقيد. سامحني. أعصابي متوترة.

ـــ وأنا أيضاً يا قائد.

تصافحا وتصالحا.

ـــ جيد. العنصر الثالث: لوح من اليشم.

رفع القائد لوحاً منحوتاً من اليشم الأبيض الشفاف. كان طوله ثلاثين سنتيمتراً وعرضه عشرة سنتيمترات، وله حواف مستديرة.

ـــ يمكنك أن ترى من خلاله تقريباً، قال العقيد مندهشاً.

ـــ تقريباً، ولكن ليس تماماً، رد بيسيير. هذه الشفافية، هذا الحجاب الخفيف، هو الكمال.

قلب اللوح. كان أحد جانبيه منقوشاً بأحرف قديمة.

ـــ هذه الأحرف قديمة جداً. لا تشبه الكتابة الحديثة. أظن أنها تعود إلى عهد أسرة تشو، وربما أقدم من ذلك.

ـــ هل تقصد أن عمر هذا اللوح قد يصل إلى ثلاثة آلاف عام؟ صاح العقيد.

لا، فاللوح نفسه على الأرجح أحدث عهداً. لكنه نُقش بأحرف قديمة لإضفاء مظهر مهيب عليه، وهي ممارسة شائعة في عهد أسرة تشينغ. أرادوا ربط أنفسهم بالسلالات القديمة، وإظهار استمرارية سلطتهم.

ـــ ما هو الغرض من استخدام هذا الجهاز اللوحي؟

ـــ أداة طقسية. استخدمها الإمبراطور خلال الاحتفالات للتواصل مع قوى خارقة للطبيعة، ومع الأجداد الإمبراطوريين. هذه الأحرف عبارة عن صيغ ابتهال وصلوات.

ـــ هل يمكنك قراءتها يا قبطان؟

ـــ بضع كلمات. هنا، على سبيل المثال، حرف "تيان" – "السماء". وهناك، "دي" – "الأرض". أما الباقي فهو معقد للغاية بالنسبة لي. ستحتاج إلى متخصص في الدراسات الصينية.

أخذ لامبرت القرص ووزنه في يده.

ـــ إنها ثقيلة الوزن بالنسبة لحجمها.

ـــ اليشم حجر صلب للغاية يا كولونيل، أوضح بيسيير. على مقياس موس، الذي يقيس صلابة المعادن، تتراوح صلابته بين 6 و7. أقل صلابة من الماس، ولكنه أصلب بكثير من الرخام أو الجرانيت.

ـــ كيف يمكن للمرء أن ينحت مثل هذا الحجر الصلب بأدوات ذلك الزمان؟

ـــ بالصبر. تفرك برمل كاشط لأشهر، بل لسنوات. تُهذّب المادة ببطء حتى تحصل على الشكل المطلوب. ربما استغرق صنع لوح كهذا عشر سنوات من العمل.

ـــ عشر سنوات! صاح العقيد. من أجل سلعة واحدة!

لقد أدركوا أن بعض الأمور لا يمكن إنجازها على عجل، وأن الجمال يحتاج إلى وقت.

ـــ كم تبلغ قيمة شيء كهذا يا قبطان؟

نظر إليه بيسيير.

ـــ إنها لا قيمة لها. إنها لا تُقدر بثمن. لا يمكنك تحديد سعر لشيء كهذا. كأن تسأل عن سعر تاج شارلمان. هذه الأشياء ليس لها قيمة سوقية. لها قيمة رمزية وتاريخية وثقافية.

ـــ ومع ذلك، سيدفع له أحدهم ثمناً في نهاية المطاف.

ـــ لن تُباع هذه اللوحة أبدًا. ستدخل ضمن المجموعات الإمبراطورية الفرنسية، حيث سيتم حفظها والإعجاب بها.

نهض العقيد من جلسته وهو يدلك ظهره المتألم.

ـــ أيها السادة، لقد أمضينا ساعة كاملة على ثلاثة عناصر. وبهذا المعدل، سيستغرق الأمر شهراً كاملاً لإنهاء الجرد. أيها الكابتن بيسيير، قُدنا إلى قسم الخزف. يجب أن نسرع.

خزف إمباير

اقتربوا من الرفوف التي غطت الجدار الغربي بأكمله للغرفة. ارتفعت الرفوف إلى أربعة أمتار، مقسمة إلى عشرات الأقسام المصنوعة من خشب الورد المنحوت بدقة. احتل الخزف القسم الأوسط، مرتبًا بعناية فائقة.

توقف فولد فجأة، وهو يتأمل حجم المجموعة.

ـــ من أين أبدأ يا سيدي العقيد؟ لا بد أن هناك مئة قطعة؟ مئتان؟

ـــ أكثر من ذلك، أجاب بيسيير وهو يلقي نظرة خاطفة على الرفوف. أقول ثلاثمائة، ربما أربعمائة. وهذا فقط ما يوجد من الخزف في هذه الغرفة. لا شك أن هناك آلافًا أخرى في بقية القصر.

ـــ آلاف، كرر لامبرت. ولن نأخذ سوى بضع عشرات.

— أجملها، حدد القبطان. الروائع. أما الباقي...

قاطعه العقيد ومسح الغرفة بنظره:

— أيها القبطان، ما رأيك في هذه الطريقة؟

أقترح أن نبدأ من الأعلى. تُوضع الأشياء الأكثر قيمة في مكان مرتفع، بعيدًا عن متناول الغبار والحوادث. أيها القائد، هل ترى ذلك السلم هناك؟

اتجه فولد إلى زاوية الغرفة. عندما رفع السلم، لاحظ أنه لم يكن مصنوعًا من خشب عادي. كانت قوائمه مصنوعة من خشب الورد المنحوت بزخارف نباتية.

حتى سلمهم منحوت. لم يفعل هؤلاء الناس أي شيء عادي.

— هذا ما يجعلهم عظماء، أجاب بيسيير. وربما يكون هذا أيضاً نقطة ضعفهم. لقد أمضوا وقتاً طويلاً في إتقان الفنون والأدب وعلم الجمال لدرجة أنهم أهملوا الجيش والبحرية والتكنولوجيا الحديثة.

بدأ بالتسلق. صرّحت القضبان تحت وزنه، لكنها ظلت ثابتة.

— كن حذراً يا قبطان، حذر القائد. إذا سقطت وأنت تحمل إحدى هذه المزهريات في يديك، فسيأمر الجنرال بإطلاق النار علينا.

— اطمئن يا قائد.

عند وصوله إلى القمة، وجد الكابتن بيسيير نفسه أمام صف من المزهريات الرائعة.

— مجموعة من المزهريات من عهد تشيان لونغ، أنا متأكد من ذلك. أواخر القرن الثامن عشر.

— كم عدد الذين تراهم؟ سأل الكولونيل لامبرت.

— اثنا عشر. جميعها من نفس السلسلة، متطابقة. قطع ضخمة. يجب أن يكون قياس هذه القطعة... انتظر، سأقوم بإنزالها.

أمسك القبطان بالمزهرية الأولى بحرص شديد. كانت أثقل مما تخيل - لا بد أن يزن الخزف بهذا الحجم والسماكة ما لا يقل عن خمسة أو ستة

كيلوغرامات. نزل خطوة بخطوة، مركزًا انتباهه، مدركًا أن أدنى خطأ قد يحطم إلى الأبد تحفة فنية عمرها قرابة قرن من الزمان.

ـــ انتبه للخطوة الأخيرة.

ـــ أراها، شكراً لك أيها القائد.

وضع المزهرية على طاولة في وسط الغرفة. وتجمعوا حولها، يتأملونها في صمت.

كان الخزف أبيض ناصعًا، يكاد نقاؤه يكون خياليًا. وعلى هذه الخلفية المثالية، رُسمت مشاهد من حياة البلاط بدقة متناهية تفوق الخيال. كان كبار الموظفين يرتدون أثوابًا حريرية مطرزة ويتجولون في حديقة. وكانت المحظيات يعزفن على آلة البيبا تحت أشجار الصفصاف الباكية. وكان الأطفال يطاردون الفراشات بين الزهور المتفتحة. كل شخصية، على الرغم من صغر حجمها - بعضها لا يتجاوز طوله سنتيمترًا واحدًا - رُسمت بعناية مذهلة بالتفاصيل.

ـــ الرسم المصغر، همس القائد وهو يقترب بشدة حتى كاد أنفاسه أن تُزلزل السطح. التفاصيل... ثنيات الأردية، وملامح الوجوه، وشفرات العشب في الحديقة. كيف يمكن للمرء أن يرسم بهذه الدقة على الخزف؟

ـــ بفرش دقيقة، أجاب بيسيير وقد بدا عليه الانبهار نفسه، مصنوعة من شعرة واحدة من شعر ابن عرس. وأحيانًا حتى من رمش واحد من رمشات العين البشرية لأدق التفاصيل. وسنوات من التدريب. يبدأ رسامو جينغدتشن تدريبهم في سن السابعة.

ـــ جينغدتشن؟

ـــ مدينة الخزف. تقع في جنوب الصين، في مقاطعة جيانغشي. يُصنع فيها جميع الخزف الإمبراطوري. يعود تاريخ هذا إلى عهد أسرة يوان في القرن الرابع عشر. تُعدّ جينغدتشن مركز الخزف الصيني، تمامًا كما تُعدّ ليموج مركز الخزف الفرنسي. إلا أن جينغدتشن أقدم وأكبر وأكثر تطورًا.

تحدث العقيد فجأة، بعد أن كان يفحص المزهرية بصمت:

ـــ المقابض. انظر إلى المقابض.

انحنى الاثنان الآخران. نُحتت مقابض المزهرية على شكل رؤوس تنانين مصغرة. كان لكل تنين فم مفتوح وأنياب حادة وعيون بارزة. وعلى جسده، نُحتت مئات الحراشف ثم طُليت بالمينا.

ـــ كل حراشفها مختلفة، علّق لامبرت وهو يمرر إصبعه على السطح. إنها ليست متجانسة. غير منتظمة قليلاً، كما هو الحال في التنين الحقيقي. هذا إذا كانت التنانين موجودة.

هذا هو الفرق بين تحفة فنية وشيء جميل فحسب. فالحرفي الذي صنع هذا لم يكرر أي نقش. بل فكر في ماهية التنين، وكيف ستكون حراشفه، وكيف سينعكس الضوء على سطحها.

ركع القائد ليدرس توازن النسب.

ـــ وهنا، على الياقة. نقوش. هل يمكنك قراءتها يا قبطان؟

انحنى بيسيير. وعلى عنق المزهرية، كُتب نقش باللغة الصينية الكلاسيكية بأحرف دقيقة للغاية.

ـــ لنرى... الأمر صعب، فالأحرف صغيرة جدًا... لكنني أعتقد أنني أستطيع تمييز تاريخ الصنع. وهنا اسم الورشة الإمبراطورية. صُنعت هذه القطعة عام ١٧٦٥، خلال عهد الإمبراطور تشيان لونغ.

ـــ عمرها يقارب المئة عام، همس القائد. هذه المزهرية موجودة منذ قرن. وهي في حالة ممتازة. لا يوجد بها أي شق أو كسر.

ـــ لأنها كانت محفوظة في هذا القصر، أوضح بيسيير. محمية من الضوء المباشر والغبار وتقلبات درجات الحرارة. الصينيون يعرفون كيف يحافظون على خزفهم. يلفونه بورق الأرز، ويخزنونه في خزائن من خشب الصندل الذي تطرد رائحته الحشرات. ويتعاملون معه دائمًا بقفازات حريرية. بالنسبة لهم، كل قطعة خزف عتيقة هي صلة بأجدادهم، وكنز عائلي يُورث للأجيال القادمة.

ـــ كنز عائلي سنقوم بسرقته منهم، قال القائد بصوت منخفض.

تنهد العقيد، لكنه لم يرفع صوته.

صعد القبطان السلم عائدًا. واحدًا تلو الآخر، وبصبر لا ينضب، أنزل المزهريات الإحدى عشرة الأخرى. كل واحدة منها تحمل زخارف مختلفة، ولكن بنفس الأسلوب: مشاهد هادئة من حياة البلاط، مرسومة بتلك البراعة التقنية المذهلة التي ميزت ورش العمل الإمبراطورية في جينغدتشن.

صوّرت المزهرية الثانية سيدات البلاط وهنّ يُعجبن بأسماك الكوي في بركة. أما الثالثة، فصوّرت نزهة في جناح حديقة. والرابعة، حفلاً موسيقياً تحت شجرة الوستارية. كل مزهرية تحكي قصة مختلفة.

عندما اصطفت المزهريات الاثنتي عشرة على الطاولة، تراجعوا للخلف ليتأملوا المشهد بأكمله.

— رائعة، علّق العقيد. إنها متناغمة. الألوان، والأنماط، والنسب. لقد تم تصميمها كوحدة متكاملة.

— لا شك أنها تكليف خاص من الإمبراطور يا كولونيل، اقترح بيسيير. ربما بمناسبة عيد ميلاد، أو حفل كبير. لا بد أن فنانًا - أو فريقًا من الحرفيين - قد أمضى عامين أو ثلاثة أعوام في إنشاء هذه المجموعة.

دوّن فولد في دفتر ملاحظاته: "مجموعة من اثنتي عشرة مزهرية، من عهد الإمبراطور تشيان لونغ (مؤرخة عام 1765)، ارتفاعها 75-85 سم، مزينة بزخارف متنوعة تمثل مشاهد من حياة البلاط. حالة استثنائية. التوصية: احتفظ بالمجموعة كاملة، ولا تفصل القطع."

— كم عدد المزهريات التي سنأخذها من هذه المجموعة يا قبطان؟ سأل القائد.

— جميعهم الاثنا عشر يا قائد. لا يمكننا فصلهم. سيكون الأمر أشبه بفصل صفحات كتاب أو حركات سيمفونية.

— سيكون النقل أمراً معقداً، هذا ما علق عليه لامبرت.

— قال الجنرال ألا نقلق بشأن النقل، يا سيدي العقيد. دورنا هو اختيار أفضل القطع. والباقي سيأتي تباعاً.

استدار العقيد نحو الرف التالي.

ـــ الآن، هذه القطع على الرف الأوسط. خزف السيلادون.

أنزل بيسيير بحرص مزهرية بلون أخضر ياقوتي متألق. كان شكلها مختلفًا عن المزهريات السابقة: بسيط، نقي، خالٍ من أي زخارف مرسومة. جرة كروية الشكل، ذات جوانب منتفخة، تستقر على قاعدة دائرية صغيرة.

ـــ أقدم بكثير يا سيدي العقيد. أظن أنها من سلالة سونغ. ربما حتى سلالة سونغ الشمالية. القرن الحادي عشر أو الثاني عشر.

ـــ قبل سبعمائة عام؟ صاح القائد، وهو يأخذ المزهرية باحترام جديد.

ـــ الطلاء ناعمٌ تمامًا، خالٍ من أي شقوق أو عيوب. يُكتسب هذا اللون، المسمى السيلادون، من خلال أكسدة الحديد في الطلاء أثناء عملية حرق اختزالية عند درجة حرارة تتجاوز 1200 درجة مئوية. إنها تقنية صعبة الإتقان، إذ يجب التحكم بدقة متناهية في درجة حرارة الفرن وكمية الأكسجين ومدة الحرق.

ـــ كيف تمكنوا في القرن الحادي عشر من التحكم في درجة الحرارة بهذه الدقة؟

ـــ بخبرةٍ توارثتها الأجيال. كان خزّافو لونغكوان المهرة - حيث صُنعت هذه الخزفيات الخضراء - يعرفون أفرانهم كما نعرف منازلنا. كانوا يعرفون، بمجرد النظر إلى لون اللهب، ما إذا كانت درجة الحرارة مناسبة. وبمجرد سماع طقطقة النار، ما إذا كانت عملية الحرق تسير على ما يرام. يكاد يكون سحراً. أو بالأحرى، فنٌّ ارتقى إلى مستوى العلم.

أمسك القائد بالمزهرية أمام النافذة، تاركاً ضوء الشمس يداعب سطحها.

ـــ هذا اللون رائع. يتغير حسب زاوية الرؤية. أحيانًا أخضر باهت، يكاد يكون أبيض. وأحيانًا أخضر داكن، يكاد يكون أزرق.

ـــ تفاوت سماكة طبقة الطلاء. ففي المناطق السميكة، يكون اللون أكثر كثافة، وفي المناطق الرقيقة، يكون أفتح. هذه الاختلافات ليست عيوبًا، بل على العكس، هي جزء من جمال القطعة، وتضفي عليها حيويةً ورونقًا.

ـــ إنه رائع، اعترف العقيد. تلك البساطة، وتلك النقاء في الخطوط...

ـــ ياباني؟ اقترح القبطان مبتسماً.

ـــ نعم! بالضبط. هذا التصميم البسيط يذكرني بالأشياء اليابانية التي رأيتها في متحف اللوفر.

ـــ تعلم اليابانيون كل شيء من الصينيين. الخزف، الرسم، الخط، العمارة، الحدائق، الشاي، البوذية الزينية. كل شيء من الصين. الصينيون هم الأساتذة. أما اليابانيون فهم الطلاب المتفوقون، بلا شك، الذين تفوقوا أحيانًا على أساتذتهم.

كان القائد يعد قطع السيلادون على الرف.

ـــ هل هناك خمسة عشر؟ ستة عشر؟

ـــ ثمانية عشر يا سيدي، صحح القبطان بعد أن عدّها بالتناوب. بأشكال مختلفة. جرار مثل هذه، وزجاجات ذات أعناق طويلة وضيقة، وأكواب متسعة. جميعها من عهد أسرة سونغ أو يوان.

ـــ هل نأخذهم جميعاً يا قبطان؟

ـــ نعم سيدي. جميعها. قطع نادرة للغاية. خزف سيلادون سونغ يساوي ثروة في السوق الأوروبية.

ـــ كيف تعرف كل هذا؟ سأل القائد بفضول. أنت تعرف عن الخزف الصيني أكثر من أي تاجر تحف أعرفه.

ابتسم القبطان بتواضع.

ـــ لقد أمضيتُ ثلاثة أشهر في باريس قبل انطلاق الرحلة الاستكشافية، أيها القائد. وما إن علمتُ بأننا سنغادر إلى الصين، حتى أدركتُ أننا سنحظى بفرصة رؤية - وربما اقتناء - قطع أثرية استثنائية. لذا، استعددتُ جيداً. زرتُ جميع المتاحف، واطلعتُ على جميع كتالوجات

المزادات، وأجريتُ مقابلات مع جميع الخبراء. وقرأتُ كل كتاب استطعتُ إيجاده عن الفن الصيني.

ـــ أنت رجل ذو بصيرة يا نقيب، ابتسم العقيد قائلاً.

ـــ أو جشع يا سيدي العقيد. الأمر كله يعتمد على وجهة النظر.

ـــ لنكمل يا سيدي العقيد. ما زال أمامنا فحص القطع الزرقاء والبيضاء.

احتلت المزهريات الزرقاء والبيضاء الجزء السفلي من الرفوف. عندما نزلت بيسيير أولاً، أطلق فولد صفارة.

ـــ مُذهِل.

مزهرية كبيرة على شكل كمثرى - تُعرف في المصطلحات الصينية باسم "يوهوتشونبينغ" - يبلغ ارتفاعها قرابة المتر. عنقها متسع على شكل بوق، يعلو جسماً أنيقاً مستديراً برشاقة قبل أن يضيق باتجاه القاعدة.

لكن ما كان مذهلاً حقاً هو الديكور. فعلى خلفية من الخزف الأبيض المبهر، رُسمت مشاهد سردية باللون الأزرق الكوبالتي ذي الكثافة الساحرة.

ـــ هذه قصة الجنرال يو فاي، قال القبطان وهو يدير المزهرية. بطل قومي من سلالة سونغ. هنا نراه طفلاً يدرس الأدب الكلاسيكي مع والدته. هنا، يلتحق بخدمة الإمبراطور. هناك، يذهب إلى الحرب ضد الغزاة الجورشن من الشمال. وهنا...

أدار المزهرية مرة أخرى.

ـــ هنا، نراه يتعرض للخيانة من قبل الوزير تشين هوي، ويُسجن، ويُعدم. تُروى حياته كلها على هذه المزهرية.

اقترب منه زميلاه، وقد انبهرا. رُسم كل مشهد بدقة متناهية. ورُسمت الشخصيات باهتمام مذهل بالتفاصيل.

ـــ كيف يمكن للمرء أن يرسم بهذه الدقة؟ لا بد أن الفرش كانت دقيقة للغاية.

ـــ يد ثابتة يا قائد. ارتعاشة واحدة، حركة مفاجئة واحدة، وكل شيء سينهار.

كان العقيد يفحص قاعدة المزهرية بدقة.

ـــ هناك علامة هنا. هل يمكنك قراءتها يا قبطان؟

انحنى بيسيير إلى الأمام.

ـــ العلامة الإمبراطورية لسلالة يوان. القرن الرابع عشر. هذه المزهرية عمرها ستمائة عام، أيها السادة.

ـــ ستة قرون، وفي حالة ممتازة، همس القائد.

ـــ ليس الأمر معجزة، بل هو ثمرة عناية مستمرة واهتمام دؤوب. يدرك الصينيون هشاشة هذه الأشياء وعدم إمكانية استبدالها، لذا فهم يحمونها ويعتزون بها.

أحصى القبطان المزهريات الزرقاء والبيضاء على الرفوف.

ـــ هناك ثلاثة وعشرون مزهرية زرقاء وبيضاء. جميعها من فترات مختلفة. بعضها من عهد أسرة يوان، مثل هذه. وبعضها من عهد أسرة مينغ. وقليل منها من عهد أسرة تشينغ. أقترح أن نأخذها جميعاً.

استشار بيسيير ملاحظاته.

ـــ سيدي العقيد، لقد شارفت فترة ما بعد الظهر على الانتهاء. أمضينا ساعاتٍ عديدة في فحص الخزف. اخترنا ثلاثة وخمسين قطعة: اثنتا عشرة قطعة من الخزف الوردي، وثماني عشرة قطعة من السيلادون، وثلاث وعشرون قطعة من الخزف الأزرق والأبيض. لا يزال أمامنا فحص المينا، واليشم، والبرونز، والمنسوجات، وأدوات العلماء، والساعات. إذا واصلنا العمل بهذا المعدل، فسيستغرق الأمر أسبوعًا. لكن لم يتبقَّ لنا سوى يومين.

ـــ ما الذي تقترحه يا قبطان؟

ـــ علينا تسريع الأمور يا سيدي العقيد. اتخاذ قرارات أسرع. لا يمكننا قضاء ساعة في فحص كل بند. علينا أن نكون أكثر واقعية.

— براغماتي، كرر العقيد. كلمة لطيفة تعني "سطحي".

— إذا كانت لديك فكرة أفضل يا سيدي العقيد، فأنا مستعد للاستماع.

كان العقيد يدرك تماماً أن القائد كان على حق.

— حسنًا جدًا. لننتقل إلى الأنواع المقسمة. إنها موجودة في خزائن العرض هناك.

كانت فترة ما بعد الظهر تقترب من نهايتها. بدأ الضوء المتدفق عبر النوافذ العالية يكتسب ذلك اللون الذهبي الذي يسبق الغسق. وقد ملأ الرجال الثلاثة صفحات عديدة بالملاحظات.

روائع مطلية بالمينا

وُضعت خزائن العرض المنخفضة التي تحتوي على مينا الكلووازونيه على طول الجدار الغربي للغرفة. وعندما اقتربوا منها، سقط ضوء الشمس الغاربة على الأشياء مباشرة، مما جعلها تتلألأ.

— يبدو أنهم يحترقون، قال القائد وهو يغطي عينيه.

— هذا تأثير المينا، أوضح القبطان. إنها تعكس الضوء مثل الزجاج. وهذا أمر طبيعي، لأن المينا عبارة عن زجاج ملون.

انحنى أمام أول واجهة عرض، يمسح طبقة الغبار الرقيقة التي تغطي الزجاج بكمه. في الداخل، اصطفت حوالي عشر مزهريات، كل واحدة منها أكثر روعة من سابقتها.

ركع العقيد بجانبه.

— ما هو فن المينا؟ لقد سمعت عنه، لكنني لم أفهم هذه التقنية قط.

بدا بيسيير سعيداً لأنه تمكن من تقديم الشرح.

— تقنية معقدة للغاية لطلاء المعادن بالمينا. تُستخدم قاعدة من النحاس أو البرونز، تُلحم بها أسلاك نحاسية دقيقة للغاية - لا يتجاوز عرضها أحيانًا المليمتر - لتتبع خطوط التصميم. تُشكل هذه الأسلاك حجيرات أو فواصل. ثم تُملأ كل حجيرة بمسحوق المينا بألوان مختلفة، وهو

عبارة عن مساحيق زجاجية ممزوجة بأكاسيد معدنية. يُستخرج اللون الأزرق من الكوبالت، والأخضر من النحاس، والأصفر من الحديد، والأحمر من الذهب.

— ذهب؟ صاح فولد في دهشة.

— نعم، الذهب الغرواني. فهو يجعل اللون الأحمر باهظ الثمن وصعب المنال. بمجرد ملء الحجرات، يُحرق الجسم في فرن ذي درجة حرارة عالية جدًا - حوالي 800 درجة مئوية. تذوب المساحيق وتتحول إلى زجاج. ولكن مع التبريد، تنكمش طبقات المينا. لذا يجب إضافة المزيد من المينا وإعادة حرقه. أحيانًا ثلاث أو أربع مرات، حتى تمتلئ الحجرات. ثم يُصقل السطح. وأخيرًا، تُطلى أسلاك النحاس وبقية الدعامة المعدنية بالذهب.

— مهمة جبارة.

— مهمة قد تستغرق سنوات لإنجاز قطعة واحدة. تتطلب المزهريات الكبيرة المصنوعة بتقنية المينا أحيانًا من الحرفي العمل لمدة ثلاث أو أربع سنوات.

فتحت بيسيير خزانة العرض وأخرجت أول مزهرية. قطعة أسطوانية الشكل، يبلغ ارتفاعها حوالي ثلاثين سنتيمتراً، مغطاة بتصميم زهري على خلفية زرقاء فيروزية.

— هذا اللون الأزرق. ما يُسمى باللون الأزرق جينغتاي، نسبةً إلى الإمبراطور جينغتاي الذي حكم في منتصف القرن الخامس عشر. هو من جعل فن المينا المقسمة فنًا إمبراطوريًا. قبله، كان حرفةً ثانوية. بعده، أصبح فنًا رئيسيًا.

أخذ فولد المزهرية بحذر. كانت أثقل مما بدت عليه.

— الألوان زاهية للغاية، ونقية جداً. يبدو وكأنها طُليت بالأمس.

— جودة المينا الصينية. فهي لا تفقد بريقها مع مرور الوقت. فالمينا المقسمة التي يبلغ عمرها أربعمائة عام تحتفظ بنفس ألوان المينا الجديدة.

كان لامبرت يتفقد موقع التصوير بدقة.

ـــ هذه الزهور... هل هي زهور اللوتس؟

ـــ اللوتس والفاوانيا، يا سيدي. رمزان للنقاء والثراء. الزخارف الزهرية شائعة جدًا، لكن دقة الصنع... كل بتلة في حجرة منفصلة، وفي كل حجرة، للمينا درجة لون مختلفة. هناك درجات من الوردي الفاتح، والوردي الداكن، والأبيض الكريمي. هذه التدرجات مقصودة ومحسوبة. اختار الحرفي بعناية المينا المناسبة لكل حجرة ليخلق هذا التأثير العميق والبارز.

ـــ الرسم بالزجاج.

ـــ بالضبط يا قائد.

أمضوا النصف ساعة التالية في فحص المجموعة. كان هناك مزهريات بأحجام مختلفة، وصناديق، وأطباق، ومباخر. لفت انتباههم شيء واحد على وجه الخصوص: مبخرة عطر على شكل بطة الماندرين، يبلغ ارتفاعها عشرين سنتيمتراً.

ـــ رائع! هتف العقيد وهو يرفعها. كل ريشة مقسمة إلى أجزاء. تدرجات اللون... من البرتقالي المحمر على الرأس، يتلاشى إلى البني الداكن على الجسم. والعين... بؤبؤ أسود بنقطة ضوء بيضاء.

كان الحرفيون يعملون باستخدام العدسات المكبرة. وللحصول على أدق التفاصيل، كانوا يستخدمون عدسات مكبرة مثبتة على حوامل، كتلك التي يستخدمها صانعو الساعات. بعض القطع كانت تتطلب مستوى عالٍ من التركيز، بحيث لا يستطيع الحرفي العمل إلا ساعتين أو ثلاث ساعات يوميًا.

ـــ ساعتين أو ثلاث ساعات في اليوم، كرر فولد. على مدى أربع سنوات.

ـــ حوالي ثلاثة آلاف ساعة لقطعة واحدة.

أعاد القبطان البطة إلى صندوق العرض ووقف.

ـــ كم عدد الذين سنأخذهم يا سيدي العقيد؟

— من الصعب تحديد العدد. هل هناك ستون قطعة؟ أم ثمانون؟

"ثمانون على الأقل"، أكد العقيد بعد أن نظر حول واجهات المحلات.

— لا يمكننا أخذها كلها. إنها ثقيلة للغاية. البرونز ثقيل. إذا أخذنا ثمانين قطعة، فسيكون وزنها مئات الكيلوغرامات فقط للقطع المطلية بالمينا.

— كم عددهم يا قبطان؟

تأملت بيسيير المجموعة بنظرة خاطفة.

— سبعة وأربعون. أروع القطع من كل حقبة. جينغتاي، تشيان لونغ، وبعض القطع الأحدث. وتلك البطة، بالطبع.

— البطة لي، قال القائد مازحاً.

— عفوا يا قائد؟

— أمزح. لكن إذا عُرضت هذه الأشياء للبيع، فأنا أحتفظ بحق شراء تلك البطة.

— إذا عُرضت للبيع، فسيكون ذلك بعد قرن من الزمان يا قائد. ستكون قد متّ منذ زمن طويل حينها.

— حينها سيشتريه أحفادي. سأذكره في وصيتي.

رغم التوتر المحيط، ابتسموا.

دوّن فولد في دفتر ملاحظاته: "سبعة وأربعون قطعة من المينا المقسمة. تعود في الغالب إلى فترتي جينغتاي وتشيان لونغ. مزهريات، صناديق، مبخرات، حيوانات زخرفية."

— أين نحن يا قبطان؟

أحصت بيسيير بسرعة.

— ثلاث وخمسون قطعة من الخزف، وسبع وأربعون قطعة من المينا. مئة قطعة. ما زلنا بحاجة إلى مئتي قطعة أخرى.

— الأحجار الكريمة، قال العقيد. لم نرَ الأحجار الكريمة بعد. ومما سمعت، فإن مجموعة اليشم الخاصة بالإمبراطور رائعة.

— إنها في الغرفة المجاورة يا سيدي العقيد. هيا بنا.

قاعة اليشم الإمبراطورية

مروا عبر غرفة انتظار ودخلوا غرفة أصغر، مُغطاة بالحرير الأصفر - لون الإمبراطورية. كان الضوء خافتاً، يكاد يكون ساحراً. احتوت خزائن عرض من خشب الورد بأبواب زجاجية، مُرتبة على طول الجدران الأربعة، على ما كان بلا شك أروع مجموعة من اليشم في الصين بأكملها.

توقفوا على العتبة، وقد أسرهم ما كانوا يكتشفونه. حتى من خلال زجاج واجهات العرض، وحتى في الضوء الخافت، بدت أحجار اليشم وكأنها تتألق بضوء داخلي.

— كل هذه القطع، قال لامبرت.

كان هناك المئات من القطع الأثرية. أكواب، منحوتات، صولجانات، مجوهرات، أدوات طقسية. وعلى عكس ما كانوا يتصورون، لم يكن اليشم أخضر اللون دائمًا. بل كان يأتي في مجموعة مذهلة من الألوان: أبيض حليبي، أخضر فاتح، أخضر داكن، رمادي، بني، برتقالي، وحتى بنفسجي.

— كنت أظن أن اليشم أخضر اللون دائماً، هكذا صاح القائد.

— هذا مفهوم خاطئ شائع، أجاب بيسيير. في الواقع، يشير مصطلح اليشم إلى معدنين مختلفين: النفرت والجاديت. النفرت، الذي يُستخرج منذ العصر الحجري الحديث، يتوفر بألوان متنوعة من الأبيض إلى الأخضر الداكن، بما في ذلك درجات الكريمي والرمادي والبني. أما الجاديت، وهو أندر وأكثر قيمة، والذي اكتُشف فقط في بورما في القرن الثامن عشر، فيتميز بألوان أكثر حيوية: الأخضر الزمردي، والبنفسجي، والبرتقالي، والأبيض الناصع.

اقترب من أول خزانة عرض، وأخرج مفتاحًا من جيبه - كان الجنرال مونتوبان قد أعطاه جميع مفاتيح القصر - وفتح الباب الزجاجي.

— هذه الغرفة أيها السادة.

أنتج تمثالاً أثار إعجاب الاثنين الآخرين. جبل من الثلج الأبيض، يبلغ ارتفاعه حوالي خمسين سنتيمتراً وعرضه قرابة المتر. نُحت من كتلة واحدة من الثلج الأبيض الشفاف، ويصور منظراً طبيعياً لقمم مغطاة بالثلوج بواقعية مذهلة.

وضعها على طاولة في وسط الغرفة. وتجمعوا حولها.

كان التمثال بالغ التعقيد، يخطف الأنفاس. عشرات القمم الصخرية ترتفع بارتفاعات متفاوتة، خالقةً عمقًا ومنظورًا يفوقان الإدراك. أشجار صنوبر مصغرة تتشبث بالمنحدرات الشديدة. شلالات منحوتة تبدو وكأنها تتدفق بين الصخور. تماثيل صغيرة لأشخاص متوحدين تسير على دروب وعرة، متجهةً نحو أجنحة تتربع على قمم الجرف. غيوم منمقة تطفو بين القمم، خالقةً جوًا من الغموض والروحانية.

ـــ كيف يُعقل ذلك؟ همس القائد. كيف يمكن للمرء أن ينحت شيئاً بهذه التعقيد في مثل هذا الحجر الصلب؟

ـــ مع مرور الوقت. وقت طويل. استغرق صنع هذا التمثال عشر سنوات. ربما خمس عشرة سنة. ربما عشرين سنة.

ـــ عشرون عاماً! صاح العقيد. هذا أمر لا يُصدق!

ـــ بالنسبة لنا، نعم يا سيدي العقيد. لكن بالنسبة للصينيين، الأمر طبيعي. للوقت قيمة مختلفة هنا. إنهم ليسوا في عجلة من أمرهم. إنهم يدركون أن بعض الأمور لا يمكن إنجازها على عجل.

انحنى لامبرت فوق التمثال، وفحص التفاصيل باستخدام عدسة مكبرة.

ـــ النساك. نرى وجوههم. نرى أرديتهم. بل نرى عصيهم. لا يتجاوز طول هذه الشخصيات خمسة ملليمترات، ومع ذلك تم رسم كل تفصيل بدقة!

ـــ الظهر، أضاف القبطان وهو يقلب التمثال.

بأحرف دقيقة للغاية.

— قصيدة من تأليف تشيان لونغ. تحتفي بجمال الجبال المقدسة، والبحث الروحي للزهاد، وسكينة الحياة التي تُعاش في عزلة بعيدًا عن صخب البلاط.

— هل يمكنك قراءتها يا قبطان؟

— بعض المقاطع يا سيدي العقيد. لغتي الصينية محدودة، لكنني أفهم المغزى. انظر، هنا على سبيل المثال، يقول النص شيئًا مثل: "في الجبال الأبدية، تجد الروح السلام". ترجمتي تقريبية، لكن هذه هي الفكرة العامة.

— بارد الملمس. لكن في الوقت نفسه... هناك شيء حي فيه. هل يمكنك الشعور به؟

— هذا ما يقوله الصينيون. فهم يعتقدون أن اليشم يمتلك طاقة تشي. بالنسبة لهم، هو حجر حي.

— هل تصدق ذلك؟

— ليس تمامًا يا قائد. أمسكه لبضع دقائق. سيسخن، ويبدو أنه يتكيف مع درجة حرارة جسمك. أمرٌ مُقلق. يكاد يكون مُزعجًا.

أخذ العقيد التمثال. وبالفعل، بعد بضع ثوانٍ، لم يعد يبدو بارداً كما كان.

— غريب، اعترف بذلك.

أعادوا وضع جبل اليشم على الطاولة وواصلوا استكشافهم.

شكلت أكواب اليشم فئة رائعة. أخرج القبطان واحدة مصنوعة من اليشم الأخضر الفاتح. بلغ قطرها ثلاثين سنتيمتراً.

— سُمك الجدران. ثلاثة ملليمترات، وربما أقل.

وضع الكوب أمام نافذة لا يزال يتسلل منها ضوء الشفق الخافت. اخترق الضوء اليشم، كاشفًا عن عروق داخلية وتدرجات لونية لا تُرى في الضوء العادي. بدا اليشم وكأنه يتوهج بضوء أخضر غريب.

— سحر.

ـــ إنه فن يا سيدي، صحّح القبطان. فن عظيم حقًا. يتطلب نحت قطع بهذه الدقة سنوات. لا مجال للخطأ. ضربة زائدة، ضغط زائد، وينكسر القطع. ويضيع كل العمل.

ـــ كم عدد الأكواب التي تنكسر أثناء العملية؟

ـــ كثيراً. فمقابل كل قطعة تصل إلى الكمال، تنكسر عشر أو عشرون قطعة أخرى في طريقها. لا تمثل هذه القطع العمل المبذول في القطعة نفسها فحسب، بل تمثل أيضاً كل العمل الضائع في القطع المكسورة.

نُحتت مقابض الكأس على شكل تنانين مصغرة. كل تنين، لا يتجاوز طوله خمسة سنتيمترات، كان يحمل حراشف ومخالب وشوارب. وكانت أجساد التنانين تغوص في الداخل، كما لو كانت تشرب السائل الموجود بداخله.

ـــ يا له من خيال! نحت تنانين تشرب من كوب. عمل فني وشاعري في آن واحد.

ـــ العبقرية الصينية. فهم لا يفصلون بين الوظيفة والجمال. فبالنسبة لهم، يجب أن يكون الشيء جميلاً ومفيداً في آن واحد. الفن والحرفة شيء واحد.

ثم اكتشفوا الكرات المتداخلة الشهيرة. أخرج العقيد واحدة منها من خزانة العرض.

كرة من اليشم الأخضر قطرها حوالي عشرة سنتيمترات. لكن عندما قلبها بين يديه، لاحظ وجود كرات أخرى بداخلها، كل منها قادرة على الدوران بحرية.

ـــ كم عدد الكرات؟

قام بيسيير بالعد من خلال الثقوب الدقيقة.

ـــ سبعة يا سيدي العقيد. سبع كرات متداخلة واحدة داخل الأخرى.

ـــ كيف يكون ذلك ممكناً؟ كيف يمكنك نحت كرات داخل كرة دون كسرها؟

— لا أحد يعلم على وجه اليقين. إنه سرٌّ يحرص عليه الحرفيون في ورش العمل الإمبراطورية. يُعتقد أنهم يستخدمون أدوات دقيقة للغاية - خطافات، وأزاميل صغيرة - تُدخل عبر ثقوب صغيرة. إنهم يعملون، بطريقة ما، دون رؤية واضحة. يتطلب الأمر براعة ودقة وصبرًا يفوق التصور.

— كم من الوقت يستغرق نحت قطعة كهذه؟

— ثلاث سنوات، أربع سنوات. ربما أكثر. وكل كرة مزينة بنقش مختلف. يمكنك رؤيتها من خلال الثقوب. الكرة الأولى - الأبعد - مزينة بالتنانين. والثانية بالعنقاء. والثالثة بأزهار اللوتس. والرابعة بالغيوم.

جلس فولد على كرسي صغير.

— أتعرف ما يثير دهشتي؟ هذه الأشياء لم تُستخدم قط. لقد حُفظت هنا، في هذه الخزائن، ولم يُلتفت إليها إلا نادرًا. كل تلك السنوات من العمل، كل ذلك الإبداع، من أجل أشياء قضت حياتها حبيسة الخزائن.

— لكن هذا كان غرضها بالضبط يا قائد. لم تكن هذه الأشياء مخصصة للاستخدام العملي، بل كانت مخصصة للتأمل والإعجاب والتفكر. بالنسبة للصينيين، كان امتلاك قطعة جميلة من اليشم بمثابة امتلاك قطعة من الخلود، وصلة بأجدادهم، بالماضي، وبالأجيال القادمة.

عملوا بسرعة، يفتحون خزانة عرض تلو الأخرى، يفحصون ويقارنون ويدونون الملاحظات. وقد أثارت القطع الطقسية إعجابهم: أقراص بي، رموز السماء، التي يعود تاريخها إلى العصر الحجري الحديث؛ أنابيب كونغ، رموز الأرض، التي يعود تاريخها إلى آلاف السنين؛ ألواح غوي للمراسم الإمبراطورية؛ صولجانات رويي المصنوعة من اليشم بألوان مختلفة.

كانت هناك أيضاً مقتنيات شخصية أخرى: أبازيم أحزمة، وقلائد، وأزرار صينية، وخواتم. لفت انتباههم إبزيم من اليشم الأبيض محاط بالذهب. نُقش على اليشم مشهد صيد لرماة سهام يمتطون خيولهم ويطاردون غزلاناً عبر غابة صنوبر. أما الإطار الذهبي فكان مزيناً بزخارف الخفافيش، وهي رمز للحظ السعيد في الثقافة الصينية.

ـــ لنأخذ هذه، قرر لامبرت. إنها رائعة.

بعد ساعة، اختاروا سبعة وستين قطعة من اليشم. جبال منحوتة، أكواب، كرات متحدة المركز، أدوات طقسية، مجوهرات. كل قطعة منها تحفة فنية فريدة لا تُعوَّض.

دوّن القبطان كل شيء في دفتر ملاحظاته، ثم قام بالعد:

ـــ ثلاثة وخمسون قطعة من الخزف، وسبعة وأربعون قطعة من المينا، وسبعة وستون قطعة من اليشم. مئة وسبعة وستون قطعة. ما زلنا بحاجة إلى مئة وثلاثة وثلاثين قطعة.

حلّ الليل. ومن خلال النوافذ، بدت الفوانيس تضيء أرجاء القصر. وواصل الجنود نهبهم الليلي. وارتفعت الضحكات والأغاني من الظلام.

ـــ لقد فات الأوان لمواصلة العمل الليلة، أعلن العقيد. لم نعد نرى أي شيء.

ـــ أنت محق يا سيدي العقيد. لنعد إلى مقر إقامتنا. سنستأنف العمل غداً عند الفجر. يوم طويل ينتظرنا.

أغلقوا خزائن العرض، وأطفأوا الفوانيس التي أشعلوها، وغادروا غرفة اليشم. في الممر، مروا بمجموعة من جنود الزواف يحملون صناديق مليئة بالبضائع المسروقة. كان أحدهم يرتدي رداءً حريريًا أصفر فوق زيه العسكري. وكان آخر يرتدي قبعة الماندرين، ويُضحك رفاقه بتجهماته.

ـــ إنهم يرتدون ملابس إمبراطورية، زمجر لامبرت باشمئزاز. مُشين.

ـــ إنها حرب. في الحرب، كل شيء مباح.

ـــ كل شيء؟ حقاً كل شيء؟ لا حدود؟

ـــ على ما يبدو لا.

ساروا في صمت إلى غرفهم، غارقين في أفكارهم. لقد أرهقهم هذا اليوم الأول من الجرد، جسديًا بالطبع، ولكن ذهنيًا بشكل خاص. لقد

تأملوا عجائب، ولمسوا روائع فنية، وتعاملوا مع أشياء ذات جمال وقيمة لا تُقدر بثمن. وفي الوقت نفسه، أدركوا عظمة ما يقومون به.

في تلك الليلة، لم ينم أي من الثلاثة نوماً هانئاً. ظلوا مستيقظين في أسرّتهم في المخيم، يستمعون إلى أصوات النهب التي استمرت في القصر، ويفكرون في كل تلك الأشياء التي ستختفي، وتحترق، وتُدمر إلى الأبد.

وعند الفجر، حين دوّى صوت البوق معلناً الاستيقاظ، نهضوا وهم لا يفكرون إلا في شيء واحد: لم يتبقَّ لهم سوى يوم واحد. كان عليهم العمل بسرعة. إنقاذ ما يمكن إنقاذه. الحفاظ على بعض هذه الكنوز على الأقل قبل أن يتبدد كل شيء.

البرونزيات القديمة

في الثامن من أكتوبر، في تمام الساعة الخامسة صباحًا، اجتمع المفوضون الثلاثة أمام الغرفة البرونزية. بدا النقيب شاحبًا، وعيناه متعبتان. أما القائد فكان يمشي بتيبس، وظهره يؤلمه. وحده العقيد بدا بصحة جيدة، رغم أن نظراته كانت تنمّ عن حزن عميق.

ـــ أيها السادة، اليوم هو آخر يوم عمل كامل لنا، بدأ لامبرت حديثه قائلاً. ما زال يتعين علينا جرد البرونزيات والمنسوجات والأشياء العلمية والساعات. يجب أن نكون فعالين.

كانت غرفة البرونز تقع في جناح منفصل من القصر، في مبنى أقدم من غيره. تميزت هندستها المعمارية بالبساطة والتقشف، حيث كانت جدرانها من الحجر العاري، خالية من الزخارف الفخمة الموجودة في أماكن أخرى. بيئة بسيطة لا تشتت انتباه الناظر.

عندما دخلوا الغرفة، انبهروا بجو المكان. دخل ضوء الصباح من خلال نوافذ طويلة وضيقة، وألقى بأشعة ذهبية على الأشياء المرتبة على قواعد خشبية سوداء مطلية.

كانت التماثيل البرونزية ضخمة بشكل مثير للإعجاب. بعض القدور ثلاثية القوائم تجاوز ارتفاعها المتر. سطحها، المغطى بطبقة من الزنجار الأخضر الذي يشهد على قدمها، كان منقوشًا بزخارف قديمة غريبة رائعة.

اقترب العقيد من الجسم الأول، وهو دينغ كبير - مرجل طقوسي ثلاثي القوائم من سلالة شانغ.

— لا بد أن عمر هذه القطعة ثلاثة آلاف عام. وربما حتى ثلاثة آلاف وخمسمائة عام.

كان التمثال البرونزي ضخماً، وربما كان يزن أكثر من مائة كيلوغرام. وكانت الأقدام الثلاثة، على شكل مخالب حيوانية منمقة، مغروسة بعمق في القاعدة.

— ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة، همس القائد. كان هذا الشيء موجودًا بالفعل عندما قاد موسى بني إسرائيل خارج مصر.

— لقد كان موجودًا من قبل يا قائد، صحّح القبطان. بدأت سلالة شانغ حوالي عام 1600 قبل الميلاد. كان هذا الشيء قديمًا بالفعل عندما سقطت طروادة. وبحلول وقت تأسيس روما، كان عمره ألف عام بالفعل.

لمس العقيد التصاميم المنقوشة. كانت تصور أقنعة لكائنات خيالية ذات عيون جاحظة وأسنان حادة وقرون منحنية.

— ما الأمر يا قبطان؟ شياطين؟

— تُسمى هذه الأقنعة "تاوتي"، وهي أقنعة تُمثل شياطين أو آلهة. لا أحد يعرف على وجه التحديد ما تُمثله، ولا يزال علماء الآثار يُناقشون الأمر. يعتقد البعض أنها آلهة حامية، تُستدعى خلال طقوس تقديم القرابين للأجداد. ويعتقد آخرون أنها أرواح شريرة كان على الأجداد محاربتها في الآخرة. بينما يعتقد فريق ثالث أنها رموز للسلطة الملكية.

— إنهم مرعبون. تلك العيون، تلك الأسنان... يبدو أنهم سيبتلعوننا.

ـــ لعلّ هذا كان القصد. التخويف، والإبهار، وإظهار القوة. استُخدمت هذه التماثيل البرونزية في احتفالاتٍ عظيمة. تخيّل: عشرات القدور كهذا، مصطفّة في معبدٍ قديم، مضاءة بالمشاعل. يتصاعد البخار من القرابين التي تُطهى في الداخل. الكهنة يرتدون أردية الطقوس ويرددون التعاويذ.

طاف القائد حول المرجل، متفحصاً إياه من جميع الزوايا.

ـــ كيف كانوا يصهرون البرونز آنذاك؟ وكيف كانوا يصنعون قطعاً بهذا الحجم؟

ـــ باستخدام تقنية متطورة. استخدموا قوالب متعددة الأجزاء. قاموا أولاً بنحت نموذج من الطين بكل تفاصيله. ثم صنعوا قوالب حول هذا النموذج. صبوا البرونز المنصهر، وهو سبيكة من النحاس والقصدير. بعد أن برد، كسروا القوالب لاستخراج البرونز.

ـــ وماذا عن درجة الحرارة؟

ـــ حوالي ألف ومائتي درجة. بالنسبة لأفران ذلك الزمان، كان ذلك إنجازاً عظيماً. كان عليهم استخدام فحم عالي الجودة، ومنافيخ قوية لإشعال اللهب، وكان عليهم التحكم في درجة الحرارة بدقة متناهية.

انحنى العقيد ليفحص داخل المرجل.

ـــ توجد نقوش هنا. في الداخل.

انحنى القبطان. وبالفعل، كانت الأحرف القديمة المنقوشة في الداخل تشكل عدة أعمدة من النص.

ـــ من اللغة الصينية القديمة. قديمة جدًا. لا أستطيع قراءتها. هذه الأحرف تختلف عن الكتابة الحديثة. لكن بشكل عام، تشير هذه النقوش إلى من صُبّ البرونز لأجله. اسم ملك، أو نبيل، أو سلف مهم. وغالبًا ما تصف المناسبة.

ـــ مثل كتب التاريخ، لاحظ القائد. هذه التماثيل البرونزية تحكي قصة الصين القديمة.

ـــ بالضبط. بالنسبة للمؤرخين الصينيين، تُعدّ هذه التماثيل البرونزية وثائق لا تُعوّض. فهي تحتوي على معلومات لا يمكن العثور عليها في أي مكان آخر.

ـــ ومع ذلك، سنأخذ بعضهم، قال العقيد بمرارة.

ـــ نعم يا سيدي العقيد. لكن على الأقل سنحافظ عليها. ستُدرس، ويُعجب بها، وتُحفظ في المتاحف. هذا أفضل من تركها هنا ليُصهرها الجنود ويصنعوا منها قذائف مدفعية.

وواصلوا فحصهم. تضمنت المجموعة عشرات القطع: دينغ بأحجام مختلفة، غوي، يي، زون، يو.

لفتت انتباههم مزهرية. كان طولها أربعين سنتيمتراً، ذات شكل أنيق: جسم بيضاوي يعلوه غطاء مقبب، وكل ذلك يرتكز على قاعدة دائرية. نُحت المقبض على شكل تنين يلتف جسده من الغطاء إلى قاعدة المزهرية.

ـــ هذا التنين، قال القائد مندهشاً. كل حراشفه منحوتة. والعيون - إنها مرصعة بالذهب.

ـــ ذهب؟ صاح العقيد مندهشاً.

ـــ نعم يا سيدي العقيد. إنها تقنية تُسمى التطعيم بالذهب. تُحفر ثقوب صغيرة في البرونز، وتُدخل أسلاك ذهبية، ثم تُطرق لتثبيتها. وهي مخصصة لأثمن القطع.

كان لامبرت يفحص الغطاء.

ـــ هناك حيوان على الغطاء. يبدو أنه نمر.

ـــ نعم يا سيدي العقيد، نمر مستلقٍ. حيوان حامي. غالبًا ما كانت أغطية هذه المزهريات مزينة بالحيوانات – النمور والفيلة والطيور الأسطورية. لكل حيوان معنى رمزي.

عاد فولد، الذي كان قد طاف حول الغرفة، باتجاههم.

ـــ لا بد أن هناك حوالي خمسين تمثالاً برونزياً هنا يا سيدي العقيد. لا يمكننا أخذها جميعاً. إنها ثقيلة جداً.

ـــ لا، بالطبع يا قائد. أقترح أن نأخذ ثلاثة وعشرين. الأفضل والأقدم والأفضل حفظاً. عدد يعكس بدقة تنوع هذه المجموعة دون أن يكون من المستحيل نقله.

أمضوا الساعتين التاليتين في اختيار القطع. مهمة صعبة. كل قطعة برونزية لها مزاياها.

ـــ هذا أم ذاك؟ سأل القائد، مشيراً إلى نقرتين متشابهتين في الحجم.

ـــ هذا هو، قرر العقيد بعد فحص دقيق. النقوش أطول وأكثر تفصيلاً.

ـــ وماذا عن نبات الدبق هذا؟ هل نأخذه؟

ـــ نعم. طبقة الصدأ رائعة. ذلك اللون الأخضر اليشمي. لا بد أنها دُفنت لقرون قبل أن تُكتشف. أكسدة النحاس عند ملامسته لرطوبة التربة هي التي خلقت هذا اللون.

شيئًا فشيئًا، ازدادت قائمتهم طولًا. وبحلول الساعة العاشرة صباحًا، كانوا قد اختاروا ثلاثة وعشرين تمثالًا برونزيًا، من عهد أسرة شانغ إلى عهد أسرة هان. نسخة مختصرة من ألف وخمسمائة عام من التاريخ الصيني.

دوّن العقيد الإجماليات في دفتر ملاحظاته الخاص:

ـــ ثلاثة وخمسون قطعة من الخزف. سبعة وأربعون قطعة من المينا. سبعة وستون قطعة من اليشم. ثلاثة وعشرون قطعة من البرونز. المجموع: مئة وتسعون قطعة. ما زلنا بحاجة إلى مئة وعشر قطع.

ـــ ثم هناك المنسوجات، أثواب الإمبراطورية، اقترح القائد. سيسعد الجنرال بالحصول على بعضها ليقدمها للإمبراطورة أوجيني.

ـــ فكرة جيدة. قاعة العشرة آلاف حسناء. هيا بنا.

غرفة المنسوجات

عبروا عدة ساحات، مارّين ببركٍ لا تزال أزهار اللوتس تطفو فيها متفتحة، غافلين عن الفوضى العارمة التي تعمّ من حولهم. مرّ جنودٌ يحملون مسروقات. كان أحدهم يحمل مزهرية من عهد أسرة مينغ تحت كل ذراع. ولفّ آخر لفافة حرير حول خصره كحزام. وصنع ثالث عمامة من راية مطرزة.

ـــ مثير للشفقة، همس العقيد قائلاً. إنهم لا يدركون حتى قيمة ما يسرقونه.

ـــ على الأقل هم لا يدمرونه يا سيدي العقيد.

كانت قاعة العشرة آلاف حسناء عبارة عن رواق طويل استخدمه الخصيان لتخزين المنسوجات الإمبراطورية. وكانت جدرانها مبطنة بخزائن من خشب الصندل، تملأ رائحتها المكان بعطر فواح.

كانت العديد من الخزائن قد تعرضت للاقتحام. وتناثرت الأقمشة على الأرض، وقد داسها الجنود. وتمزقت الفساتين، ولا شك أن ذلك كان على يد رجال أرادوا قص قطع منها لصنع مناديل أو أوشحة.

كانت عشرات الفساتين ملقاة على الأرض. بعضها ممزق بالسكاكين، والبعض الآخر يحمل آثار أحذية موحلة. فستان حريري أصفر إمبراطوري - لا بد أنه استغرق عامين في صنعه - كان ممزقًا إلى نصفين.

انحنى القائد والتقط قطعة من الحرير المطرز. كان القماش، ذو الجودة العالية، مزينًا بتنين ذهبي مطرز بخيوط من الذهب والفضة. لكنه كان متسخًا وملطخًا ومتضررًا.

ـــ كارثة. كارثة حقيقية.

ـــ دعونا نفتش الخزائن التي لم تُفتح بعد، أمر العقيد قائلاً. هناك عدد قليل متبقٍ في الجزء الخلفي من المعرض. ربما سنجد بعض القطع التي لم تُمس.

اتجهوا نحو الجزء الخلفي من الغرفة حيث كانت تنتظرهم حوالي عشر خزائن مغلقة وسليمة. أخرج العقيد مجموعة مفاتيحه، وبحث عن المفتاح الصحيح، ثم فتح الخزانة الأولى.

في الداخل، ملفوفة بورق أرز رقيق مثل شبكة العنكبوت، كانت ترقد أردية البلاط الإمبراطوري محفوظة بشكل مثالي.

أخرجت بيسيير الفستان الأول بعناية فائقة. كان القماش من الحرير البري ذي الجودة الاستثنائية، بلون أصفر إمبراطوري زاهٍ بدا وكأنه يتوهج من الداخل. على الجهة الأمامية والخلفية، مطرزة بخيوط ذهبية وفضية وحريرية متعددة الألوان، ظهرت الرموز الإمبراطورية الاثني عشر: الشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والتنانين، والطيور، والمزهريات الطقسية، والأعشاب البحرية، واللهب، وحبات الأرز، والفأس، ورمز السعادة.

— هذا عمل تطريزي، قال القائد. كل حراشف التنين مطرزة. يمكنك رؤية النقوش البارزة والظلال واللمعان. مثل لوحة ثلاثية الأبعاد.

اقترب العقيد، وقد انبهر رغماً عنه.

— كم من الوقت يستغرق تطريز فستان كهذا يا كابتن؟

— سنتان على الأقل يا سيدي العقيد. لقد كرّست المطرزات في القصر حياتهن كلها لهذه المهنة. بدأن تدريبهن المهني في سن السابعة أو الثامنة. وبحلول الخامسة عشرة، كنّ قادرات على تطريز قطع بسيطة. وبحلول الخامسة والعشرين، أُسندت إليهن مهمة تطريز الأثواب الإمبراطورية. بعضهن أمضت حياتها كلها في التطريز، حتى لم تعد أعينهن قادرة على تحمل الإجهاد.

— طوال حياتهم. لتجهيز إمبراطور لن يرتدي هذا الرداء إلا مرة واحدة، في حفل مهيب.

— كان ذلك شرفًا لهن. بالنسبة لهؤلاء المطرزات، كانت المشاركة في تصميم ثوب إمبراطوري تتويجًا لمسيرة عمر من العمل. لقد كانت

طريقتهن في خدمة الإمبراطورية، والمساهمة في عظمة السلالة الحاكمة.

فتحوا الخزائن الأخرى. كل واحدة منها تحوي عجائب. أردية من التنانين ذات الخمسة مخالب، مخصصة للإمبراطور. أردية من التنانين ذات الأربعة مخالب، لأمراء الدم. معاطف بلا أكمام، مطرزة برموز مباركة. رايات موكب، طولها عدة أمتار، حيث بدت التنانين المطرزة بشكل بارز وكأنها تحلق في غيوم ذهبية.

أثار إعجابهم شيء واحد على وجه الخصوص: شاشة مكونة من اثنتي عشرة لوحة، يبلغ ارتفاع كل منها مترين وعرضها خمسين سنتيمتراً. كل لوحة مصنوعة من الحرير المشدود على إطار من خشب الورد، وعلى كل لوحة رُسم - نعم، رُسمت، لا طُرزت - مشهد من الفصول الأربعة.

في الربيع، تتفتح أزهار البرقوق. وفي الصيف، تتفتح أزهار اللوتس فوق بركة ماء. وفي الخريف، تتفتح أزهار الأقحوان تحت ضوء القمر. وفي الشتاء، تنحني أغصان الصنوبر تحت الثلج.

— مرسوم مباشرة على الحرير، قال القبطان مندهشاً. دقة ضربات الفرشاة... يبدو وكأنه عمل من أعمال شين تشو أو تانغ يين. أحد أساتذة عصر مينغ.

— هل تعتقد أن هذا العمل من إبداع رسام مشهور يا كابتن؟

— ربما يا سيدي القائد. أو ربما رسمها رسام بلاط ضاع اسمه. في الصين، العديد من الأعمال مجهولة المصدر. لم يكن الفنانون يوقعون أعمالهم دائمًا. كانوا يعتبرون العمل أهم من مبدعه.

كان العقيد يتفقد الجزء الخلفي من الشاشة.

— هناك شيء مكتوب هنا. يبدو أنها قصائد.

في الواقع، على الجانب الخلفي لكل لوحة، كُتبت قصيدة بخط أنيق.

— قصائد عن الفصول. لا شك أنها من تأليف الإمبراطور نفسه.

أمضوا الساعة التالية في اختيار المنسوجات. ثلاثون قطعة في المجموع: عشرة أردية إمبراطورية، وخمسة معاطف مطرزة، وعشرة رايات موكب، وخمس شاشات حريرية مرسومة، بما في ذلك شاشة الفصول الأربعة.

ـــ مائة وتسعون زائد ثلاثون، حسب العقيد. مائتان وعشرون. ما زلنا نفتقد ثمانين قطعة.

ـــ مقتنيات الباحث والساعات. لدينا فترة ما بعد الظهر لفحصها.

ـــ لنتناول الغداء أولاً، اقترح القائد. أنا جائع جداً. ونحن بحاجة إلى الراحة.

عادوا إلى مساكنهم حيث أعدّ طاهٍ صينيٌّ تمّ استقدامه وجبةً بسيطة: أرز، وخضراوات مقلية، وسمك مشوي. تناولوا الطعام في صمت، فقد كانوا متعبين للغاية لدرجة أنهم لم يستطيعوا الكلام.

لكنّ الأفكار نفسها كانت تدور في أذهان الجميع. سرعان ما سيحترق كل شيء. القصر، والحدائق، والأجنحة، والمعابد. سيتحوّل كل شيء إلى رماد. ولن يكونوا قد أنقذوا سوى ثلاثمائة قطعة. ثلاثمائة قطعة من بين عشرات الآلاف.

الأشياء الأكاديمية والساعات

خُصص عصر يوم 8 أكتوبر لجرد الأعمال الأخيرة. كانت غرفة مقتنيات العلماء غرفة صغيرة، لكن كل سنتيمتر مربع فيها كان مليئًا بالكنوز.

دخل المفوضون الثلاثة الغرفة وهم يشعرون ببعض الإرهاق. فقد أرهقهم يومان من الجرد المكثف. لكن كان عليهم الاستمرار، فالوقت كان عاملاً حاسماً.

ـــ تحتوي هذه الرفوف على كل ما يستخدمه العالم الصيني لممارسة الفنون: الخط، والرسم، والشعر، أوضح القبطان قائلاً. ويطلق

الصينيون على هذه الأشياء اسم "كنوز العالم الأربعة": الفرشاة، والحبر، والورق، والمحبرة.

رفع حجر حبر منحوت من كتلة صخرية أرجوانية اللون تتخللها خطوط ذهبية.

— هذا حجر دوان، وهو من محجر شهير في مقاطعة غوانغدونغ. تُعرف هذه العلامات الطبيعية في الصخر باسم "عيون الحجر". كلما زاد عدد العيون في الحجر، زادت قيمته. هذا الحجر تحديدًا يحتوي على ثمانية عيون، وهو نادر للغاية.

— ما فائدة حجر الحبر يا نقيب؟ سأل العقيد.

— يُطحن قلم الحبر بقليل من الماء. يؤدي فرك القلم على الحجر إلى إنتاج حبر سائل عالي الجودة. وبذلك، يستطيع الخطاط التحكم بدقة في درجة التخفيف والسماكة وكثافة اللون الأسود، وهو أمر ضروري للحصول على الدرجات اللونية المطلوبة.

أراهم فرش الخط، المحفوظة في علب من الخيزران المطلي. بعضها كان قديماً جداً، وقد اكتسبت مقابضها المصنوعة من الخيزران طبقةً من الصدأ نتيجة قرون من الاستخدام.

— يُقال إن هذه الفرشاة كانت ملكاً للخطاط وانغ شيجي. سلالة جين. القرن الرابع الميلادي.

— ألف وستمائة عام؟ صاح القائد.

— هذا ما تدعيه الملصقة. ربما يكون ذلك مبالغة. فالصينيون يميلون إلى نسب الأشياء إلى المشاهير. لكن هذه الفرشاة قديمة جدًا بلا شك. شعيراتها مصنوعة من ذيول ابن عرس منشوريا. إنها أجود أنواع الفرش في العالم. وعلى الرغم من مرور القرون، لا تزال شعيراتها مرنة وناعمة.

كان لامبرت يفحص مجموعة من الأختام - وهي عبارة عن كتل صغيرة محفورة من الحجر تستخدم لتوقيع الوثائق والأعمال الفنية.

ـــ هناك المئات منها. جميعها مختلفة. هذه مصنوعة من اليشم الأبيض. وتلك من العقيق الأحمر. وهذه الأخرى من العاج المنحوت.

ـــ للأختام أهمية بالغة في الثقافة الصينية يا سيدي العقيد. فالعالم غالباً ما يمتلك عشرات الأختام المختلفة. بعضها يحمل اسمه، وبعضها الآخر ألقابه، وبعضها الآخر يحمل حكماً فلسفية أو قصائد. ويختار المرء الختم الذي سيلصقه حسب المناسبة، أو مزاجه، أو الرسالة التي يرغب في إيصالها.

اكتشف القائد مجموعة من مساند الفرش المصنوعة من الخزف واليشم والبرونز. بعضها كان على شكل جبال مصغرة. والبعض الآخر يصور حيوانات - تنانين وأسود وكلاب سماوية.

ـــ حتى أكثر الأشياء نفعية هي أعمال فنية. هذه الفرشاة مصممة على شكل جبل، منحوتة من قطعة واحدة من اليشم الأخضر. أشجار الصنوبر، والشلالات، والأجنحة... كلها تُشكل منحوتة بحد ذاتها.

ـــ بالنسبة للصينيين، لا يوجد فصل بين الفن والحرفة، كرر القبطان. يجب أن يكون الشيء النفعي جميلاً. ويجب أن يكون الشيء الجميل مفيداً.

اختاروا خمسة وأربعين قطعة أثرية علمية: محابر، وفرش، ومساند فرش، وأختام، وصناديق حبر، ولفائف خط. كل قطعة كانت بمثابة خلاصة للجماليات العلمية الصينية.

ـــ مئتان وعشرون زائد خمسة وأربعون، حسب العقيد. مئتان وخمسة وستون. ما زلنا نفتقد خمسة وثلاثين عنصراً. ستسمح لنا الساعات بإكمال العدّ.

ضمت الأجنحة الغربية للقصر، التي بناها اليسوعيون في القرن الثامن عشر، مجموعة ساعات وآلات الإمبراطور تشيان لونغ. وقد مثلت هذه القطع، التي استُوردت من أوروبا بتكلفة باهظة، ذروة صناعة الساعات والميكانيكا الغربية.

عندما دخل المفوضون الثلاثة الغرفة، توقفوا فجأة في أماكنهم، وقد أذهلهم المشهد.

بدت الغرفة وكأنها ورشة عمل خيالية لصانع ساعات. عشرات الساعات من جميع الأحجام كانت مرتبة على الطاولات والرفوف والوحدات. بعضها بالكاد يبلغ ارتفاعه عشرين سنتيمتراً. والبعض الآخر ضخم الحجم، إذ يصل ارتفاعه إلى ما يقرب من ثلاثة أمتار.

لكن هذه لم تكن مجرد ساعات بسيطة. لقد كانت آلات، روائع ميكانيكية جمعت بين صناعة الساعات والنحت والرسم والموسيقى والرسوم المتحركة.

كانت أكثرها إثارة للإعجاب ساعة آلية يبلغ ارتفاعها مترين تقريباً، صنعها صانع الساعات اللندني جيمس كوكس.

كانت العلبة، المصنوعة من البرونز المذهب والمينا، تمثل جناحًا صينيًا متعدد الطوابق. في الطابق الأرضي، والتي يمكن رؤيتها من خلال النوافذ الزجاجية، كانت هناك تماثيل مصغرة: إمبراطور جالس على عرشه، وموظفون صينيون واقفون بجانبه، وموسيقيون مع آلاتهم، وراقصون متجمدون في منتصف الحركة.

— هل ما زال يعمل يا قبطان؟

— لنحاول يا سيدي العقيد.

بحث القبطان عن آلية التدوير، فوجد مفتاحًا مثبتًا في الجزء الخلفي من العلبة، فأدخله في الفتحة المخصصة، وبدأ بتدويره. اشتدت النوابض. وسُمع صوت طقطقة تعشيق التروس.

ثم فجأة، عادت الساعة إلى الحياة.

انطلقت نغمة صافية من أجراس الكاريلون الأربعة والعشرين. فُتحت أبواب الجناح. نهض الإمبراطور من عرشه وانحنى ثلاث مرات. انحنى الموظفون تباعًا. بدأ الموسيقيون بالعزف - أو بالأحرى، بتقليد العزف على آلاتهم، لأن الموسيقى كانت تصدر من الكاريلون. بدأ الراقصون بالدوران برشاقة.

لدقيقتين، دبت الحياة في المسرح الميكانيكي الصغير أمام أعينهم المذهولة. ثم، تدريجياً، تباطأت الحركات. وعادت الشخصيات إلى مواقعها الأصلية. وأُغلقت الأبواب. وساد الصمت من جديد.

ـــ على قيد الحياة، همس العقيد قائلاً. كان لدي انطباع بأنهم على قيد الحياة.

ـــ عبقرية ميكانيكية. كان جيمس كوكس أحد أعظم صانعي الساعات في عصره. تُقدّر قيمة آلاته الميكانيكية بثروات طائلة. لا بد أن هذه الساعة بالذات كلّفت ما يعادل أجر عشر سنوات لعامل إنجليزي، وربما أكثر.

نظر القائد إلى الآلية من خلال فتحة في الخلف.

ـــ هناك مئات التروس في الداخل. كيف يمكنك تصميم آلية معقدة كهذه؟

ـــ ببراعة وصبر. أمضى صانعو الساعات هؤلاء سنوات في تصميم وبناء ساعاتهم الآلية. كل قطعة صُنعت يدويًا، وضُبطت بدقة متناهية. حرفية فاخرة، حكرًا على الملوك والأباطرة.

واكتشفوا عجائب أخرى. ساعة على شكل فيل ترفع خرطومها كل ساعة وتُصدر صوتاً أشبه بالبوق - صوت واقعي بشكل غريب ينتج عن آلية هوائية مخفية داخل جسمها. وطاووس ينبسط ذيله، كاشفاً على كل ريشة قرصاً مختلفاً يشير إلى الوقت في عواصم مختلفة من العالم: لندن، باريس، روما، القسطنطينية، بكين.

ساعة تصور حديقة تغرد فيها طيور آلية، ويبدو فيها شلال فضي يتدفق، وتشرق فيها الشمس والقمر وتغرب وفقًا لوقت اليوم.

ـــ لنأخذها كلها، قرر العقيد. اثنا عشر ساعة وآلة ميكانيكية. قطع فريدة لا يمكن استبدالها. لا يوجد في المتاحف الأوروبية ما يضاهيها.

ـــ اثنا عشر، كرر القائد وهو يدون ملاحظاته. كم يصبح المجموع الآن؟

ـــ مئتان وخمسة وستون زائد اثنا عشر... مئتان وسبعة وسبعون. نحن نقترب من ثلاثمائة.

ـــ رؤوس الأبراج، ذكّرهم القبطان قائلاً. أراد الجنرال أن نضيفها إلى القائمة. الرؤوس البرونزية الاثنا عشر من نافورة هايان تانغ. وبذلك يصبح المجموع مئتين وتسعة وثمانين.

ـــ ممتاز. مع بعض العناصر الإضافية، سنصل إلى ثلاثمائة غداً صباحاً. لنذهب لرؤية الجنرال ونقدم له تقريرنا.

قرار إشعال النار

في مساء الثامن من أكتوبر، توجهوا إلى مقر الجنرال دي مونتوبان. فوجدوا الجنرال منغمساً في حديث مطول مع عدد من كبار الضباط، ولدهشتهم، مع اللورد إلجين نفسه، القائد العام للقوات البريطانية.

ـــ آه، أيها المفوضون السادة. اقتربوا، قال مونتوبان عندما رآهم يدخلون. اللورد إلجين يرغب في مقابلتكم.

التفت اللورد إلجين نحوهم.

ـــ أيها السادة، أخبرني الجنرال دي مونتوبان أنكم قمتم بجرد رائع لكنوز يوين مينغ يوين، قال بالفرنسية بلكنة إنجليزية خفيفة. أردت أن أشكركم شخصياً. سيساعد عملكم في الحفاظ على جزء على الأقل من هذا التراث.

ـــ كنا نقوم بواجبنا فقط يا سيدي، أجاب الكولونيل لامبرت.

ـــ مهمة صعبة، على ما أظن. زرت القصر بنفسي أمس. تحفة معمارية وفنية. عندما أفكر فيما سنفعله...

ترك جملته غير مكتملة، لكن الجميع فهموا. النار. الدمار. الإبادة.

تدخل مونتوبان:

ـــ أكد اللورد إلجين أن الحريق سيُقام في الثامن عشر من أكتوبر. نحتاج إلى بعض الوقت لنستريح. الرجال خارجون عن السيطرة، وقد

استبد بهم جشع النهب. إذا حاولنا كبح جماحهم، فإننا نخاطر بتمرد، بل وحتى بانتفاضة ضد الأوامر العليا. في غضون أيام قليلة، سيخف الضغط، وسنتمكن من استعادة السيطرة على الوضع. أيها السادة، أمامكم تسعة أيام لإتمام جردكم والإشراف على تغليف العناصر المختارة.

ـــ حسناً جداً يا جنرال.

تحدث اللورد إلجين مرة أخرى، وكان صوته مليئاً بالعاطفة:

ـــ أودّ أن تعلموا، أيها السادة، أن هذا القرار لا يُرضيني. كنتُ أفضل شكلاً آخر من أشكال العقاب. لكن على الإمبراطور الصيني أن يُدرك أن تعذيب وإعدام أسرانا لا يمكن أن يمرّ دون عقاب. إن يوين مينغ يوين رمزٌ لسلطته. بتدميره، نوجّه رسالةً واضحة: لن نتسامح مع أي عملٍ وحشي.

لم يستطع القائد فولد كبح جماحه:

ـــ مع كامل الاحترام يا سيدي، إن تدمير تحفة فنية لمعاقبة الوحشية... أليس هذا أيضاً من الوحشية؟

حدق الضباط الحاضرون في القائد بأعين متسعة. كيف يجرؤ على التحدث بهذه الطريقة إلى اللورد إلجين؟

لكن المفاجأة كانت أن البريطاني لم يغضب. بل على العكس، أومأ برأسه ببطء.

ـــ أنت محق يا قائد. إنه عمل همجي. همجية مُدبَّرة ومُتعمَّدة، لكنها همجية في نهاية المطاف. لكن الحرب يا سيدي همجية بطبيعتها. نحاول تهذيبها بالقواعد والأعراف والمعاهدات. في جوهرها، تبقى الحرب مواجهة عنيفة. وأحيانًا، لإنهاء العنف، لا بد من استخدام العنف.

ـــ لست متأكدًا من أنني أفهم هذا المنطق يا سيدي.

ـــ أنا لا أطلب منك أن تتبعها يا قائد، بل أطلب منك أن تطيع. أنت جندي، والجنود يطيعون.

شدّ فولد فكيه.

استدار اللورد إلجين نحو مونتوبان.

— يا سيادة الجنرال، تأكد من حصول هؤلاء الضباط الثلاثة على مكافأة لعملهم. لقد أنجزوا مهمة صعبة بكفاءة عالية.

— سيتم ذلك يا سيدي.

— حسنًا. الآن أيها السادة، إذا سمحتم لنا، لدينا بعض الخطط التي يجب وضع اللمسات الأخيرة عليها.

أدى المفوضون الثلاثة التحية وانصرفوا. وما إن خرجوا إلى الخارج، في ليلة أكتوبر الباردة، حتى انفجر القائد غضباً.

— وحشية مُتعمّدة! هل سمعتم ذلك؟ هو نفسه يعترف بأنها وحشية! ومع ذلك يفعلها!

— اهدأ، قاطع العقيد. لقد كنت محظوظاً لأنه لم يأمر باعتقالك بتهمة العصيان.

— هل تعتقلونني؟ لمجرد أنني أقول الحقيقة؟

— الحقيقة لا مكان لها في الجيش. يجب أن تعرف ذلك الآن.

عادوا إلى غرفهم في صمت.

خُصصت الأيام التالية، من 9 إلى 16 أكتوبر، للتنظيم الدقيق لعملية إجلاء الكنوز المختارة. أشرف المفوضون الثلاثة على تغليف القطع الأكثر هشاشة، ونسقوا ترتيبات النقل إلى تيانجين مع هيئة الأركان العامة، ووضعوا قوائم مفصلة لتتبع الصناديق. في غضون ذلك، استمر النهب على نطاق واسع في أرجاء القصر. واصل الجنود نهب الأجنحة، واستولوا على كل ما هو ثمين ودمروا ما لم يتمكنوا من حمله.

كان مونتوبان واللورد إلجين يضعان اللمسات الأخيرة على خططهما لتدمير قصر يوين مينغ يوين تدميراً كاملاً. وقد اتُخذ القرار: سيُحرق القصر. ستكون هذه هي العقوبة التي تُنزل بالإمبراطور على إساءة معاملته للسجناء الغربيين.

اليوم الأخير

في السابع عشر من أكتوبر، أمضوا اليوم في ضمان نقل الأصناف الثلاثمائة المختارة.

كان عملاً دقيقاً يتطلب اهتماماً مستمراً. وفي عدة مناسبات، اضطر العقيد للتدخل عندما تعامل أحد الجنود مع قطعة ما بخشونة.

— برفق! صرخ قائلاً. هذه المزهرية عمرها ثمانمائة عام! إذا كسرتها، ستكون قد دمرت ثمانية قرون من التاريخ!

في نهاية اليوم، كانت جميع الصناديق جاهزة. تم تحميلها على عربات ستنقلها إلى ميناء تيانجين، ثم على سفن ستعيدها إلى أوروبا.

في ذلك المساء، وقد أنهكهم التعب، التقوا للمرة الأخيرة في قاعة العرش، التي أصبحت الآن خالية. كانت الرفوف قد نُهبت، وخزائن العرض قد حُطمت، والأرضية مليئة بالحطام.

— تم إنقاذ ثلاثمائة قطعة، همس العقيد قائلاً. من كم قطعة؟ مئة ألف؟ مئتا ألف؟

— لن نعرف أبدًا. لكن نعم، لم ننقذ سوى جزء ضئيل. أما الباقي...

— أما الباقي فسيحترق غداً.

التزموا الصمت، وهم يتأملون الغرفة التي ستتحول قريباً إلى رماد.

— أتدرون ما يُحزنني أكثر؟ قال القائد. ليس ما لم نأخذه، بل ما لن نعرفه أبدًا. كل العجائب المخبأة في أجزاء القصر التي لم نستكشفها. كل الروائع التي لا نعلم حتى بوجودها. كل شيء سيحترق. كل شيء سيختفي. ولن يعرف أحد أبدًا ما فُقد.

— سيعرف التاريخ ذلك. سيكتب المؤرخون عن نهب قصر يوين مينغ يوين. سيقولون إنها كانت واحدة من أعظم الجرائم الثقافية التي ارتُكبت على الإطلاق. وسنُصوَّر نحن على أننا المذنبون.

— نحن المذنبون. دعونا لا نحاول الاختباء وراء الأوامر أو الضرورة العسكرية. نحن متواطئون في هذه الجريمة.

ـــ أعلم، اعترف العقيد. أعلم.

غادروا القصر عند حلول الظلام. وخلفهم، بدت المباني شامخة في الظلام، محكوم عليها بالفناء. غداً، لن يكون هناك سوى الرماد والخراب.

الحريق، 18 أكتوبر 1860

في الساعة العاشرة من صباح يوم 18 أكتوبر، تم إشعال النيران الأولى. بدأ الجنود البريطانيون، بأوامر من اللورد إلجين، بإشعال النار في المباني.

أُجبر الضباط الثلاثة، مثل جميع الضباط الفرنسيين والبريطانيين، على مشاهدة هذا المشهد. وقفوا على تل قريب، حيث كان بإمكانهم رؤية القصر بالكامل.

كانت المباني الأولى التي احترقت هي الأجنحة المصنوعة من خشب الأرز. اشتعل الخشب الجاف، الذي يعود عمره إلى عدة قرون، على الفور. وفي غضون دقائق، ارتفعت ألسنة اللهب إلى ارتفاع عشرين متراً في السماء.

ـــ كم هي سريعة الاحتراق! همس القائد.

انتشر الحريق من مبنى إلى آخر، حاملاً إياه الرياح. انفجرت أسطح القرميد المزجج بفعل الحرارة، متناثرةً شظايا ملونة في كل الاتجاهات. احترقت الأعمدة الخشبية المطلية وانهارت. اختفت منحوتات التنانين والعنقاء في ألسنة اللهب.

تصاعد الدخان في أعمدة سوداء كثيفة، فغطى السماء بظلام دامس. وانتشرت رائحة الخشب المحترق في الهواء، فخنقت الأجواء.

جلس القائد على الأرض، ووضع رأسه بين يديه.

ـــ نحن غير إنسانيين. ندمر ما لا نستطيع فهمه، ما لا نستطيع مجاراته. نحرق الجمال لأنه يخجلنا.

لم ينطق العقيد، الذي كان يقف بجانبه، بأي كلمة.

أما القبطان، فقد حدق في النار بثبات، كما لو كان مسحوراً. كان وجهه خالياً من التعابير، لكن عينيه كانتا تلمعان بضوء غريب - ربما كان انعكاساً للهب، وربما كانت دموعاً رفض أن تسقط.

الفصل الثالث ـ الشهود الصامتون

ليلة 17-18 أكتوبر 1860، القصر الصيفي، منتصف الليل

كان آن ديهاي يبلغ من العمر ثلاثة وخمسين عامًا. لقد كرس واحدًا وأربعين عامًا من حياته لخدمة القصر، منذ اليوم الذي باعته فيه عائلته في سن الثانية عشرة ليتم خصيه ودمجه في صفوف الخصيان الإمبراطوريين.

ما زال يتذكر الألم. ليس الألم الجسدي؛ لحسن الحظ، محت الذاكرة ذلك، ولم تترك سوى أثر باهت، كطرف مبتور يستمر في التسبب بالألم حتى بعد زواله. لكن ألم الإذلال ظلّ راسخًا، متبلورًا في ذهنه كحشرة محبوسة في الكهرمان. رأى مجددًا وجه أمه، وهي تُشيح بنظرها حين أخذوه بعيدًا. ورأى والده يعدّ العملات الفضية. وشقيقيه الأكبر سنًا، عاجزين عن النظر إليه. والرجل العجوز ذو السكين، بيديه الخشنتين ورائحة الزنجبيل ونبيذ الأرز، الذي همس له: "لا تصرخ. الخصيان لا يصرخون أبدًا. هذا هو الدرس الأول."

لم يصرخ. لا في ذلك اليوم. ولا في الأيام التي تلته، حين كادت الحمى أن تودي بحياته. ولا خلال أسابيع النقاهة الطويلة، حبيساً في غرفة مظلمة تفوح منها رائحة الأعشاب الطبية والمرض. لقد تعلم أن يكبت ألمه، وأن يحوله إلى شيء آخر، إلى عزيمة، وإلى سعي نحو الكمال، وإلى إحساس بالواجب مطلق حتى بات شبه مقدس.

قالوا له: "إن خدمة الإمبراطور شرف، وفرصة للهروب من الفقر".

ولأربعة عقود، آمن بهذا الشرف. ارتقى في المناصب، فتعلم أولًا تقديم الشاي دون إحداث ضوضاء في الخزف، ثم المشي دون حفيف الحرير، ثم الإصغاء دون سماع، والرؤية دون النظر، ليصبح غير مرئي مع بقائه لا غنى عنه. في العشرين من عمره، كان يحضر بالفعل المقابلات الإمبراطورية، واقفًا في الظل، ممسكًا بالوثائق التي قد يحتاجها الإمبراطور. في الثلاثين، أُسندت إليه مهام حساسة : نقل الرسائل

السرية، والإشراف على المعاملات السرية. في الأربعين، أصبح مسؤولًا عن جرد المقتنيات الإمبراطورية.

كل مزهرية، كل قطعة من اليشم، كل لفافة خط في القصر الصيفي - كان يحفظها عن ظهر قلب. كان بإمكانه أن يسرد عن ظهر قلب تاريخ آلاف القطع، وأصولها، ومعانيها. تذكر اليوم الذي اقتنى فيه الإمبراطور داوغوانغ ستارة مطلية بالورنيش مرصعة بالصدف، تحفة فنية من عهد أسرة سونغ. أمضى ثلاثة أيام يتفحصها، مدوّنًا كل تفصيل: زخارف الكركي، والجبال المرسومة بأسلوب فني، وتوقيع الحرفي شبه الخفي في إحدى الزوايا. روت هذه الستارة قصة ثمانية قرون من التاريخ. كانت ملكًا لأحد أباطرة سونغ، ونجت من الغزو المغولي مخبأة في دير، وأعيد اكتشافها خلال عهد أسرة مينغ، ثم جُدّدت في عهد أسرة تشينغ.

كل هذا كان سيختفي.

انتابته الفكرة على شكل موجات، كغثيان متزايد لم يستطع كبحه. واحد وأربعون عامًا من حياته. ثمانية قرون من التاريخ. سلالات بأكملها تبلورت في أشياء كانت على وشك أن تُسرق وتُحطم وتُحرق على يد رجال لم يعرفوا حتى أسماءهم.

فكّ رباط سجادته الضيقة وعدّل رداءه الحريري الأزرق، ذلك الذي ارتداه لعشر سنوات وأصلحه بعناية مرات لا تُحصى. كان القماش مهترئًا، لكنه نظيف، وآثار الإصلاحات شبه غير مرئية - مصدر فخر له، حتى الآن، رغم أنه على وشك الانهيار. كانت مسكنه متواضعة: غرفة مساحتها ثمانية أمتار مربعة، يعرف فيها كل شق في السقف، وكل أخدود في ألواح الأرضية الخشبية. طاولة منخفضة يتناول عليها وجباته وحيدًا. صندوق يحوي ممتلكاته القليلة: ثلاثة أردية احتياطية، ومجموعة خط، وكتاب شعر من عهد أسرة تانغ أهداه إياه معلمه الأول، ورسالة من والدته لم يجرؤ قط على فتحها. لا شيء فاخر، رغم مكانته الرفيعة نسبيًا بين الخصيان.

خرج إلى الممر. كان الظلام دامسًا تقريبًا. بالكاد استطاعت عيناه، المعتادتان على عتمة القصر، تمييز معالم الجدران. عادةً ما كانت الفوانيس تُضاء طوال الليل على طول الممرات، ويخلق ضوؤها الخافت ظلالًا راقصة على الألواح الخشبية المطلية. لكن في هذه الليلة، كانت معظمها مطفأة. ادعى الخدم أنهم يوفرون الزيت. في الواقع، كان الجميع يعلم أن الخدم يفرون، ويأخذون ما استطاعوا، بما في ذلك الفوانيس.

كان الصمت خانقًا. أصغى آن ديهاي باهتمام، باحثًا عن الأصوات المألوفة التي كانت تُضفي على ليالي القصر رونقًا خاصًا: حفيف أثواب الحرير أثناء قيام حراس الليل بجولاتهم، وخرير الماء البعيد في البرك، وصرير الخشب العتيق وهو ينكمش في برد الليل، وأحيانًا صياح طاووس في الحدائق. لكن هذه الليلة، لا شيء. وكأن القصر نفسه يحبس أنفاسه.

دوى صوت متوتر في الظلام، مما جعله يقفز.

— من يذهب إلى هناك؟

— أنا آن ديهاي.

برزت شخصية من الظلال. كان لي ليانيينغ، خصيٌّ تبناه آن ديهاي قبل ثلاث سنوات. كان الفتى ذكيًا، سريع البديهة، قادرًا على حفظ قائمة كاملة في غضون أسابيع بينما يستغرق الأمر من الآخرين شهورًا. رأى فيه نسخةً أصغر من نفسه، بنفس الحماس، ونفس الحاجة المُلِحّة لإثبات جدارته في عالمٍ يعتبرهم أقل من البشر.

كان يرتجف بشدة. وفي الضوء الخافت، استطاع آن ديهاي أن يرى أن عينيه حمراوان ومنتفختان من الدموع.

— يا سيد آن، ألا تستطيع النوم أيضاً؟

— لا، لديّ الكثير من الأفكار. هيا بنا نتمشى قليلاً.

اتجهوا نحو المخرج الشرقي لمساكن الخدم. وضع آن ديهاي يده على كتف لي ليانيينغ، وشعر بتوتر عضلاته وتيبس جسده برعب. تذكر

عامه الأول في القصر، والخوف الدائم من ارتكاب خطأ، ومن التعرض للضرب، والطرد، والعودة إلى بؤس أسوأ من الذي أتى منه. تذكر سيده، الخصي العجوز ما ديكوان، الذي أرشده بنفس الصبر الذي يُظهره الآن للي ليانييِنغ. توفي ما ديكوان قبل عشرين عامًا، لكن آن ديهاي ما زال يسمع صوته: "لسنا ما صنعونا عليه. نحن ما نختار أن نكونه رغم كل شيء."

في الخارج، كانت الليلة صافية بشكلٍ لافت. غمر القمر شبه المكتمل الحدائق بضوء فضي حوّل المشهد المألوف إلى شيءٍ خيالي، أشبه بالحلم. برزت الأجنحة كظلال سوداء على خلفية السماء المرصعة بالنجوم. عكست بحيرة فوهي القمر كمرآة عملاقة. امتدت أغصان الأشجار العتيقة - بعضها زُرع قبل ثلاثة قرون - متشابكة نحو السماء. بدا كل شيء هادئًا، وكأنه متجمد في لحظة أبدية.

توقف آن ديهاي، وقد أسره جمال اللحظة. كيف يمكن للعالم أن يكون بهذا الجمال عشية فنائه؟ تذكر شعراء أسرة تانغ الذين احتفوا بالطبيعة تحديدًا لأنها زائلة. أزهار الكرز لا تكتمل جمالها إلا بسقوطها. والقمر لا يؤثر فينا إلا بتناقصه. لكن الأمر هنا مختلف. الطبيعة تولد من جديد. ما كان على وشك الدمار هنا لن يعود أبدًا.

انظروا كم هو جميل. كيف لهم أن يرغبوا في تدمير شيء بهذه الروعة؟

جلس آن ديهاي على مقعد حجري قرب بركة تسبح فيها أسماك الكوي بكسل. تذكر اليوم الذي أُدخلت فيه هذه الأسماك، قبل خمسة عشر عامًا. كانت حينها صغيرة جدًا. أما الآن، فقد بلغ طول بعضها مترًا تقريبًا، وتتألق قشورها البرتقالية والبيضاء في الماء الداكن. شرح له أحد البستانيين أنها قد تعيش مئة عام، لكنها لن تبلغ العشرين.

جلس لي ليانييِنغ بجانبه، وضم ركبتيه إلى صدره كطفل يبحث عن الراحة. حدق آن ديهاي في الشاب لبرهة طويلة قبل أن يتكلم، منتقياً كلماته بعناية.

— الجمال لا يعني شيئًا لمن لا يفهمه. بالنسبة لهؤلاء الغربيين البسطاء، لا قيمة إلا للذهب. القوة. الهيمنة. ينظرون إلى مزهرية من

عهد أسرة مينغ فلا يرون إلا الفضة. ينظرون إلى خط أسرة سونغ فلا يرون إلا الورق. لا يرون القرون، ولا الأيدي التي أبدعت، ولا العيون التي أعجبت.

دوّت خطوات متسارعة خلفهم، مُبددةً لحظة الهدوء. ظهر ثلاثة خصيان آخرين، يلهثون من الخوف. تعرّف آن ديهاي على وانغ تشانغوي، المشرف على المطابخ الإمبراطورية، برفقة شابين، سون ياوتينغ وتسوي يوغوي. كان وجه وانغ تشانغوي مُحمرًا من الإرهاق، وتصبب العرق على جبينه رغم برودة هواء الليل. كانت عينا سون ياوتينغ واسعتين كعيون حيوان مُطارَد. أما تسوي يوغوي، الذي عادةً ما يكون قليل الكلام، فقد أطلق أناتٍ خافتة لا يمكن السيطرة عليها.

— يا سيد آن! ما زلت هنا! ظننت أن جميع كبار الخصيان قد غادروا مع الإمبراطورة الأرملة!

راقبهم آن ديهاي للحظة، هؤلاء الرجال المرعوبون يتشبثون به كما لو كانوا متشبثين بطوق نجاة. تذكر كل تلك اللحظات في حياته التي اضطر فيها إلى أن يكون قوياً من أجل الآخرين.

— لم يتم استدعائي للإخلاء. لقد صدرت لي أوامر بالبقاء لحماية المقتنيات.

حماية المقتنيات. بأي شيء؟ بيديه العاريتين في مواجهة آلاف الجنود المسلحين؟ كانت مهمة مستحيلة، والجميع يعلم ذلك. لقد أصدر الإمبراطور له أمرًا كان في الواقع بمثابة تخلي عن المسؤولية.

هز وانغ تشانغوي رأسه.

— المطابخ. لقد طُلب مني أن أبقيها جاهزة للعمل في حال غيّر الإمبراطور رأيه وعاد.

انهار الشاب سون ياوتينغ على المقعد، يجهش بالبكاء. كانت كتفاه النحيلتان ترتجفان بشدة، ووجهه مدفون بين يديه. وبين شهقاته، تمتم بكلماتٍ بالكاد تُفهم. اقترب آن ديهاي ووضع يده برفق على رأسه، كما

لو كان مع ابنه - الابن الذي لن يرزق به. بدت اللمسة وكأنها خففت من حدة بكائه قليلاً.

فكّر في أمه. هل ما زالت على قيد الحياة؟ تركها في الثانية عشرة من عمره ولم يرها ثانيةً. لم يكن يُسمح للخصيان بالعودة إلى عائلاتهم، فهم ملكٌ للقصر جسدًا وروحًا. هل ماتت وهي تتساءل عمّا حلّ به؟ هل ندمت على بيعه؟ أم كان ذلك راحةً، فمٌ أقلّ لإطعامه؟

ـــ اهدأ يا ياوتينغ. من المحتمل أن والدتك بأمان الآن. الناس من بكين يفرون إلى الداخل. لا بد أنها غادرت مع الآخرين.

لم يكن يعلم إن كان ذلك صحيحاً، لكن الكذبة المريحة كانت أحياناً الشكل الوحيد الممكن للتعاطف.

جلس الرجال الستة هناك حتى الفجر في الحديقة المقمرة التي ستزول قريبًا. تحدثوا بصوت خافت، يتبادلون شذرات من حياتهم كما لو كانوا يتناولون وجبة أخيرة. روى وانغ تشانغوي كيف تعلم الطبخ من والده، الذي تعلمه بدوره من والده، في سلالة من الطهاة الإمبراطوريين تمتد لخمسة أجيال. تحدث سون ياوتينغ عن والدته، الأرملة التي باعت كل ما تملك لتربيه وحدها. كشف تسوي يوغوي أنه كان يؤلف قصائد سرًا، أبياتًا لم يُطلع عليها أحدًا قط.

استمع آن ديهاي إليهم، وحفر كل تفصيل في ذاكرته. هذه الأرواح، مهما كانت متواضعة، تستحق أن تُحفظ. إذا اختفى القصر، فعلى الأقل لن يُنسى الرجال الذين خدموه.

مع بزوغ فجر جديد، سمعوا صوتاً غريباً: صيحات، وأوامر تُنطق بلغة أجنبية، ووقع آلاف الأحذية على ممرات الحديقة المعبدة. كان الصوت لا يزال بعيداً، لكنه يقترب بثبات، كمدّ متصاعد.

وصل الجنود، الذين كانوا قد وصلوا إلى المباني الأولى للقصر ونهبوه لعدة أيام، إلى الجناح الذي لجأوا إليه، حيث لم يبدأ الحريق ولا النهب بعد. كان القصر ضخمًا للغاية، لذا لم يكن اقتحامه ممكنًا إلا تدريجيًا، مبنىً تلو الآخر، وجناحًا تلو الآخر. تدميرٌ منهجيٌّ ودقيق.

نهض آن ديهاي. تذكر كل الصباحات التي استيقظ فيها في نفس الوقت ليبدأ يوم عمله. طقوس الصباح: الماء لغسل وجهه، والشاي الأخضر الذي أعده بعناية، والروب الذي عدّله بدقة. ثم يمشي عبر الممرات الصامتة إلى مكتبه، حيث تنتظره السجلات التي يجب تحديثها، والأشياء التي يجب فهرستها، والتقارير التي يجب كتابتها. حياة منتظمة كالساعة، يمكن التنبؤ بها، وآمنة.

انتهى كل ذلك. ومع شروق الشمس جاء المجهول.

19 أكتوبر 1860، القصر الصيفي، الساعة السادسة صباحاً

أول جندي فرنسي رآه آن ديهاي شابًا أشقر الشعر أزرق العينين، يحمل بندقيةً ذات حربة على كتفه. كان يمسح محيطه بنظراته باستمرار وكأنه يتوقع كمينًا. كانت بزته الزرقاء متسخةً بالفعل، ملطخةً بالعرق والغبار. تساءل آن ديهاي إن كانت له أمٌّ في مكانٍ ما في فرنسا تدعو لعودته.

آن ديهاي وأصدقاؤه خلف جدار، يراقبون القوات وهي تقتحم الحديقة. كان مشهدًا سرياليًا: مئات، بل ربما آلاف، من الجنود بزيّهم الأزرق والأحمر يتدفقون كالسيل الجارف إلى الحدائق المنسقة. كانوا يصرخون ويضحكون ويشيرون بحماس إلى المباني. أطلق بعضهم النار في الهواء كالأطفال المتحمسين. وتدافع آخرون ليكونوا أول من يدخل الأجنحة.

راقب آن ديهاي المشهد بنوع من الانفصال، كما لو كان يشاهد كابوسًا يتكشف أمامه، عاجزًا عن الاستيقاظ. لم يكن هؤلاء الرجال يشبهون الشياطين التي تخيلها. كانوا يبدون... كرجال عاديين. رجال عاديون، بعيدون عن ديارهم، أثارهم جنون النهب. بطريقة ما، جعلهم ذلك أكثر رعبًا. شرٌّ مبتذل، يكاد يكون مبتهجًا.

قبض وانغ تشانغوي على قبضتيه حتى ابيضت مفاصل أصابعه.

— انظر إليهم. إنهم لا يفهمون حتى ما يدنسونه. بالنسبة لهم، إنه مجرد... غنيمة.

ـــ الصمت. قد يسمعوننا.

لكن الوقت كان قد فات. فقد عثرت فرقة من خمسة جنود، بقيادة ملازم، على مخبئهم. بدأت النيران تنتشر إلى أجزاء من القصر، وتصاعد الدخان في الأفق، لكن النهب استمر دون هوادة. صرخ الضابط بكلمات غير مفهومة وصوّب مسدسه نحوهم. لمع فوهة المسدس في ضوء الشمس المشرقة، ورسمت دائرة سوداء صغيرة تنذر بالموت.

شعر آن ديهاي بدقات قلبه تتسارع بشدة. لقد حانت اللحظة الحاسمة. الحياة أو الموت. أخذ نفسًا عميقًا، محاولًا تهدئة ارتعاش يديه. تذكر كل المرات التي نجا فيها بتقليل شأنه، بإذلال نفسه، بقبول الإذلال ليحافظ على حياته.

خرج الخصيان الستة من مخبئهم رافعين أذرعهم. تقدم آن ديهاي أولاً، محاولاً الظهور بمظهر غير مُهدِّد قدر الإمكان. خفض عينيه في خضوع. لا تتحدى أبداً. لا تستفز أبداً. البقاء أولاً.

تفحّصهم الملازم الفرنسي من رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم بنظرةٍ ممزوجةٍ بالفضول والازدراء. تأمّل في أثوابهم الحريرية، وشعرهم المرفوع على شكل كعكات، ووجوههم الخالية من اللحى. قال شيئًا بلغته، تعليقًا أضحك رجاله.

فكّر آن ديهاي بسرعة. لقد تعلّم الإنجليزية من مُبشّر بريطاني عمل لفترة وجيزة في القصر قبل عشر سنوات. كان يُتقن اللغة. ربما يفهم الضابط الإنجليزية؟ كانت تلك فرصتهم الوحيدة.

ـــ نحن خدام القصر.

عبس الملازم، ثم بدا وكأنه فهم. قال شيئًا لرجاله، الذين أنزلوا أسلحتهم. ثم أشار الضابط بإشارة آمرة نحو الجنوب، مصحوبة بكلمة بدت وكأنها أمر.

لكن ما إن همّوا بالابتعاد، حتى تعثّر سون ياوتينغ وسقط. كان الخصي الشاب مرعوبًا لدرجة أن ساقيه خانتاه. وبينما كان يسقط، انزلق

صندوق من اليشم من كمّه وتدحرج على الحجارة المرصوفة مُصدرًا صوتًا موسيقيًا.

بدا الزمن وكأنه توقف. راقب آن ديهاي المشهد وهو يتكشف ببطء شديد. الصندوق يتدحرج. عينا الملازم مثبتتان عليه. تحوّل تعبير وجهه من اللامبالاة إلى الجشع.

تغير الجو فجأة. صرخ الضابط بشيء ما، فأشهر الجنود أسلحتهم مجدداً. اندفع أحدهم، عملاق ذو وجه مشوه بالجدري، نحو سون ياوتينغ، وأمسكه من ياقته، ورفعه عن الأرض بيد واحدة.

أطلق الخصي الشاب صرخة رعب. دقّت قدماه في الهواء، وقبضت يداه على ذراع الجندي. تقدّم آن ديهاي خطوة إلى الأمام، لكن لي ليانييينغ منعه من التقدم.

صفع الجندي الخصي الشاب بقوة. دوى صوت صفعة يده على خده كصوت طلقة نارية. ثم التقط صندوق اليشم، وقلبه ليقدر وزنه، ووضعه في جيبه بحركة توحي بالتملك.

أصدر الضابط أمرًا صارخًا. فتش الجنود كل خصي، وانتزعوا كل ما بدا ذا قيمة. كانت أيديهم قاسية لا مبالية. أخذوا ساعة فضية ورثها وانغ تشانغوي عن أبيه، وخاتمًا نحاسيًا كان يرتديه تسوي يوغوي، وحتى النقود القليلة التي كانت بحوزتهم. شعر آن ديهاي بأيدٍ تفتش جيوبه، وتتحسس رداءه. صودرت فرشاة من الخيزران كان يحملها دائمًا - شيء لا قيمة له عند الجنود، ولكنه ثمين بالنسبة له.

بعد انتهاء الأمر، أشار الملازم إليهم بازدراء، كما لو كانوا كلابًا ضالة تُطرد. بل إنه بصق على الأرض عند أقدامهم.

ساعد آن ديهاي سون ياوتينغ على الوقوف. كان وجه الصبي متورماً حيث ضربه الجندي، وقد تحول لونه إلى اللون الأرجواني، وكان الدم يسيل من أنفه، مشكلاً خطاً أحمر على ذقنه.

— هيا يا ياوتينغ، اتكئ عليّ.

ابتعدوا بأقصى سرعة ممكنة دون أن يركضوا. فالركض كان سيبدو كالفرار، وربما كان سيثير غريزة الصيد لدى الجنود. خلفهم، كانوا يسمعون أصوات الدمار: نوافذ تتحطم بصوت ارتطام مدوٍّ، وأبواب تُفتح بالقوة بأعقاب البنادق، وصيحات فرح حين اكتشف الجنود كنوزًا داخل الأجنحة. وفوق كل ذلك، ضحكات - ضحكات جماعية، ثملة من فرط السلطة والتحرر.

ضغط آن ديهاي على أسنانه بشدة حتى آلمه فكه. كل خطوة كانت تبعده أكثر عن حياته، عن هويته، عن كل ما كان يمنح وجوده معنى. لكنه استمر في السير، يدعم سون ياوتينغ، ويرشد الآخرين. البقاء. هذا كل ما يهم الآن.

عندما اقتربوا من مساكن الخدم، وجدوا أن الفوضى قد عمت المكان. كان العشرات يركضون في كل اتجاه، بعضهم يحاول الفرار بحزم من الملابس والطعام، وآخرون في حالة ذعر لا هدف لهم. تعالت الصيحات والبكاء، وصرخات يائسة. جلست امرأة مسنة على الأرض، تهز رأسها جيئة وذهابًا، تردد اسمًا بلا انقطاع - ربما اسم ابنها أو زوجها. حارسان يرتديان الزي الإمبراطوري، لكنهما غير مسلحين، كانا متكئين على جدار، وعيناهما خاليتان من أي تعبير. طفل - لا بد أنه كان في السابعة أو الثامنة من عمره، أحد أبناء الخدم الكثيرين الذين يعيشون في القصر - كان يركض في دوائر، ينادي أمه.

— ديهاي!

ارتفع صوت مألوف فوق الضجيج. كانت السيدة ليو، إحدى وصيفات الإمبراطورة. لطالما احترمها آن ديهاي. كانت تتمتع بكبرياء نادر وذكاء حاد، بل وتعامل الخصيان بلطف - وهي صفة نادرة بين سيدات البلاط. كانت صغيرة الحجم ونحيلة، بشعر رمادي مصفف بعناية وعيون ثاقبة تبدو وكأنها ترى كل شيء.

شقت طريقها عبر الحشد وأمسكت بذراع آن ديهاي.

— الحمد لله! ظننت أنك غادرت مع الإمبراطورة!

— لا، لقد أُمرت بالبقاء. سيدتي ليو، أين ابنتك؟

تغيرت ملامح وجه السيدة ليو. ارتجفت شفتاها وامتلأت عيناها بالدموع التي حاولت عبثاً كبحها.

— مي فنغ؟ إنها تعمل في جناح الانسجام. حاولتُ الذهاب إلى هناك، لكن الجنود منتشرون في كل مكان... إنها في التاسعة عشرة من عمرها فقط يا آن ديهاي. تسعة عشر عامًا فقط.

كان جناح الانسجام يقع في المنطقة التي هوجمت أولاً. إذا كانت مي فنغ لا تزال هناك...

— سنجدها. أعدك بذلك.

قامت السيدة ليو بمسح محيطها بنظراتها، محاولةً إجراء إحصاء وسط الفوضى المحيطة.

— ربما خمسون أو ستون شخصًا؟ غادر كثيرون خلال الليل. أما الباقون فإما أنهم كبار في السن ولا يستطيعون السفر، أو أنهم يخشون قطاع الطرق. ولا يزال بعضهم يأمل في عودة الإمبراطور لإنقاذهم.

نطقت بهذه الكلمات الأخيرة بمرارة أثارت دهشة آن ديهاي. لطالما كانت السيدة ليو من أشد الموالين للإمبراطورية.

— اجمعهم جميعاً. أخبرهم أن يجتمعوا في الفناء الرئيسي لمساكن الخدم بعد ساعة. علينا أن نناقش ما سنفعله.

بعد ساعة، تجمع حوالي ثمانين شخصًا في الفناء. لقد كانت مجموعة متنوعة: خصيان من جميع الأعمار، وسيدات مرافقات، وطهاة بمآزر ملطخة، وبستانيون بأيدٍ خشنة، وعدد قليل من الحراس غير المسلحين الذين فروا، لكنهم بقوا في الجوار، خجلين من جبنهم، لكنهم غير قادرين على المغادرة تمامًا.

راقبهم آن ديهاي. جميعهم الآن يتشاركون نفس التعبير: الخوف، وعدم الفهم، والأمل اليائس في أن يخبرهم أحدهم، أي شخص، بما يجب عليهم فعله.

رفع يديه طالباً الصمت. توقفت المحادثات تدريجياً، وحل محلها انتظار متوتر.

ـــ أصدقائي...

انقطع صوته. سعل، ثم حاول مرة أخرى.

ـــ أصدقائي، إننا نعيش لحظة عصيبة في تاريخنا. القصر الصيفي، هذا المكان الذي خدمناه واعتززنا به، غُزيَ بجيوش أجنبية. فرّ الإمبراطور. فرّت الإمبراطورة الأرملة. لقد تُركنا وحدنا.

انتشرت همهمة بين الحشد. أومأ البعض برؤوسهم، بينما ترك آخرون دموعاً صامتة تنهمر.

ـــ لكننا لسنا عاجزين. لدينا خيارات يجب اتخاذها. الخيار الأول: البقاء أو الرحيل.

وعلى الفور، ارتفعت الأصوات، مما أدى إلى خلق ضجيج من الخوف والارتباك.

رفع آن ديهاي يديه مرة أخرى، منتظراً الهدوء.

ـــ إلى أين تهربون؟ بكين محاصرة. يسيطر البرابرة على جميع الطرق الرئيسية. الطرق الخلفية تعج باللصوص. كثير منكم لديه عائلات هنا، في القرى المحيطة. إذا غادرتم الآن، وسط هذه الفوضى، فقد لا ترونهم مرة أخرى.

قاطعه بستاني عجوز يُدعى وانغ دانيو. كان الرجل ذا وجه أسمر من الشمس، ويدين متيبستين كجذور الأشجار، ونظرة توحي بأنه رأى الكثير.

ـــ هل تريدون منا أن نساعدهم في سرقة تراثنا؟ أن نقف مكتوفي الأيدي بينما يستولون على كنوز كانت ملكاً للصين لقرون؟

نزل آن ديهاي من المنصة وسار مباشرة نحو وانغ دانيو. أراد أن يكون هذا الحوار حميمًا ومحترمًا، لا نقاشًا عامًا.

ـــ وانغ دانيو، لقد كرست حياتك لإنشاء حدائق هذا القصر. أتذكر عندما غرست بستان البرقوق قرب جناح الانسجام. منذ كم سنة كان ذلك؟ خمسة وعشرون؟ ثلاثون؟

ـــ ثمانية وعشرون عاماً، أجاب الرجل العجوز بصوت أجش من شدة الانفعال.

ـــ عمرك ثمانية وعشرون عامًا. أخبرني، لو جاء أحدهم ودمر هذا البستان الآن، هل تفضل الموت وأنت تحاول منعه، أم البقاء على قيد الحياة لعلك في يوم من الأيام تعيد زراعة أشجار البرقوق في مكان آخر؟ لتنقل معرفتك إلى البستانيين الآخرين؟ حتى لا يموت الفن مع الأشجار؟

قبض البستاني على قبضتيه، لكن آن ديهاي استطاع أن يرى الدموع التي كادت أن تنهمر.

التفت آن ديهاي إلى الحشد المجتمع، ورفع صوته حتى يتمكن الجميع من سماعه.

ـــ أقترح هذا. من يرغب بالمغادرة فليغادر. لن أمنعكم ولن أحكم عليكم. إنه خيار مشروع، بل ربما الخيار الأمثل. أما نحن الذين سنبقى، فعلينا أن ننظم أنفسنا. أولًا، علينا الاختباء في أماكن لا يعلم بها الجيش - أقبية، أنفاق، مبانٍ ثانوية ليس لديهم سبب لتفتيشها. ثانيًا، علينا محاولة إنقاذ ما نستطيع - ليس الغرف الرئيسية بالطبع، ولكن ربما وثائق، كتب، أشياء يمكننا إخفاؤها أو أخذها معنا. ثالثًا، والأهم، علينا أن نتذكر. دوّنوا كل ما يحدث، حتى يعرف أحفادنا الحقيقة.

أومأ وانغ دانيو ببطء، كما لو كان يتخذ قراراً جاداً.

ـــ حسنًا. سأبقى. لا بدّ لأحد أن يشهد. ستحترق أشجاري، لكن على الأقل ستبقى ذكراها خالدة.

ارتفعت أصوات أخرى، واحدة تلو الأخرى، لتشكل جوقة مترددة لكنها مصممة. وفي النهاية، قرر حوالي خمسة وعشرين شخصًا البقاء.

وبينما بدأوا بالتفرق إلى مجموعات منظمة، اقتربت خادمة شابة بخجل. كان اسمها مي لين وكانت تعمل في مساكن المحظيات.

ـــ يا سيد آن، لديّ ما أقوله لك. الليلة الماضية رأيت بعض الجنود...

توقفت، والدموع تملأ عينيها. لم يعد صوتها الآن سوى همس مرتجف.

ـــ أمسكوا بثلاثة من أصدقائي. صرخوا، لكن... لكن لم يأتِ أحد. لم يستطع أحد المجيء. والجنود، هم... هم...

لم تستطع المواصلة، فانهارت في بكاء شديد. وضع آن ديهاي يده برفق على ذراعها.

ـــ أعلم يا مي لين، أعلم. لهذا السبب علينا أن نبقى معًا، وأن نختبئ قدر الإمكان. إذا بقيتِ مع مجموعة السيدة ليو، ستكونين أكثر أمانًا.

أومأت مي لين برأسها، وهي تمسح دموعها بحركة غاضبة. رأى آن ديهاي في عينيها شيئًا لم يكن مجرد خوف، بل كان هناك غضب أيضًا. غضب بارد ومُتحكم فيه، سيُبقيها صامدة بينما ينهار الآخرون.

ـــ شكرًا لك يا أستاذ آن. كنتُ بحاجةٍ فقط إلى إخبار أحدهم. لأعرف أن هناك من يهتم لأمري.

ـــ كلنا نهتم. هذا ما يبقينا بشراً في ظل هذه اللاإنسانية.

19 أكتوبر 1860، القصر الصيفي، ظهراً

توجه آن ديهاي، برفقة لي ليانييغ واثنين من الخصيان الآخرين هما تشانغ تشينلين وتسوي يوغوي، نحو جناح الغيوم الثمينة. كان هذا المبنى من أكثر المباني التي يعرفها، بعد أن أمضى مئات الساعات في فهرسة كنوزه.

كان الطريق المؤدي إلى هناك مألوفاً. كان يعرف كل منعطف، وكل شجرة على طوله. لكن اليوم، بدا كل شيء مختلفاً. حتى الهواء كان مشحوناً بتوتر كهربائي، كما لو كان قبل عاصفة. كان صمت الطيور غير طبيعي - لقد هربت، مستشعرة الخطر.

وبينما كانوا يقتربون، سمعوا ضجيجًا مروعًا. ضحكات، صيحات، صوت أشياء ثقيلة تُسحب أو تُسقط، صوت تحطم زجاج. شعر آن ديهاي بانقباض في معدته.

اختبأوا خلف غابة كثيفة من الخيزران وراقبوا المشهد الذي يتكشف أمامهم.

كان نحو عشرين جنديًا فرنسيًا يركضون في كل الاتجاهات، يحملون ما استطاعوا حمله. كان المشهد غريبًا، يكاد يكون مضحكًا لولا أنه مفجع. ارتدى بعضهم عدة أردية حريرية إمبراطورية فوق بعضها، مما خلق مظهرًا مثيرًا للسخرية - رجال ضخام البنية ملتحون يرتدون أثوابًا نسائية مطرزة بالتنانين والعنقاء. حمل آخرون مزهريات خزفية ضخمة، يتعثرون تحت وطأتها، ويضمونها إلى صدورهم كالأطفال. حاول جندي حمل ستارة من الورنيش المرصع باليشم بمفرده. فسقط، وتحطمت الستارة إلى ألف قطعة على ألواح الرخام.

لم تستطع آن ديهاي إلا أن تتأوه، وهو صوت لا إرادي انطلق من مؤخرة حلقها.

— لا! تلك الشاشة عمرها ثلاثمائة عام...

تذكر تلك الشاشة جيدًا. كان قد صنفها قبل سبع سنوات، وقضى يومًا كاملًا في توثيق كل تفاصيلها. كان الإمبراطور كانغشي قد طلب صنعها احتفالًا بعيد ميلاد والدته الستين. اختيرت كل قطعة من اليشم على حدة لجمال لونها وشفافيتها. صوّرت النقوش الخالدين الثمانية وهم يعبرون البحر - مشهد من الأساطير الطاوية يرمز إلى طول العمر والسمو. وقد نظم الإمبراطور كانغشي نفسه قصيدة محفورة على ظهرها، بأحرف دقيقة جدًا لدرجة أن قراءتها كانت تتطلب عدسة مكبرة. حفظ آن ديهاي القصيدة عن ظهر قلب: "عبر أمواج اليشم، يسافر الخالدون / كل جيل يحفظ حكمتهم / عسى أن تعيش أمي عشرة آلاف خريف / بينما يجتاز هؤلاء الخالدون العصور."

والآن لم يعد كل ذلك سوى حطام متناثر على الأرض، داسه أحذية متسخة.

لمس لي ليانيينغ يده كتحذير.

— يا سيدي، انظر إلى هناك.

عثر جنديان على مجموعة خزف مينغ التي كان آن ديهاي قد رتبها قبل شهرين. كانت القطع مرتبة على رفوف من خشب الصندل، كل قطعة تحمل ملصقًا مكتوبًا بخط جميل يشير إلى أصلها وتاريخها وأهميتها.

يتذكر أنه أمضى ثلاثة أسابيع في هذه المهمة، يدقق في كل تفصيل مرارًا وتكرارًا، متأكدًا من أن كل شيء على ما يرام.

حدّق الجنود بشوق في الخزف، محاولين اختيار القطع التي سيأخذونها. وتحدثوا فيما بينهم بالفرنسية، وهي لغة لم يفهمها آن ديهاي، لكن نبرتها الجشعة كانت عالمية. انتزع أحدهم مزهرية زرقاء وبيضاء من عهد شواندي.

كانت آن ديهاي على دراية تامة بتاريخها. فقد صُنعت المزهرية عام ١٤٢٦ على يد الخزّاف الإمبراطوري تشانغ وي في أفران جينغدتشن. كان تشانغ وي خزّافًا ماهرًا، وتوارثت عائلته صناعة الخزف لأربعة أجيال. استُخرج اللون الأزرق من الكوبالت المستورد من بلاد فارس عبر طريق الحرير، وهو صبغة ثمينة للغاية تُعادل قيمتها وزنها من الفضة. صوّر التصميم تنانين تلهو في الغيوم، رمزًا للقوة الإمبراطورية الممزوجة بالحكمة السماوية. أشرف الإمبراطور شواندي على صناعة هذه المزهرية، مُصرًّا على أن يكون اللون الأزرق مطابقًا تمامًا للون الذي رآه في أحلامه.

أمضت المزهرية قرنين من الزمان ضمن المقتنيات الإمبراطورية، محط إعجاب أجيال من الأباطرة. وفي عام ١٧٠٢، عندما اجتاح فيضان هائل مقاطعة غوانغدونغ، مخلفًا آلاف القتلى ومتسببًا في تلف المحاصيل، أهدى حاكم المقاطعة المزهرية إلى الإمبراطور كانغشي تقديرًا لإعفاء ضريبي أنقذ منطقته من المجاعة. أحبها كانغشي حبًا جمًا، فاحتفظ بها في جناحه الخاص، وكان يؤلف الشعر وهو يتأملها. بل إنه أمر بنقش قصيدة على ميدالية ذهبية، علقها بقاعدة المزهرية. كان في المزهرية شرخ صغير في قاعدتها، عيب بسيط لم ينتقص من جمالها. أمر الإمبراطور تشيان لونغ، حفيد كانغشي، بترميم هذا الشرخ عام ١٧٥٠ على يد كبير المرممين ليو هنغ، باستخدام تقنية سرية جعلت الترميم شبه غير مرئي.

لكن الجندي الفرنسي لم يكن يعلم شيئاً عن كل هذا. بالنسبة له، كانت مجرد قطعة جميلة، لكنها ثقيلة، زرقاء وبيضاء. حملها بإهمال، دون

أن يدرك قيمتها أو هشاشتها. انزلقت المزهرية من يديه وتحطمت على أرضية الرخام.

دوّى الصوت في قلب آن ديهاي كقرع جرس جنازة. خمسة قرون من التاريخ، دُمّرت في لحظة بسبب حماقة رجل لم يكن يعلم حتى ما دمّره للتو.

هز الجندي كتفيه – وهي حركة عفوية لدرجة أنها كانت فاحشة – ثم التقط مزهرية أخرى.

انهمرت دموع تشانغ تشينلين، وهو خصي كان يعمل على الجرد، على خديه. وارتجفت كتفاه من شدة بكائه الصامت الذي حاول جاهداً كبحه.

— لا أستطيع تحمل هذا. سنوات من العمل والاهتمام والحفظ... دُمّرت في غضون ساعات قليلة على يد هؤلاء المخربين. إنهم لا يدركون حتى ما يدمرونه.

لكن أحد الجنود رصدهم. صرخ بشيء ما لرفاقه، واتجه ثلاثة منهم نحو غابة الخيزران، وبنادقهم في أيديهم، ووجوههم تعكس مزيجاً من عدم الثقة والعدوانية.

خرج آن ديهاي من مخبئهم رافعاً يديه. أحاط بهم الجنود، يفحصونهم بشك. قال أحدهم، وهو رقيب على ما يبدو من شارة رتبته، شيئاً بالفرنسية، ثم حاول التحدث ببعض الإنجليزية الركيكة.

— أنتم... أهل القصر؟

— نعم، نحن نعمل هنا، أجاب باللغة الإنجليزية بطلاقة.

راقبهم الرقيب، ثم بدا وكأنه يتخذ قرارًا. أشار نحو الجناح، مصحوبًا بكلمات لم يفهمها آن ديهاي تمامًا، لكن معناها العام كان واضحًا. كانوا يريدون المساعدة.

— تعالوا. ساعدونا.

اقتيدوا إلى داخل الجناح. اضطر آن ديهاي إلى إجبار نفسه على النظر. كانت الأرضية مغطاة بالحطام. الرفوف مقلوبة، ومحتوياتها متناثرة

كعظام مكسورة بعد معركة. لفائف من الخط العربي القديم ملقاة في الغبار. قطع من الخزف تُسحق تحت أقدامهم مع كل خطوة.

وقف ضابط فرنسي، برتبة نقيب، في منتصف الغرفة ممسكًا بدفتر ملاحظات وقلم رصاص. بدا وكأنه يحاول حصر ما بداخل الغرفة، لكنها كانت مهمة مستحيلة في ظل هذه الفوضى. كان شعره أشعثًا، وجبينه يلمع بالعرق رغم برودة الجو. بدا عليه الإحباط، وكأنه غارق في حيرة من أمره أمام ضخامة المهمة.

عندما أحضر الرقيب آن ديهاي والآخرين إليه، بدا القائد مرتاحاً. تمتم بشيء بالفرنسية، ثم حاول التحدث بالإنجليزية بلكنة ثقيلة، لكنها مفهومة.

— هل تعرف... هذه الأشياء؟ قيمتها؟

— نعم. أعرف كل شيء هنا. أنا من قام بتصنيف كل شيء.

ابتسم القبطان، وكانت ابتسامة صادقة، تكاد تكون ودية - الأمر الذي جعلها بطريقة ما أكثر إثارة للقلق.

— جيد. جيد جداً. أنت تساعدني. أريد أن أعرف... ما هو قيّم، وما هو... مجرد... زينة؟ غير مهم؟

فهم آن ديهاي الأمر تماماً. أراد الضابط التمييز بين الكنوز الحقيقية والأشياء الأقل قيمة. أراد أن يُحسّن عملية النهب، وأن يتأكد من سرقة الأشياء الصحيحة. كان منطقه بارداً، يكاد يكون احترافياً.

كان على آن ديهاي اتخاذ قرارٍ مصيريٍّ في لحظةٍ خاطفة، قرارٌ سيُطارده طوال حياته. فلو ساعد هذا الضابط، لكان قد ساهم بشكلٍ مباشرٍ في سرقة التراث الصيني، وأصبح مُتواطئًا وخائنًا لثقافته. وقد تُحاسبه الأجيال القادمة بقسوة. أما إذا رفض، فسيُعرّضهم على الأرجح للضرب، وربما للقتل. وحينها، لن يعرف أحدٌ على وجه التحديد ما سُرق.

تبلورت فكرة في ذهنه. إذا ساعد في جرد المسروقات، فسيتمكن على الأقل من توثيق ما سُرق. سيتذكر من أخذ ماذا. لاحقًا، إذا تحققت العدالة

يومًا ما - وكان عليه أن يؤمن بإمكانية ذلك، وإلا فما جدوى البقاء على قيد الحياة؟ - فسيكون هناك شاهد. شاهد لا يعرف الأشياء فحسب، بل يعرف أيضًا معناها الأعمق، وتاريخها الكامل.

— يمكنني مساعدتك وتصنيف كل شيء أيضاً. باللغة الصينية.

فكر القبطان للحظة وهو يعقد حاجبيه. حبس أن ديهاي أنفاسه. ثم هز الضابط كتفيه.

— لم لا؟ أنت تكتب بالصينية، وأنا أكتب بالفرنسية. أسلوبان مختلفان. جيد لـ... كيف أقولها... الشفافية؟

أعطى آن ديهاي فرشاةً وحبرًا وورقةً وجدها في مكتب الجناح. تناول آن ديهاي الفرشاة بخشوع لا إرادي. كانت فرشاةً جيدة، مصنوعةً من شعر الذئب، ومتوازنةً تمامًا. كان قد طلبها بنفسه قبل خمس سنوات من حرفيٍّ مشهور في بكين. أثار حملها الآن، في ظل هذه الظروف، مزيجًا معقدًا من المشاعر لم يستطع فصلها – خجل، وعزيمة، وحزن، ونوع غريب من الارتياح لامتلاكه على الأقل هذه الفرشاة المألوفة، أداة مهنته هذه.

عاش آن ديهاي واحدة من أغرب وأشد لحظات حياته إيلاماً. وقف هناك، جنباً إلى جنب مع القائد الفرنسي، يُحددان الكنوز التي كان الجنود يعثرون عليها. كان المشهد سريالياً، أشبه بمشهد من مسرحية عبثية. رجلان، من حضارتين مختلفتين، من معسكرين متناحرين، يعملان معاً في محاكاة ساخرة للتعاون العلمي.

أشار القبطان إلى شيء ما. فعرّفه آن ديهاي بلغة إنجليزية بسيطة. دوّن القبطان ذلك في دفتر ملاحظاته. ثم دوّنه آن ديهاي في دفتر ملاحظاته الخاص، ولكن بتفاصيل أغنى بكثير، محوّلاً كل شيء من مجرد "شيء ثمين" إلى جزء من التاريخ الحي.

كان القبطان يعرض تمثالاً برونزياً صغيراً لحصان. بالنسبة له، كان مجرد "تمثال برونزي قديم لحصان".

بالنسبة لآن ديهاي، كانت هذه هي القصة التي كان يكتبها: "الحصان السماوي لسلالة هان، 206 ق.م. - 220 م. يُمثل خيول فرغانة، وهي سلالة أسطورية رغب بها الإمبراطور وو بشدة لدرجة أنه أرسل جيشًا قوامه 60,000 رجل للحصول عليها. يُخلد هذا التمثال البرونزي ذكرى تلك الحملة. عُثر عليه في مقبرة إمبراطورية عام 1735، وقُدِّم للإمبراطور تشيان لونغ. يُشير وضع الأرجل إلى العدو الطائر، وهي تقنية فنية لم يُعاد اكتشافها في الغرب إلا بعد ألف عام. سُرق في 19 أكتوبر 1860."

أصبح كل شيء فرصة لكتابة قصته الكاملة - ليس لتبرير السرقة، ولكن لخلق شهادة من شأنها أن تصمد أمام الفوضى.

استمر العمل، قطعة تلو الأخرى. كان كل اكتشاف بمثابة موت صغير لآن ديهاي. لقد رأى ثمرة عمر كامل من العمل، وتاريخ حضارة بأكملها، مختزلاً إلى سطور في سجل جرد.

— وهذا واحد؟

أظهر القبطان لفافة خطية، ممسكاً بها بحرص أكثر من أي لفافة أخرى أظهرها من قبل. ربما بدأ يدرك هشاشة هذه الأشياء.

فتح آن ديهاي الورقة برفق، وارتجفت يداه قليلاً. قفز قلبه، وكاد أن يخطف أنفاسه. كانت قصيدة لسو دونغبو، أحد أعظم شعراء أسرة سونغ، كتبها بخط يده قبل ثمانمائة عام.

عاش سو دونغبو - أو سو شي، اسمه الكامل - بين عامي 1037 و1101. كان شاعرًا وخطاطًا ورسامًا وفيلسوفًا ورجل دولة، ويُعدّ من أبرز الشخصيات في التاريخ الصيني. كُتبت هذه القصيدة خلال منفاه في هوانغتشو، بعد أن فقد حظوته في البلاط لانتقاده بعض السياسات الإمبراطورية. لم يُحطّمه المنفى، بل غيّره. هناك كتب بعضًا من أروع قصائده، متأملًا في زوال السلطة والجمال الذي يبقى حتى في الشدائد.

كانت الشخصيات رائعة، نابضة بالحياة والجمال. كل ضربة فرشاة كشفت عن شخصية الشاعر - قوته، حزنه، حبه للطبيعة، وروح الدعابة

لديه حتى في أحلك اللحظات. قرأ آن ديهاي هذه القصيدة مئة مرة في نسخ مطبوعة، لكنها كانت المرة الأولى التي يرى فيها الأصل. أُخرجت من مخزن خاص قبل أسابيع قليلة فقط لعرض خاص للإمبراطورة الأرملة.

تقول القصيدة:

"في وسط النهر، يسطع القمر، وتُهمس القصبات بأغنيتها القديمة. رجل وحيد يتأمل الماء الجاري. كم من الأرواح مرت على هذه الضفاف! أين أبطال الأمس؟ حتى أسماءهم تتلاشى في الأمواج. وحده جمال هذه الليلة يبقى، أبديًا، غير مبالٍ بأحزاننا."

شعر آن ديهاي بدموع تحرق عينيه. هذه الكلمات، التي كتبها رجلٌ في المنفى، رنّت بقوةٍ هائلة في هذه اللحظة. لقد شهد هو الآخر دمار كل ما يعرفه. لقد نظر هو الآخر إلى الأنقاض. ومع ذلك، فقد صمدت هذه القصيدة ثمانية قرون. ربما ستصمد شهاداته هو الآخر أيضًا.

— مخطوطة قديمة جداً. شاعر مشهور جداً. عمرها ثمانمائة عام. لا يمكن استبدالها. فريدة من نوعها في العالم.

أطلق القبطان صفيرًا خفيفًا، وقد أعجب به رغماً عنه.

— ثمانمائة عام؟ هذا... أمر لا يُصدق.

نظر إلى المخطوطة بمزيد من الاحترام، وكاد يلمسها بخشوع.

نظر إليه آن ديهاي مباشرةً في عينيه. وللحظة، نسي الحذر، ونسي الخطر. كان عليه أن يقول الحقيقة، مهما كانت العواقب.

— إنكم تعاقبون ثمانمائة عام من الفن بسبب أفعال قلة من الرجال. هذه القصيدة لم تعذب مبعوثيكم. هذه المزهرية لم تعلن الحرب. هذه الأشياء بريئة. لا تعرف شيئًا عن السياسة. لا تفهم معنى الانتقام. إنها ببساطة... جمال. ذاكرة. روح شعب.

أدار القائد وجهه، وقد بدا عليه الانزعاج. ظنّ آن ديهاي أنه رأى وميضًا من الخجل في عينيه، شرخًا في درع الجندي المطيع. لكن سرعان ما

اختفى ذلك الوميض، ليحلّ محله لامبالاة باردة لجندي ينفّذ الأوامر فحسب.

ـــ هذه حرب. في الحرب، لا يوجد أبرياء.

أراد آن ديهاي أن يجادل، أن يصرخ بأن هذا زيف، وأن الأعمال الفنية بريئة دائمًا، وأن تدمير الجمال جريمة ضد الإنسانية جمعاء، وأن الحضارات لا تُقاس بقدرتها على شن الحروب، بل بقدرتها على خلق الجمال والحفاظ عليه. لكنه تراجع. لم يكن الوقت مناسبًا. كان عليه أن ينجو، أن يوثق، أن يشهد. سيأتي الغضب لاحقًا. أما الآن، فعليه أن يؤدي دوره، مهما كان ذلك مُهينًا.

دوّن القبطان ذلك ببساطة في دفتر ملاحظاته وانتقل إلى البند التالي.

همس لي ليانييِنغ، الذي كان يقف في مكان قريب ملتزماً الصمت الحذر، باللغة الصينية بصوت خافت لدرجة أن آن ديهاي وحده هو من استطاع سماعه:

ـــ يا سيدي، لماذا تساعدهم؟ أليس هذا خيانة عظمى؟ ألن تحاسبنا الأجيال القادمة؟

أجابت آن ديهاي بهدوء مماثل، بالكاد تحركت شفتاها:

ـــ أنا لا أساعدهم على السرقة، بل أُنشئ أرشيفًا. كل ما أسجله هو دليل على أن العالم قد سُرق، وسيعرف من سرقه، ومتى، وتحت أي ظروف. إنها وسيلتنا الوحيدة للمقاومة الآن: الذاكرة. سيأتي يوم يطالب فيه أحدهم بالعدالة، وسأمتلك حينها الأدلة، والأسماء، والتواريخ، والتفاصيل التي سيرغب المنتصرون في نسيانها.

كان اليوم يشارف على الانتهاء عندما سمعوا صرخة مروعة في الخارج، أعقبها دويّ طلقات نارية. اخترق الصوت الهواء، محطماً حالة التركيز الكئيبة التي خيمت على الجناح لساعات.

اندفعوا جميعاً نحو النوافذ. وفي الحديقة بالأسفل، رأوا مجموعة من الجنود البريطانيين - يمكن تمييزهم من خلال زيهم الأحمر المميز - يطاردون بستانياً صينياً عجوزاً.

كان الرجل يركض بأقصى سرعة تسمح بها ساقاه المنهكتان، لكن المشهد كان مثيراً للشفقة - سباق يائس لا أمل فيه. تعثر بجذر شجرة وسقط بقوة على الحجارة المرصوفة. انقلبت سلته، وتناثرت منها أدوات البستنة - مجرفة، ومقص تقليم، وأكياس بذور مُرتبة بعناية.

تعرّف آن ديهاي على وي غوليانغ، البستاني الذي كان يعمل في القصر. رجلٌ لطيفٌ يُخاطب نباتاته كما لو كانت أطفالًا، يعرف الاسم العلمي لكل زهرة، وقد ابتكر بعضًا من أجمل تنسيقات الزهور. تذكّر أنه رآه مئات المرات، جاثيًا على ركبتيه في التراب، ويداه متسختان، لكن ابتسامةً تعلو شفتيه، يشرح بصبرٍ لمتدربٍ شابٍّ كيفية تقليم شجرة فاكهةٍ بشكلٍ صحيحٍ لزيادة أزهارها.

— وي غوليانغ... لا. إنه لا يؤذي ذبابة. إنه لا يعرف حتى كيف يقاتل. لقد أمضى حياته في خلق الجمال، لا تدميره.

وصل الجنود البريطانيون إلى الرجل العجوز. ركله أحدهم بقوة، كما لو كان يقلب كيسًا من الحبوب. رفع وي غوليانغ يديه متضرعًا، قائلًا شيئًا لم يسمعه أحد من داخل الخيمة. كان وجهه متشنجًا من الرعب، وشفتيه تتحركان بسرعة - ربما كان يصلي، ربما كان يتوسل، ربما كان يودع عائلته في سره.

ثم رفع أحد الجنود بندقيته وأطلق النار. مرة واحدة. رصاصة واحدة فقط.

ارتجف جسد وي غوليانغ، ثم تجمد. وبدأت بقعة داكنة تنتشر تحته، ملونة الرصيف الحجري.

ساد صمتٌ رهيبٌ أرجاء الجناح. شعر آن ديهاي وكأن ساقيه تخونه. اضطر إلى الاستناد إلى الجدار ليمنع نفسه من السقوط، ويده تبحث عن أي شيءٍ يسنده، أي شيءٍ يمنعه من الانهيار. حتى الجنود الفرنسيون بدوا مصدومين. بعضهم صرف نظره، وآخرون حدقوا في المشهد كأنهم مسحورون، عاجزين عن إبعاد أنظارهم عما شاهدوه للتو.

التفت آن ديهاي إلى القبطان، وكان صوته يرتجف من الغضب المكبوت، وكل كلمة ينطقها بدقة مروعة.

ـــ لماذا؟ ماذا فعل؟ لقد كان مجرد رجل عجوز. مجرد بستاني. لم يكن يحمل سلاحًا حتى. كان يحمل بذورًا. بذور! لماذا قتلوه؟

أغمض القبطان عينيه.

ـــ لا أعرف. ربما قاوم. ربما كان يملك شيئاً يريدونه. ربما...

لم يكمل جملته، فقد افتقر إلى الكلمات أو الشجاعة.

شعر آن ديهاي بشيء ينكسر بداخله. كل ضبط النفس، وكل المجاملة الدبلوماسية التي حافظ عليها منذ الصباح، تبخرت جميعها أمام هذا العنف المجاني، هذه الجريمة العبثية بحق رجل لم يرتكب ذنباً سوى فراره.

ـــ ربما قتلوه من أجل المتعة؟ هل هذا ما كنت ستقوله؟

فتح القبطان عينيه مجدداً. ولأول مرة، رأى آن ديهاي الإنسانية في نظراته. الخزي، والندم، والرعب مما آل إليه حلفاؤه، وما آل إليه هو نفسه.

ـــ هذا خطأ. كل هذا...

أشار بإيماءة شملت الجناح المنهوب، والكنوز المكدسة كغنائم عادية، والجثة في الحديقة التي كانت تبرد ببطء.

ـــ هذا خطأ. لكنني جندي. أنفذ الأوامر. هذا كل ما بوسعي فعله. تنفيذ الأوامر.

اقترب آن ديهاي منه، وحدّق فيه بشدة جعلت الضابط يتراجع خطوة إلى الوراء.

ـــ وهل الأوامر تبرر كل شيء؟

أدار القبطان وجهه، غير قادر على مواجهة نظرة آن ديهاي.

ـــ لقد تأخر الوقت. يمكنك المغادرة. عد غداً في نفس الموعد. نحتاج إلى إنهاء الجرد.

جمع آن ديهاي ملاحظاته بحركات بطيئة ومتأنية. لم يرغب في أن تسيطر عليه مشاعره الآن. كان عليه أن يبقى مركزًا، وأن ينجو، وأن

ينهي بحثه. لكن الغضب كان يغلي داخله كقدر على الموقد، مهددًا بالانفجار في أي لحظة.

أشار إلى الخصيان الآخرين ليتبعوه. وبينما كانوا يغادرون الجناح، يسيرون بصمت عبر الممر المليء بالحطام، همس لي ليانييغ:

— يا سيدي، لا يمكننا العودة غداً. سيكون ذلك بمثابة تعاون معهم. بعد ما رأيناه للتو... بعد وي غوليانغ... كيف يمكننا الاستمرار في مساعدتهم؟

توقف آن ديهاي في ضوء الممر الخافت، والتفت لمواجهة الشاب.

— صدقوني، كل ذرة في كياني تتوق للفرار، ألا أعود إلى هنا أبدًا، ألا أرى تلك الوجوه مجددًا. ومع ذلك، إن لم نعد، فمن سيشهد على الحقيقة؟ سيدوّن القبطان الفرنسي ملاحظاته، لكنها لن تُستخدم إلا لتبرير النهب، ولحصر المسروقات. أما ملاحظاتنا، فستُستخدم يومًا ما للمطالبة بالعدالة. لإثبات أن لكل قطعة حكاية، ومعنى. لتحويل السرقة إلى جريمة موثقة.

تحدث تسوي يوغوي، الذي ظل صامتاً طوال فترة ما بعد الظهر، أخيراً.

— أي عدالة هذه؟ من سينصف وي غوليانغ؟ من سيعيد إليه حياته؟ الموتى لا يرون العدالة. العدالة لا تمحو الدماء.

لم يكن لدى آن ديهاي إجابة شافية. كان تسوي يوغوي محقًا. العدالة، إن تحققت يومًا، ستكون مجردة، بعيدة المنال، لا معنى لها بالنسبة لمن ماتوا بالفعل. ولكن ماذا عساهم أن يفعلوا؟

— لن يعيده أحد إلى الحياة. هذا صحيح. لكن على الأقل سيُخلّد اسمه في التاريخ. على الأقل، بعد مئة عام، أو مئتي عام، سيعرف الناس أنه وُجد، وأنه عاش، وأنه أبدع الجمال، وأنه قُتل ظلمًا. إنه ليس بالكثير. إنه قليلٌ للغاية. لكنه كل ما في وسعنا. إنها مقاومتنا. رفضنا السماح للمنتصرين بكتابة التاريخ الوحيد الذي سيبقى.

ساروا نحو نقطة اللقاء، غارقين في أفكارهم. كانت الشمس تغرب. وخلفهم، ما زالوا يسمعون أصوات النهب: ضحكات، صيحات، تحطم أشياء، صوت عالم يحتضر.

سار آن ديهاي للأمام بخطوات آلية، لا إرادية. تخيّل وجه وي غوليانغ مجدداً، تلك اللحظات التي التقاه فيها في الحدائق، دائماً بابتسامة، ودائماً ما كان لديه حكاية يرويها عن هذه النبتة أو تلك. تذكر حديثاً دار بينهما قبل خمس سنوات تقريباً، حين أراه وي غوليانغ شجرة برقوق كان قد زرعها للتو.

قال بفخر: "ستزهر شجرة البرقوق هذه بعد عامين، وبعد عشرين عامًا ستكون رائعة. وبعد خمسين عامًا، سيتمكن أحفادي من الجلوس تحت أغصانها. هذا هو جوهر عمل البستاني - الزرع من أجل المستقبل، من أجل أناس لن نعرفهم أبدًا."

لن يرى وي غوليانغ تلك الشجرة تزهر أبدًا. ولن يجلس أحفاده تحت أغصانها. لكن آن ديهاي عاهد نفسه على تذكر تلك الشجرة، والبحث عنها إن كانت باقية، ورعايتها إن أمكن. كان هذا أقل ما يمكنه فعله.

19 أكتوبر 1860، القصر الصيفي، غروب الشمس

عندما تجمعت المجموعات المختلفة في فناء مساكن الخدم عند غروب الشمس، كان الجو ثقيلاً بألمٍ مكتوم. كانت الوجوه تحمل آثار ما رآه كل فرد، وكانت الأجساد منحنية تحت وطأة الرعب المتراكم.

كانت السيدة ليو أول من شارك تقريرها. وقفت في وسط الفناء، منتصبة القامة رغم إرهاقها، لكن صوتها كان متقطعاً، وقد بدا عليه التقدم في السن عشر سنوات في غضون ساعات قليلة.

— فتّشنا مساكن المحظيات. أخذوا كل شيء. الفساتين، والمجوهرات، والمرايا، والمراوح، والأحذية المطرزة. حتى أنهم مزّقوا المفروشات من على الجدران. لكن الأسوأ من ذلك... وجدنا لي مي. كانت في الخامسة عشرة من عمرها. خمسة عشر عامًا فقط. كانت قد اختبأت في خزانة ملابس، ظنًا منها أنها ستكون بأمان. لكنهم وجدوها.

توقفت، وانقطع صوتها تماماً. أمسكت مي لين، التي كانت تقف بجانبها، بيدها.

— وجدناها بعد ذلك. جثتها... ما فعلوه بها... لا ينبغي لأي فتاة أن تتحمل ذلك. لا ينبغي لأي إنسان أن يتحمله.

لم تُكمل حديثها. لم تكن بحاجة لذلك. الجميع فهم. ساد صمت ثقيل، وكل شخص يتأمل الرعب في ذهنه.

وانغ تشانغوي، مشرف المطبخ، تحدث.

— فتشنا المطابخ والمخازن. عثر الجنود على مخزون الكحول وهم في حالة سكر شديد. عشرات الجرار من النبيذ الإمبراطوري، نبيذ كان الأباطرة يحتفظون به للمناسبات الخاصة. يشربونه كالماء، يسكبونه في أفواههم، ويسكبون نصفه على بزاتهم العسكرية. يتقيأون في الحدائق، في الممرات. بعضهم في حالة سكر شديد لدرجة أنهم بالكاد يستطيعون الوقوف. سيكونون أكثر خطورة هذه الليلة. رجال سكارى يحملون أسلحة، بلا انضباط، بلا ضباط يضبطونهم... علينا الاختباء، وبسرعة.

ظلّ وانغ دانيو، البستاني العجوز، صامتًا. لم يكن لديه تقريرٌ يُقدّمه، ولا كلماتٌ ينطق بها. رآه آن ديهاي يُحدّق أمامه بشرود، وعيناه زائغتان، ويداه ترتجفان، حاول عبثًا السيطرة على ارتعاشهما. كان في حالة صدمة. ربما كان قد شهد وفاة وي غوليانغ. كانا صديقين، إذ بدآ العمل في القصر في نفس الفترة تقريبًا.

تحدث آن ديهاي بعد أن انتهى الجميع من مشاركة شهاداتهم.

— أصدقائي، لقد شهدنا جميعًا أهوالًا اليوم. فقدنا رفاقًا. وي غوليانغ مات. لي مي ماتت. وربما آخرون لم نعرف أسماءهم بعد. يجب أن نبقى متحدين. ويجب أن نفكر عمليًا في بقائنا. وانغ تشانغوي، ما مقدار الطعام الذي لدينا بالضبط؟

أخرج وانغ تشانغوي دفتر ملاحظات صغير من جيبه - وهي عادة طباخ دقيق.

ـــ ثلاثة أيام إذا اقتصدنا بحرص. ربما أربعة أيام إذا أكلنا قليلاً جداً. لدينا أرز، وفاصولياء مجففة، وبعض الخضراوات التي بدأت تفسد، وملح، وقليل من الزيت. لا يوجد لحم. أخذ الجنود كل اللحم.

رفع أمين مكتبة مسن يُدعى تشانغ بينغهوان يده. لطالما كان الرجل دقيقًا ومنظمًا ومخلصًا للكتب التي في عهدته. أما وجهه الهادئ عادةً فقد غطى عليه الحزن.

ـــ يا سيد آن، لقد قضيت اليوم في المكتبة الكبرى. إنهم يحرقون الكتب.

انقطع صوته عند تلك الكلمات، كما لو أن قول الحقيقة بصوت عالٍ جعلها أكثر واقعية، وأكثر قسوة.

ـــ يحرقونها. ليس لأنهم يريدون تدميرها تحديدًا - فهم لا يعرفون حتى ماهية هذه الكتب، ولا يستطيعون قراءتها. بل لأنها تشغل حيزًا، ويريدون هذا الحيز ليخزنوا غنائمهم. آلاف المجلدات، بعضها يعود إلى عهد أسرتي سونغ وتانغ. مخطوطات فريدة، وشروح على الكلاسيكيات نُسخت بأيدي علماء عظام. قصائد، ورسائل طبية، ونصوص فلكية، وسجلات تاريخية. يستخدمونها لإشعال نيران مخيماتهم. رأيت جنديًا يمزق صفحات من مخطوطة تعود إلى عهد أسرة سونغ ليُشعل سيجارة.

فتح حقيبته بيد مرتعشة وأخرج منها خمسة كتب قديمة، وضمها إلى صدره كما يضم الأب طفله المحتضر.

ـــ تمكنت من إنقاذ هذه الصور. خمس صور فقط. من بين عشرات الآلاف. لكنها شيء. شيء، أليس كذلك؟

كان السؤال يائساً، يتوسل للحصول على تأكيد، وللحصول على طمأنينة بأن جهودها لم تذهب سدى.

نزل آن ديهاي من على المسرح.

ـــ يا تشانغ بينغهوان، هذه الكتب الخمسة التي أنقذتها تحوي ما يقارب مليون حرف. أفكارٌ صمدت لقرون، وحكمةٌ درستها أجيالٌ من العلماء. بفضلك، ستصمد لفترة أطول. هذا عملٌ عظيم. هذا فعلُ مقاومة. فعلُ

حفظ. شكرًا لك. شكرًا لك على شجاعتك في العودة إلى ذلك الجحيم لإنقاذ هذه الكتب الخمسة فقط.

ثم تدخل أحد الحراس غير المسلحين، وهو رجل يُدعى تشين مينغدي، كان قد خدم في الجيش الإمبراطوري قبل تعيينه في القصر. كان رجلاً عملياً، معتاداً على إيجاد حلول في المواقف الصعبة.

ـــ لديّ اقتراح. توجد كهوف في التلال غرباً. كان والدي صياداً وكان يصطحبني إلى هناك عندما كنت طفلاً. أعرف الطريق. إنها مخفية، ويصعب العثور عليها إن لم تكن تعرف أين تبحث. بعضها كبير بما يكفي لإيواء خمسين شخصاً أو أكثر. يمكننا إقامة معسكر مؤقت هناك، آمناً وبعيداً عن الجنود.

شعر آن ديهاي بموجة من الراحة تغمره. ملجأ. مكان آمن لإعادة ترتيب أفكاره، والتنفس، والتخطيط.

ـــ إنها فكرة ممتازة. هذا بالضبط ما نحتاجه. لكن لا يمكننا الذهاب جميعاً في وقت واحد. فمجموعة كبيرة من خمسين شخصاً تعبر التلال ستلفت الأنظار. الجنود يقومون بدوريات. علينا أن نذهب في مجموعات صغيرة، في أوقات مختلفة، ونسلك طرقاً منفصلة.

أمضوا الساعة التالية في تنظيم عملية الإجلاء بدقة متناهية، حتى أن آن ديهاي رسم خريطة تقريبية على الغبار ليفهم الجميع الخطة. تقرر أن تغادر المجموعة الأولى، المؤلفة أساسًا من النساء وكبار السن - الأكثر عرضة للخطر إذا عثر عليهم الجنود السكارى - فورًا بقيادة تشين مينغدي. سيسلكون أقصر الطرق، مستغلين الساعات الأخيرة من ضوء النهار.

أما المجموعة الثانية، التي تضم آن ديهاي ولي ليانييننغ وعدد قليل من الآخرين، فستغادر قبل فجر اليوم التالي، في ظلام ما قبل شروق الشمس، عندما يكون الجنود نائمين بعد ليلة من الشرب.

أما المجموعة الثالثة، وهم أولئك الذين أرادوا محاولة إنقاذ المزيد من الأشياء أو الوثائق، فسيغادرون في الصباح بعد القيام بمحاولة أخيرة للاستعادة.

قدّم آن ديهاي تعليمات دقيقة للمجموعة الثالثة، وكان صوته حازماً وواضحاً:

ـــ تذكر، الهدف ليس القيمة المادية. فالجنود يأخذون كل ما يلمع، كل ما هو مصنوع من الذهب أو اليشم. دع هذه الأشياء لهم. ابحث عن وثائق تروي قصة حياة الناس - رسائل شخصية، مذكرات، دفاتر حسابات تُظهر تفاصيل الحياة اليومية، سجلات بأسماء عامة الناس. ابحث عن صور فوتوغرافية إن وجدت - فهي سجلات بصرية لا تُعوَّض. ابحث عن أشياء تحمل قصصًا، حتى لو لم تبدُ ثمينة. مروحة بسيطة كانت تخص جارية قد تخبرنا عن الحياة اليومية أكثر مما يخبرنا به عرش ذهبي. هذه الأشياء هي التي تكشف عن الحضارة حقًا، لا الكنوز.

مع حلول الليل واستعداد المجموعة الأولى للمغادرة، بعد تفقد مؤنهم للمرة الأخيرة، انضمت السيدة ليو إلى آن ديهاي. كان وجهها حازماً، وقد تصلب بفعل تصميم جديد حل محل اليأس الأولي.

ـــ سيدي آن، أريد البقاء يوماً آخر. لأبحث عن ابنتي، مي فنغ. ربما تختبئ في مكان ما بين الأنقاض. ربما تكون مصابة وغير قادرة على الحركة، تنتظر من يأتي. لا أستطيع الرحيل دون أن أعرف. الأم لا تتخلى عن طفلها، حتى لو كانت الاحتمالات ضئيلة.

حدّقت آن ديهاي في هذه المرأة الشجاعة التي فقدت الكثير في حياتها. لقد خدمت السيدة ليو الإمبراطورة بإخلاص مطلق، وضحّت بحياتها من أجل القصر. ربّت مي فنغ وحدها بعد وفاة زوجها بمرض الحمى. كانت الفتاة كل حياتها، عائلتها الوحيدة.

ـــ خذوا مي لين وشخصاً أو شخصين آخرين معكم. ابحثوا معاً، وابقوا معاً طوال الوقت. لا تفرقوا أبداً. وإذا لم تجدوها بحلول مساء الغد...

ترك الجملة غير مكتملة. كلاهما كان يعلم ما ستعنيه. بعد ثمانٍ وأربعين ساعة، أصبحت فرص العثور على شخص على قيد الحياة شبه معدومة.

ـــ إن لم أجدها، فسأرحل. أعدك بذلك. لن أموت هنا عبثاً. لكن عليّ أن أحاول.

ـــ أدعو الله أن تجدها.

في تلك الليلة، ظلّ آن ديهاي مستيقظًا في القبو حيث اختبأوا. كان مكانًا ضيقًا ورطبًا تفوح منه رائحة التراب والعفن. تتدلى الجذور من السقف المنخفض، ويتسرب الماء على الجدران الحجرية. لكنه كان مكانًا آمنًا، ومخبأً، وملاذًا مؤقتًا وسط الفوضى.

بينما كان يستمع إلى الأصوات في الأعلى، رسم في ذهنه خريطة للكارثة. غناءٌ صاخبٌ، نشازٌ، وحشي. ضحكاتٌ تتردد في الليل بنبرةٍ هستيرية. طلقاتٌ ناريةٌ متقطعة - ربما جنودٌ يطلقون النار على الظلال، ربما إعداماتٌ بإجراءاتٍ موجزة، ربما مجرد احتفالاتٍ صاخبة. وأحيانًا، أسوأ الأصوات - صرخاتٌ حادةٌ تقشعر لها الأبدان. صرخات نساءٍ، صرخات أطفال. كل صرخةٍ كانت حياةً محطمة، وبراءةً مدمرة، وقصةً تنتهي بالعنف.

كان لي ليانييغ، وهو ينكمش بجانبه في ظلمة القبو الرطبة، يتمتم بأدعية بوذية. كانت شفتاه تتحركان باستمرار، مرددتين الترانيم التي تعلمها في طفولته. "أوم ماني بادمي هوم... أوم ماني بادمي هوم..." دعاء لبوذا الرحمة، يردده بلا كلل كتميمة ضد الشر.

ـــ هل تعتقد أن بوذا يستطيع سماعنا في هذا الجحيم؟ همس آن ديهاي.

رفع الخصي الشاب عينيه، بالكاد يمكن رؤية ملامحه في العتمة التي لم يخترقها سوى التوهج الخافت لشمعة صغيرة.

ـــ لا أعرف إن كان بوذا موجودًا. بل لا أعرف إن كنت أؤمن بشيء حقًا بعد الآن. ربما تخلت عنا الآلهة. ربما لم تكن موجودة أصلًا. لكنني أعرف أن الصلاة تجلب الراحة. إنها تمنحني شيئًا أفعله، شيئًا أركز عليه ذهني بدلًا من الاستماع إلى هذه الصرخات. ونحن الآن في أمسّ الحاجة إلى كل راحة ممكنة، حتى لو كانت من وهم. لعل هذه هي الوظيفة الحقيقية للدين: ليس إنقاذنا، بل منحنا شيئًا نتشبث به حين ينهار كل شيء.

أومأ آن ديهاي ببطء. تأمل في نشأته الدينية، وهي مزيج من الكونفوشيوسية والطاوية والبوذية كمعظم الصينيين. كان يصلي لأجداده كل عام في عيد تشينغمينغ، ويحرق البخور في المعابد في المناسبات الخاصة، وينسخ النصوص البوذية لنيل الأجر. لكن هل كان يؤمن حقًّا؟ أم أنها مجرد طقوس مريحة، وعادات ثقافية متوارثة عبر الأجيال؟

ـــ هل أنتَ خائف يا ليانييينغ؟

ـــ أنا مرعوب يا سيدي. كل صوت في الأعلى يُفزعني. في كل مرة نسمع فيها وقع أقدام، أعتقد أنها النهاية، وأنهم وجدونا، وأننا سنموت مثل وي غوليانغ. قلبي يدق بشدة لدرجة أنني أخشى أن يسمعوه. لكن الخوف طبيعي، أليس كذلك؟ ما نفعله رغم الخوف هو ما يُحدد هويتنا.

ـــ وماذا نحن؟ ماذا أصبحنا في هذا الكابوس؟

فكر لي ليانييينغ لفترة طويلة قبل أن يجيب، واختار كلماته بعناية.

ـــ نحن ناجون. شهود. حماة الذاكرة. الأمر أهم مما يبدو. بعد مئة عام، بعد ألف عام، سيرغب أحدهم في معرفة ما حدث هنا. وسنكون الوحيدين القادرين على قول الحقيقة. ليست حقيقة الجنرالات في تقاريرهم الرسمية. وليست حقيقة المؤرخين الذين لم يكونوا حاضرين. بل حقيقة أولئك الذين عاشوا الرعب، الذين رأوا الوجوه، وسمعوا الصرخات، واستنشقوا رائحة الدخان.

دوى انفجار في الأعلى، هزّ القبو. وتساقط الغبار والحطام من السقف. أطلق بعض من في القبو صرخات رعب قبل أن يتذكروا أن عليهم التزام الصمت، فعضّوا شفاههم، وكتموا أصواتهم بأيديهم.

تسوي يوغوي، وهو منكمش في زاوية كحيوان جريح، بصوت بالكاد يُسمع:

ـــ ما هذا؟ ماذا يفعلون الآن؟

— إنهم يفجرون أبواب الخزائن للوصول إلى آخر ما تبقى من الكنز. أو ربما بدأوا بالفعل بحرق المباني بشكل أكثر منهجية. البارود يُسرّع عملية التدمير.

— إلى متى سيستمر هذا؟ كم يوماً آخر علينا أن نتحمل هذه المحنة؟

لم يرغب آن ديهاي في قول الحقيقة - وهي أن الأمر قد يستمر لأسابيع - لكن الكذب كان بلا جدوى.

— لا أعرف على وجه اليقين. أيامٌ، بالتأكيد. حتى يأخذوا كل ما يريدون، كل ما يستطيعون حمله. حتى لا يبقى شيءٌ يستحق السرقة. حتى تصبح حتى الأنقاض مجرد أنقاض.

في الظلام الرطب، أغمض آن ديهاي عينيه وحاول أن يتذكر القصر كما كان. كان تمرينًا مؤلمًا ولكنه ضروري. كان عليه أن ينقش هذه الصور في ذاكرته قبل أن تتلاشى، قبل أن يمحو رعب الحاضر جمال الماضي تمامًا.

تذكر الحدائق في الربيع، حين كانت أشجار الخوخ مزهرة، وتفوح في الأجواء رائحة العسل والبتلات. تذكر الأجنحة عند الغروب، وأسقفها الذهبية تتلألأ في ضوء الشمس الخافت. تذكر أمسيات الصيف حين كان الإمبراطور يُقيم أمسيات شعرية على ضفاف البحيرة، والفوانيس تطفو على الماء كنجوم ساقطة. تذكر صباحات الشتاء حين كان الثلج يُغطي كل شيء ببياضه الناصع، وكان الصمت عميقًا لدرجة أن المرء يكاد يسمع الماضي يهمس بأسراره.

أراد أن ينقش هذه الصور بعمق في ذاكرته بحيث لا يمكن سرقتها أو حرقها أو اختفاؤها تماماً.

20 أكتوبر 1860، كهوف في التلال الغربية، مساءً

عندما وصل آن ديهاي إلى الكهوف بعد رحلة شاقة عبر التلال، مسترشداً بالتعليمات الدقيقة التي تركها تشين مينغدي مع المجموعة الأولى، كان منهكاً جسدياً ونفسياً. تمزقت أرديته بأشواك خدشت نسيج

الحرير كأصابع متهمة. نزفت قدماه في حذائه البالي، فكانت كل خطوة عذاباً صغيراً. لكنه كان على قيد الحياة. وهذا كل ما يهم.

استقبله الحارس تشن مينغدي، الذي عثر على هذا الملجأ، عند مدخل أكبر كهف بارتياح واضح.

— يا سيد آن! الحمد لله! كنا نظن أنك قد وقعت في الأسر أو ما هو أسوأ!

استند آن ديهاي إلى واجهة الصخرة، يلتقط أنفاسه في شهقات عميقة مؤلمة. كل نفس كان يحرق رئتيه. لقد كان أكبر من أن يتحمل هذا النوع من الجهد البدني.

— كدنا ننجو. كان الجنود يقومون بدوريات في كل مكان. اضطررنا للاختباء ثلاث مرات. لكنني نجوت. ماذا عن الآخرين؟

— الجميع هنا. ثلاثة وعشرون شخصًا، بمن فيهم المجموعة الأولى. أصيب تشانغ تشينلين بجرح بالغ في رأسه - سقطت عليه طوبة أثناء بحثه عن كتب في الأنقاض - لكن غاو نيانغ عالجته بأعشاب وجدتها. سيكون بخير. لم تعد السيدة ليو ومي لين من بحثهما بعد.

شعر آن ديهاي بانقباض مؤلم في معدته. السيدة ليو. مي فنغ. كان يأمل أن يكونوا قد عثروا على الفتاة بالفعل، وأن يكونوا بأمان هنا.

— كم مضى من الوقت؟

— غادروا هذا الصباح مع شروق الشمس. وكان من المفترض أن يعودوا قبل ساعتين، قبل حلول الليل تماماً.

نهض آن ديهاي على الفور رغم إرهاقه، متجاهلاً الألم في ساقيه.

— سأذهب لإحضارهم. ربما يحتاجون إلى مساعدة. ربما وجدوا مي فينغ مصابة ولا يستطيعون حملها بمفردهم.

أمسك تشين مينغدي بذراعه بقبضة محكمة لم تترك مجالاً للنقاش.

— لا! أنت منهك. بالكاد تستطيع الوقوف. انظر إلى نفسك - أنت ترتجف من التعب. والظلام يكاد يكون حالكاً. إنه أمر خطير للغاية. لن تجد طريقك للعودة في الظلام الدامس، وحتى لو وجدته، فإن الجنود

يقومون بدوريات في كل مكان. لديهم مصابيح يدوية. سيرونك قبل أن تراهم.

أراد آن ديهاي الاحتجاج، بل أراد الإصرار، لكنه أدرك أن تشين كان محقًا. ففي حالته الراهنة - منهكًا، جائعًا، مشوشًا - لن يكون ذا فائدة لأحد. بل سيكون عبئًا لا عونًا.

— حسنًا. لكن إن لم يعودوا بحلول فجر الغد، مع أول خيوط الضوء، فسأذهب للبحث عنهم. سواءً بمساعدة أو بدونها. لن أتخلى عنهم.

دخل الكهف، واستغرقت عيناه بعض الوقت للتأقلم مع الضوء الخافت. في الداخل، كان نحو ثلاثين شخصًا متجمعين حول عدة نيران مؤقتة. كان الجو خانقًا، يلفه دخان كثيف يلسع العيون، ويخيم عليه يأس ثقيل. كانت رائحة الكهف مزيجًا من الرطوبة وبرودة الأرض والخوف - تلك الرائحة النفاذة للعرق الممزوجة بالألم التي لا يمكن إخفاؤها. كانت عيون الجميع حمراء، إما من الدخان اللاذع أو من البكاء المتواصل، وربما كليهما.

راقبهم آن ديهاي للحظة، هؤلاء الناجون الذين تشبثوا بالحياة بفضل إرادتهم القوية. حدق بعضهم في النار دون أن يروها حقًا، غارقين في أفكارهم. وهز آخرون أنفسهم برفق، حركة لا إرادية تبعث على الراحة. وتمتم قليل منهم بصلوات، شفتيهم تنطق بكلمات قديمة عزّت أجيالًا سبقتهم.

جلس تشانغ بينغهوان، أمين المكتبة العجوز، في زاوية منعزلة، لا يزال يضم كتبه الخمسة التي أنقذها إلى صدره كما لو كانت رُضّعًا هشّين عليه حمايتهم من العالم. كان يتمتم بمقاطع من ذاكرته، بصوتٍ خافتٍ متواصلٍ أشبه بالهمس المنوم. اقترب آن ديهاي بما يكفي ليسمعه. تلا الرجل العجوز مقطعًا من كتاب "كلاسيك بر الوالدين"، ثم انتقل إلى مقتطف من "الأقوال المختارة" لكونفوشيوس، ثم إلى قصيدة من عهد أسرة تانغ. أدرك آن ديهاي أنه كان يخشى النسيان. يخشى أن تضيع الكتب وتخونه ذاكرته، فتضيع الحكمة إلى الأبد في غياهب النسيان.

حدّق وانغ دانيو، البستاني الذي عمل مع وي غوليانغ لعقود، في النار بنظرة جامدة. بالكاد رمشت عيناه. لم ينطق بكلمة. عرف آن ديهاي تلك النظرة. الصدمة. العقل الذي ينغلق ليحمي نفسه من واقع مؤلم للغاية يصعب تقبله. لقد رأى تلك النظرة نفسها على وجوه الجنود الذين نجوا من معارك ضارية.

كان سون ياوتينغ، الخصي الشاب الذي تعرض للضرب في اليوم الأول، ولا تزال آثار الكدمات التي بدأت تتحول إلى اللون الأصفر المخضر بادية على وجهه، منكمشًا في زاوية أخرى، وركبتاه مضمومتان إلى صدره، يتمايل ذهابًا وإيابًا بحركة إيقاعية هادئة. كانت عيناه مفتوحتين على اتساعهما، لكنه لم يرَ شيئًا من العالم الحقيقي. كان يُردد لحنًا هادئًا، دائمًا اللحن نفسه، مرارًا وتكرارًا - ربما اللحن الذي كانت أمه تغنيه له عندما كان طفلًا يخاف من الظلام.

انحنى لي ليانبينغ نحو آن ديهاي.

— إنهم في حالة صدمة. جميعهم. لقد شهدنا الكثير من الأهوال في فترة وجيزة. العقل البشري غير مُهيأ لاستيعاب كل هذا العنف والفقدان والدمار في مثل هذه الفترة القصيرة. إنه يتفكك، وينهار ليحمي نفسه.

أومأ آن ديهاي برأسه. شعر هو نفسه بخدر عاطفي بدأ يتسلل إليه، ذلك الانفصال الغريب حيث يراقب جزء منه كل شيء من الخارج، كما لو أن هذه الأحداث تحدث لشخص آخر. كان ذلك دفاعًا نفسيًا ضد واقع مؤلم للغاية يصعب تقبله. لو استسلم للألم دفعة واحدة، لجن جنونه.

جلس قرب النار المركزية، وشعر بدفء النار على وجهه كنعمة بعد ليلة باردة. وتحدث بصوت عالٍ بما يكفي ليسمعه الجميع، فتردد صدى صوته بين جدران الكهف الحجرية.

— أصدقائي، استمعوا إليّ. أعلم أن اليومين الماضيين كانا الأسوأ في حياتنا. ربما أسوأ أيام يمكن أن يمر بها أي إنسان. أعلم أن بعضكم يتساءل: لماذا نستمر؟ ما جدوى البقاء على قيد الحياة وقد ضاع كل ما نعرفه، وكل ما كان يُضفي معنىً على حياتنا قد دُمّر أو سُرق. حتى أحلامنا قد احترقت.

ترك كلماته تتردد في الكهف الصامت قبل أن يكمل حديثه. رفع البعض أعينهم نحوه ببطء، بينما أبقى آخرون نظراتهم مثبتة على الأرض أو على ألسنة اللهب المتراقصة.

ـــ لكنني سأخبركم لماذا ننجو. ننجو لأننا الشهود. نحن من نعرف حقًا ما حدث هنا. ليس الرواية التي سيكتبها المنتصرون في صحفهم البراقة لتبرير أفعالهم. ليس الدعاية التي ستنشرها الحكومات لتهدئة ضمائرها. إنها القصة الحقيقية. قصتنا. قصة أناس عاديين فقدوا كل شيء، لكنهم احتفظوا بإنسانيتهم وكرامتهم وقدرتهم على التذكر والشهادة.

نهض، وبدأ يذرع المكان أمام النار ببطء، وكانت حركاته متعمدة لجذب الانتباه.

ـــ علينا أن نبقى متحدين. هذه هي قوتنا، بل هي قوتنا الوحيدة المتبقية. وعلينا أن نفكر عمليًا في بقائنا الفوري. أقترح تشكيل فرق. فريق للطبخ، بقيادة وانغ تشانغوي - أنت خبير في المؤن والتحضير والنظافة. فريق للأمن والدوريات حول الكهوف، بقيادة تشن مينغدي وتشاو هونغ - أنتما خبيران بالتضاريس، ولديكما تدريب عسكري. فريق لجلب الطعام من القرى المجاورة عندما يكون الوضع آمنًا - ولكن فقط بعد مغادرة الجنود، وليس قبل ذلك. وفريق للعودة إلى القصر لمعرفة ما يجري، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

اعترض تشاو هونغ على الفور، وارتفع صوته إلى نبرة عالية:

ـــ نعود إلى القصر؟ لماذا؟ لنُقتل؟ لقد رأينا ما يكفي من الأهوال! مات وي غولیانغ عبثاً! أتريدوننا أن نموت من أجل أشياء تافهة أيضاً؟

وقف لي ليانييينغ بجانب آن ديهاي، وقد منحه شبابه طاقة لم يعد يمتلكها كبار السن.

ـــ ليشهد على ذلك يا تشاو هونغ. السيد آن محق. وإلا، كيف لنا أن نعرف ما فُقد؟ كيف لنا أن نخبر أبناءنا وأحفادنا بما كان موجودًا قبل الدمار؟ كيف سيعرف التاريخ الحقيقة؟

أومأ آن ديهاي بامتنان للي ليانييينغ.

ـــ سأذهب. كل يوم، ما دام ذلك ممكناً، سأذهب لأراقب، لأدوّن، لأتذكر. هذه مهمتي الأخيرة.

قام لي ليانييغ بتقويم كتفيه.

ـــ سأذهب معك. لا يجب أن تذهب وحدك. عيونٌ اثنان ترى أفضل من عينٍ واحدة، وذاكرتان أكثر موثوقية من ذاكرة واحدة.

ولدهشة الجميع، نهض تسوي يوغوي أيضاً. الشاب الخصي الصامت، الذي بالكاد كان يتكلم ويبدو أنه ينطوي على نفسه، وجد الآن الشجاعة للتطوع.

ـــ وأنا أيضاً. عليّ أن أفعل شيئاً. لا يمكنني الجلوس هنا أنتظر، وأغلي في داخلي، وأكاد أجنّ من الجلوس في الظلام وأنا أفكر في كل ما فقدناه. إذا استطعت المساعدة في الحفاظ على الذكرى... فهذا أفضل من لا شيء. إنه أفضل من ترك كل شيء يختفي وكأنه لم يكن موجوداً قط.

ـــ شكرًا لكما. أنتما أشجع مما تظنان. سنذهب معًا، وسنحمي بعضنا بعضًا. ثلاثة معًا خير من واحد.

أمضوا الساعة التالية في تنظيم الحياة داخل الكهوف بكفاءة مذهلة، تناقضت بشكل صارخ مع اليأس المحيط بهم. شُكّلت فرق، ووُزّعت المسؤوليات بدقة. تولّى وانغ تشانغوي مسؤولية تنظيم الوجبات والمؤن، وأنشأ نظام تذاكر لمنع النزاعات. أنشأ تشن مينغدي وتشاو هونغ نظام مراقبة بنوبات عمل مدتها ساعتان، وإشارات تحذيرية، ومخارج طوارئ. أخيرًا، استفاق تشانغ ييننغهوان من غيبوبته، واقترح البدء بتعليم الشباب القراءة والكتابة والحساب وترديد النصوص الكلاسيكية، للحفاظ على نشاط عقولهم ومنحهم الأمل في مستقبل تُفيدهم فيه هذه المعرفة.

لقد منحت الناس هدفًا يسعون إليه، وشيئًا يركزون عليه يتجاوز آلامهم المباشرة. كانت المنظمة شكلًا من أشكال المقاومة ضد الفوضى، وتأكيدًا على أنهم، رغم كل شيء، ظلوا بشرًا متحضرين.

اقترحت غاو نيانغ، وهي خادمة عجوز كانت وصيفة للقصر وتتمتع بصوت ناعم وحنون، مشاركة الحكايات والذكريات السعيدة عن القصر قبل الدمار.

قوبلت الفكرة بالتردد في البداية، وكأن استحضار السعادة الماضية يزيد من حدة الألم الحالي، ويجعله لا يُطاق. لكن ببطء وحذر، بدأ الناس يتحدثون. كان الأمر أشبه بفتح باب كان مغلقًا لفترة طويلة - صعب في البداية، ثم أصبح أسهل فأسهل.

روى وانغ تشانغوي قصة المرة التي أضاف فيها الملح بدلاً من السكر إلى كعكة عيد ميلاد الإمبراطورة عن طريق الخطأ. أشرق وجهه لأول مرة وهو يروي الحكاية.

— كان ذلك قبل خمسة عشر عامًا. كنتُ صغيراً، وربما كنتُ أثق بنفسي أكثر من اللازم. قيل لي مرارًا وتكرارًا أن أتفقد المكونات، وأن أتذوق الطعام دائمًا قبل تقديمه. لكنني كنتُ في عجلة من أمري ذلك اليوم، فقد كان عليّ تحضير الكثير من الأطباق للوليمة. وثقتُ بحدسي. عندما تناولت الإمبراطورة اللقمة الأولى أمام جميع الحاضرين، رأيتُ وجهها يتغير. توقف قلبي للحظة. ظننتُ أنني سأُعدم في الحال. سمعتُ قصصًا عن طهاة قُطعت رؤوسهم لأسباب أقل من ذلك. لكنها... ضحكت فقط. ضحكة مدوية من القلب أدهشت الجميع. قالت: "هذا يُذكرني بأنني بشرية، معرضة لنفس الأخطاء التي يرتكبها أي شخص آخر. حتى الأباطرة يأكلون الملح أحيانًا بدلًا من السكر". بل إنها أكلت حصتها كاملة حتى لا تُحرجني أمام الآخرين.

انتشرت ضحكات خافتة بين المجموعة، صوت غريب يكاد يكون منسياً في هذا السياق. كان من الجيد الضحك، ولو بخفوت، حتى وإن اختلطت الضحكات بالدموع.

وتحدثت غاو نيانغ، التي تشجعت برد الفعل، عن اليوم الذي رأت فيه الإمبراطور تشيان لونغ وهو يؤلف قصيدة في الحديقة، وكان منغمسًا في إبداعه لدرجة أنه لم يدرك أن المطر قد بدأ بالهطول وأنه كان غارقًا حتى النخاع.

كان ذلك يومًا صيفيًا، ربما قبل خمسين عامًا، كنتُ حينها حديث العهد بالقصر. كان الإمبراطور معروفًا بتأليفه الشعر في أي مكان وزمان. عندما يُلهمه الإبداع، لا شيء آخر يشغله. في ذلك اليوم، جلس تحت شجرة صفصاف على ضفاف البحيرة. تبعه خدمه بالطبع، لكنهم لم يجرؤوا على مقاطعته أثناء تأليفه. كانت تلك هي القاعدة. عندما بدأ المطر - رذاذ خفيف أولًا، ثم وابل غزير - بقينا جميعًا هناك، تحت المطر أيضًا، ننتظر بصبر أن ينتبه. لا بد أنه مكث هناك لنصف ساعة، منغمسًا تمامًا في فرشاته وورقته، بينما ينساب الماء على وجهه، مُبللًا رداءه الإمبراطوري. أخيرًا، رفع رأسه وقال، كما لو كان اكتشافًا عظيمًا: "انظروا، إنها تمطر."

— كنا جميعًا غارقين في الماء حتى النخاع، نرتجف من البرد، لكن لم يضحك أحد. القصيدة التي كتبها - ما زلت أتذكرها - كانت عن الجفاف وضرورة المطر لنمو المحاصيل. ربما استجابت السماء لدعائه.

وتوالت القصص الأخرى، لتنسج معًا نسيجًا معقدًا وجميلًا من الحياة التي كانت سائدة في القصر. وتحدثت لي ليانييينغ عن اليوم الذي هرب فيه طاووس من حظيرته وركض عبر ممرات القصر، مُحدثًا فوضى كوميدية بينما حاول الخدم والحراس الإمساك به دون إيذائه، وكان الطائر يركض بين أرجل الناس، تاركًا ريشه الملون أثرًا في أعقابه.

بعد أن خرج سون ياوتينغ أخيراً من صمته المطبق لأول مرة، روى كيف أعطته والدته تميمة من اليشم قبل أن يغادر إلى القصر في سن العاشرة، وهي تميمة لا يزال يرتديها والتي أصبحت الآن الشيء الوحيد الذي يملكه منها.

— أخبرتني أنها ستفكر بي كل يوم ما دمتُ أرتدي هذه التميمة، وأن حبها سينتقل عبر اليشم ليحميني. لم أكن أعرف إن كان عليّ تصديقها، فقد كنتُ صغيراً وخائفاً. لكنني ارتديتها كل يوم لمدة ست سنوات. وعندما فتشنا الجنود في ذلك اليوم الأول، أخذوا خاتمي، وأخذوا نقودي، لكنهم لم يعثروا على التميمة. كنتُ قد خبأتها في فمي. ما زالت

هناك، على صدري. ربما ما زالت أمي تفكر بي. ربما ما زالت على قيد الحياة.

واحدًا تلو الآخر، تبادلوا ذكرياتهم - لحظات الفرح والحزن، والانتصارات الصغيرة والنكسات، والحياة اليومية الرتيبة والأحداث الاستثنائية. الثلوج الأولى حين تحول القصر بأكمله إلى منظر خلاب. احتفالات رأس السنة بالألعاب النارية والفوانيس الحمراء والولائم التي استمرت لأيام. حفلات زفاف أفراد العائلة الإمبراطورية، مراسم مهيبة حشدت القصر بأكمله لأسابيع. ولادات جلبت الفرح والأمل. ترقيات كافأت سنوات من الخدمة المخلصة. توبيخات أذلت لكنها علمت أيضًا. صداقات غير متوقعة بين أناس من رتب مختلفة. منافسات تافهة بدت مهمة آنذاك لكنها تبدو سخيفة الآن.

الحياة بكل تعقيداتها، وتفاهتها السامية، وجمالها العادي، اختُزلت الآن إلى قصص تُهمس حول نار في كهف بارد ورطب.

أنصت آن ديهاي إلى كل شيء، وأومأ برأسه بين الحين والآخر، مضيفًا أحيانًا ذكرياته الخاصة، ناسجًا الخيوط الفردية في نسيج جماعي. فكر في الملاحظة التي أدلى بها سابقًا: الحفاظ ليس فقط على الأشياء، بل على القصص، والحياة التي عاشها الناس، وإنسانية المكان.

— أترون؟ هذا ما يجب أن نحافظ عليه. تلك اللحظات الصغيرة التي شكلت هويتنا. القصر ليس مجرد جدران رخامية وكنوز ذهبية، بل هو الناس الذين عاشوا فيه، أحبوا، عملوا بجد، حلموا، ضحكوا وبكوا. هم الطهاة الذين كانوا يستيقظون قبل الفجر لإعداد الطعام، والبستانيون الذين أمضوا ساعات جاثمين على ركبهم في التراب، والخصيان الذين كانوا يقطعون أميالاً كل يوم في الممرات، والوصيفات اللواتي كنّ يطرزن لساعات. تلك هي الخسارة الحقيقية، وهذا ما لا يزال بإمكاننا إنقاذه بالتذكر.

كان الفجر يقترب. سمعوا أصواتًا عند مدخل الكهف. تجمد الجميع في أماكنهم، وقد استولى الرعب على كل واحد منهم على الفور. الجنود؟ هل تم اكتشافهم؟

لكن السيدة ليو ومي لين هما من ظهرتا عند المدخل، حيث برزت ظلالهما الداكنة في مقابل السماء التي بدأت تضيء ببطء.

نهض الجميع فجأة. بدت السيدة ليو منهكة، ملابسها ممزقة ومتسخة، وشعرها المصفف بعناية قد انفك، وشعرها الرمادي يتدلى بحرية، لكنها كانت سليمة معافاة، على قيد الحياة. ساندتها مي لين، وساعدتها على المشي، وكادت تحملها في الأمتار الأخيرة. تقدمت المرأتان ببطء، وعلى وجهيهما آثار ألمٍ يتجاوز الجسد، ألمٌ طبع الروح.

اندفع آن ديهاي نحوهم، وقلبه يخفق بشدة.

— يا سيدتي ليو! الحمد لله! كنا قلقين للغاية! كنا سنشكل فريق بحث عند أول بصيص أمل!

انهارت قرب أقرب نار. ناولها أحدهم - وانغ تشانغوي - ماءً، فشربته بنهم. ثم نظرت إلى آن ديهاي، فرأى في عينيها ألماً عميقاً، مطلقاً، بدا وكأنه لا قعر له، كبئر تنحدر إلى مركز الأرض.

— لقد وجدتها. حبيبتي مي فنغ. لقد وجدتها.

شعر آن ديهاي بانقباضة مؤلمة في قلبه. كان يعرف الإجابة مسبقاً حتى قبل أن يطرح السؤال. كان ذلك واضحاً على وجهه، من خلال انحناء كتفيه.

— أين هي؟

لم يعد صوت السيدة ليو سوى همس أجش، متقطعاً بالألم والإرهاق.

— ميتة. في أطلال جناح الانسجام. هي وثماني فتيات أخريات. فتيات صغيرات، جميعهن صغيرات جدًا. هنّ...

انقطع صوتها تماماً. أخذت نفساً عميقاً، محاولةً يائسةً استعادة رباطة جأشها، والحفاظ على مظهر من الكرامة رغم هاوية الألم التي هددت بابتلاعها.

حاولوا الاختباء في الأقبية أسفل الجناح. ظنوا أنهم سيكونون بأمان تحت الأرض، وأن الجنود لن يفكروا في البحث هناك. لكن البرابرة أشعلوا النار في المبنى. أحرقوا كل شيء، بشكل منهجي، غرفة تلو

الأخرى. تسلل الدخان إلى الأقبية. اختنقت الفتيات. وجدناهن... كانت جثثهن... كنّ متجمعات معًا، يحاولن مواساة بعضهن البعض في لحظاتهن الأخيرة.

لم تستطع المواصلة، فانهارت في بكاءٍ مفجع بدا وكأنه يمزق صدرها.

تحدثت مي لين بصوت حازم، مصممة على إنهاء القصة التي لم تعد السيدة ليو قادرة على إكمالها.

— دفنّاهم. لم نستطع تركهم هناك، عرضةً لعوامل الطبيعة، وربما للحيوانات. كانوا يستحقون أفضل من ذلك. وجدنا مكانًا في حديقة الفاوانيا - كانت حديقة مي فنغ المفضلة. كانت تذهب إليها كل ربيع لرؤية الأزهار، وتقضي ساعات هناك، ترسم في دفتر صغير. لم تكن لدينا أدوات مناسبة - فقد صادر الجنود جميع أدوات البستانيين. لم يكن لدينا سوى أيدينا وبعض قطع الخشب التي وجدناها بين الأنقاض. لكننا حفرنا. حفرنا لساعات، حتى نزفت أيدينا، حتى انكسرت أظافرنا. منحناهم على الأقل هذا. دفنًا لائقًا. مكانًا للراحة. قليلًا من الكرامة وسط كل هذه الوحشية.

أخرجت السيدة ليو شيئاً من كمها – دبوس شعر فضي، مصنوع بدقة بنقش زهرة البرقوق. أمسكته أمامها كتميمة، الشيء المادي الوحيد المتبقي من ابنتها.

— كانت هذه الدبابيس تخص ابنتي مي فنغ. أهديتها إياها في عيد ميلادها السادس عشر. كان هذا تقليدًا في عائلتي - تُهدي الأمهات بناتهن دبابيس الشعر عندما يبلغن سن الرشد، كرمز لبلوغهن. كانت ترتديها دائمًا، حتى أثناء النوم. كانت تقول إنها تميمة حظها، وأنها ستحميها من الأذى. هذا كل ما تبقى منها الآن. دبوس شعر فضي. تسعة عشر عامًا من الحياة، اختُزلت إلى هذه القطعة.

أمسكت به بإحكام شديد حتى أصبحت مفاصل أصابعها بيضاء، وقبضت أصابعها كالمخالب.

لم يعرف أحد ما يقول. ماذا يمكن للمرء أن يقول أمام هذه الخسارة، هذا الحزن؟ بدت الكلمات قاصرة، بل تكاد تكون مهينة لعجزها. طال الصمت، مثقلاً بالحزن المشترك.

وأخيرًا، نهض تشانغ ييِنغهوان. وضع أمين المكتبة العجوز كتبه الثمينة باحترام على حجر مسطح. ثم اقترب من السيدة ليو وجثا أمامها بصعوبة، وسمع صوت طقطقة ركبتيه. وبدأ يتلو سوترا بوذية تتحدث عن زوال الحياة، وتحرر الروح من المعاناة الدنيوية، ودورة الكارما، والولادة الجديدة.

ملأت الكلمات القديمة الكهف، تردد صداها بين جدرانه الحجرية، فخلقت تناغماً طبيعياً. كان لحناً عزّى أجيالاً لا حصر لها من الحزانى، وجسراً يربط بين الأحياء والأموات.

عندما انتهى من السوترا الأولى، انضم إليه آخرون تلقائيًا. أنشد بعضهم سوترا أخرى يعرفونها، بينما أنشد آخرون قصائد عن الفقد والذكرى. أما من لم يعرفوا الكلمات بالضبط، فقد اكتفوا بالترنيم، فخلقوا تناغمًا جماعيًا من الحزن المشترك، حوّل اليأس الفردي إلى شيء أعظم، وأكثر احتمالًا، يكاد يكون ساميًا.

كان الصوت جميلاً بشكل غريب رغم حزنه - رثاء جماعي جمع كل خسائرهم الفردية في أغنية واحدة للتذكر والمقاومة ضد النسيان.

عندما خيّم الصمت أخيراً، صمتٌ ثقيلٌ ومهيب، خاطبت السيدة ليو الحضور. كانت قد مسحت دموعها بطرف كمّها. وعلى الرغم من أن الحزن قد أثقل وجهها، إلا أنه أظهر عزيمةً جديدةً، وإصراراً لم يكن موجوداً من قبل.

— شكرًا لكم. شكرًا لكم جميعًا على دعواتكم، وعلى تعاطفكم. الآن أعرف. أستطيع البكاء، أستطيع الحزن، أستطيع تحمل ألمي، لكنني أعرف. لم يعد الشك يمزقني. وبطريقة ما، رغم هول الأمر، هذا أفضل من الشك. الأمل عذابٌ حين ينعدم سبب الأمل. الآن أستطيع أن أبدأ بالتقبّل، حتى لو استغرق التقبّل بقية حياتي.

حدقت في آن ديهاي بعينيها المحمرتين، وبنظرة حادة جديدة.

— السيد آن مُحِقّ. يجب أن نشهد. يجب أن نتذكر. ما مي فنغ والفتيات الثماني الأخريات - يجب ألا يُنسين. يجب ألا يكنّ مجرد أرقام في تقرير عسكري، أرقامًا بلا هوية. كان لديهن أسماء، وأحلام، وعائلات أحبتهن. أرادت مي فنغ الزواج، وإنجاب الأطفال، وربما أن تصبح شاعرة. كتبت قصائد جميلة عن الزهور. كل من ماتوا في الأيام الأخيرة - يجب ذكر أسمائهم، وتذكرهم، وتكريمهم.

اقترب منها آن ديهاي وأمسك يديها، وتحسس التصلبات الجديدة والجروح والدم الجاف من القبر الذي حفرته.

— سيكونون كذلك. أعدكم بذلك رسميًا. سنُعدّ قائمة شاملة بأسماء كل من نعرفهم ممن فارقوا الحياة. ستُحفظ أسماؤهم، وتُسجّل بعناية، وتُصان. ستبقى ذكراهم خالدة ما دمنا أحياء. وسننقل هذه الذكرى إلى أبنائنا، وسينقلونها بدورهم إلى أبنائهم. لن تنقطع هذه السلسلة.

في تلك الليلة، غلب النعاس معظم الآخرين، منهكين جسديًا ونفسيًا. أما آن ديهاي فبقي مستيقظًا. وعلى ضوء مصباح زيتي صغير وضعه بعناية حتى لا يزعج أحدًا، بدأ ما سيصبح عمل حياته، ووصيته، ومساهمته الأخيرة في التاريخ: سجل المفقودين.

على أوراقٍ انتشلها من القصر - ورق أرز عالي الجودة، سميك ومتين، قوي بما يكفي ليدوم قرونًا إذا حُفظ جيدًا وحُمي من الرطوبة - بدأ يكتب أسماء كل من عرف أنهم ماتوا. استخدم أفضل فرشاته، تلك التي استعادها من أنقاض مكتبه، وحبرًا مزجه بنفسه وفقًا للوصفة التقليدية التي تعلمها: سخام الصنوبر المحروق، وغراء حيواني، وقليل من المسك للعطر.

رُسم كل حرف بعناية فائقة، كدعاءٍ نُقش على الحجر. تحركت يده ببطء وتأنٍ، محولةً كل اسم إلى شكلٍ من أشكال فن الخط. لم يكن مجرد سجلّ، بل كان نصبًا تذكاريًا.

الاسم الأول الذي كتبه:

"كان وي غولينغ، كبير البستانيين في جناح السحابة الثمينة، يبلغ من العمر حوالي خمسة وستين عامًا، من قرية شيانغشان في مقاطعة خبي.

عمل في القصر الصيفي لمدة سبعة وأربعين عامًا. كان متخصصًا في أشجار البرقوق والفاوانيا، وقد أنشأ بستان البرقوق بالقرب من جناح الانسجام عام 1832، بعد ثمانية وعشرين عامًا من العناية الدؤوبة. تزوج من السيدة وانغ (التي توفيت عام 1855)، وأنجب ثلاثة أبناء بالغين، أكبرهم كان مزارعًا في شيانغشان. كان يستمتع بالغناء أثناء عمله، وخاصة الأغاني الشعبية من شبابه. اشتهر بمحادثته لنباتاته كما لو كانت أطفالًا. كان يعرف الاسم العلمي لكل زهرة في القصر. وكثيرًا ما كان يقول: "البستاني يزرع للمستقبل، لأناس لن يعرفهم أبدًا". قُتل دون استفزاز على يد جنود بريطانيين في 19 أكتوبر 1860، بالقرب من جناح السحابة الثمينة. جريمته: الفرار، ربما لحماية بذوره. الشاهد: آن ديهاي وأربعة آخرون. رحم الله الفقيد."

ثم الاسم الثاني:

"مي فنغ، خادمة في جناح الانسجام، تبلغ من العمر تسعة عشر عامًا، الابنة الوحيدة للسيدة ليو (إحدى وصيفات الإمبراطور). وُلدت في بكين في الخامس عشر من الشهر الثالث من التقويم القمري عام ١٨٤١. عملت في القصر منذ الرابعة عشرة من عمرها. كانت لطيفة، خجولة، ورشيقة في حركاتها. أحبت رسم الزهور، وخاصة الفاوانيا - فقد ملأت ثلاثة كراسات رسم. حلمت بالزواج، وإنجاب الأطفال، وربما أن تصبح شاعرة. كتبت قصائد عن الطبيعة، كانت تُلقيها أحيانًا على والدتها. كانت ترتدي دائمًا دبوس الشعر الفضي الذي أهدته إياها والدتها في عيد ميلادها السادس عشر. توفيت اختناقًا في حريق جناح الانسجام في التاسع عشر أو العشرين من أكتوبر عام ١٨٦٠، مع ثماني شابات أخريات تتراوح أعمارهن بين الخامسة عشرة والعشرين. اختبأن في الأقبية، ظنًا منهن أنهن في مأمن. دُفنت في حديقة الفاوانيا على يد والدتها ومي لين." رحم الله روحها.

الاسم الثالث:

"لي مي، خادمة، في الخامسة عشرة من عمرها. يتيمة، لا يُعرف لها عائلة على قيد الحياة. شعرها أسود طويل كانت تضفره بعناية كل صباح. صوتها ناعم، وضحكتها خجولة. كانت تحلم برؤية البحر، الذي لم تره قط. كانت تجمع الأحجار المصقولة من البحيرة. اختبأت في خزانة ملابس في مسكن المحظيات. عثر عليها الجنود. اغتُصبت. قُتلت. اكتشفت جثتها السيدة ليو وجماعتها. لا عائلة تحزن على موتها إلا نحن الذين عرفناها. لعل بوذا يحول معاناتها إلى حكمة في حياتها القادمة."

وهكذا دواليك. كل اسم مصحوب بكل ما عرفه آن ديهاي أو استطاع اكتشافه عن ذلك الشخص - عمره الدقيق إن أمكن، وإلا تقديرًا، ومنصبه في التسلسل الهرمي للقصر، وأصوله الجغرافية، وعائلاته، وشغفه، وعاداته اليومية، وأسلوب كلامه، ومخاوفه، وأفراحه، وأحلامه للمستقبل. ليس فقط كيف ماتوا - تلك المعلومة المروعة ولكن الضرورية - ولكن قبل كل شيء، كيف عاشوا. من كانوا عندما كانوا أحياء، يتنفسون، يضحكون، يبكون، يحبون.

جاء لي ليانييغ، الذي كان مستيقظاً أيضاً - كيف استطاع النوم بعد كل ما رأوه؟ - وجلس بصمت بجانبه. راقب آن ديهاي وهو يكتب لعدة دقائق قبل أن يتكلم.

— أنت تكتب قصصهم كاملة. ليس فقط أسماءهم.

— نعم. لأن الأسماء وحدها لا تكفي. الاسم بلا قصة مجرد صوت أجوف. أما الاسم الذي يحمل قصة، فهو شخص يا لياني‌ينغ. شخص حقيقي عاش، شعر، وساهم في العالم بطريقته الخاصة. ما كان عليه، لا مجرد كيف مات. هذا مهم. هذا جوهري. الموت حقيقة عالمية، بل شائعة. كلنا نموت، دائمًا، منذ فجر التاريخ. لكن الحياة - الطريقة التي عاش بها كل شخص، وما أحب، ومن كان في أصدق لحظاته - هي ما يميزنا. لا تُعوَّض. هذا ما يستحق الحفاظ عليه. هذا ما يجعلنا بشرًا.

انضم إليهم آخرون تدريجياً، إما بسبب أصواتهم الخافتة أو لأنهم لم يتمكنوا من النوم. وتحدث وانغ تشانغوي عن مساعده في الطبخ، شاب

يدعى ليو يانغ، يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً، والذي كان يحلم بافتتاح مطعمه الخاص يوماً ما، والذي كان يصنع أفضل أنواع الزلابية في بكين بأكملها - وهو سر عائلي توارثته ثلاثة أجيال.

تذكرت غاو نيانغ خادمة زميلة لها تُدعى شياو تشينغ، كانت تغني دائمًا أثناء عملها، وكان صوتها العذب يتردد في الممرات، جالبًا البهجة حتى في أصعب الأيام. قُتلت في اليوم الأول، بعد أن أُلقي القبض عليها وهي تحاول الهرب بحقيبة ملابس صغيرة.

تحدث سون ياوتينغ بحزن عن صديق خصي يُدعى وانغ مينغ، يبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، والذي تقاسم معه السكن لمدة عامين. أُسر وانغ مينغ في اليوم الأول بينما كان يحاول حماية خادمة عجوز لم تعد قادرة على الركض. لم يُرَ منذ ذلك الحين - ربما مات، لكن لا شيء مؤكد، وهو ما قد يكون أسوأ من معرفة الحقيقة.

عملوا حتى ساعات متأخرة من الليل، هؤلاء الحراس غير المقصودين للذاكرة، يصنعون نصبًا تذكاريًا من الورق والحبر لأولئك الذين لن يكون لهم شواهد قبور، أو معابد أجداد، أو أحفاد يحرقون البخور تخليدًا لذكراهم. كل اسم يُضاف كان بمثابة مقاومة للنسيان، وإعلانًا بأن هذه الأرواح كانت ذات قيمة، وأن خسارتهم كانت جسيمة، وأنهم لن يُمحوا من التاريخ كما لو أنهم لم يكونوا موجودين أبدًا.

عندما وضع آن ديهاي فرشاته أخيرًا، وعيناه تحرقانه من الإرهاق، ويده منهكة من الإمساك بها لساعات، كان قد ملأ ثلاثين صفحة كاملة بالأسماء والقصص. ثلاثة وستون شخصًا. ثلاثة وستون حياة موثقة، محفوظة، ومُكرّمة. كانت تلك مجرد البداية - سيكون هناك المزيد في الأيام القادمة. لكنها كانت بداية. خطوة أولى ضد النسيان.

21 أكتوبر 1860، القصر الصيفي

في صباح اليوم التالي، عاد كل من آن ديهاي ولي ليانييينغ وتسوي يوغوي بحذر إلى القصر. أو بالأحرى، إلى ما تبقى منه.

استغرقت الرحلة من الكهوف نحو ساعة سيرًا على الأقدام عبر التلال المشجرة. تقدموا بحذر، وكثيرًا ما كانوا يتوقفون خلف الأشجار أو الصخور للاستماع والمراقبة والتأكد من عدم وجود دوريات قريبة. بدت المناظر الطبيعية المألوفة غريبة الآن، وقد غيّرتها المأساة. ما زالت الطيور غائبة، وكان صمتها أشدّ وقعًا من تغريدها المعتاد. أما الحيوانات الصغيرة التي كانت تهرول عادةً بين الشجيرات فقد فرّت إلى مناطق أكثر أمانًا. لم يكن هناك سوى الريح تهمس بحزن بين الأشجار العارية، حاملةً معها رائحة الدخان الكريهة العالقة.

كان التحول الذي طرأ في غضون أربعة أيام فقط مذهلاً، يكاد لا يُصدق لمن لم يشهد التقدم اليومي. كان آن ديهاي قد رأى القصر آخر مرة قبل يومين. كان القصر متضرراً بشدة بالفعل، لكنه كان لا يزال معروفاً، ولا يزال من الممكن التعرف عليه كمكان عرفه. الآن...

حيث كان القصر الصيفي موجوداً في السابق بكل عظمته الإمبراطورية - مائة وخمسون هكتاراً من الحدائق المصممة بدقة، وأكثر من ثلاثة آلاف غرفة موزعة على مئات المباني والأجنحة المتصلة ببعضها البعض، ومجموعات فنية جمعها الأباطرة المتذوقون بعناية على مر القرون - لم يتبق سوى منظر قمري من الأنقاض المتصاعدة منها الأدخنة والتي تمتد إلى أبعد مدى يمكن أن تراه العين.

اختفت مبانٍ بأكملها تمامًا، التهمتها النيران حتى أساساتها، ولم يتبق منها سوى مربعات متفحمة في الأرض ومداخن وحيدة تقف كأصابع اتهام تشير إلى سماء غير مبالية. أما مبانٍ أخرى، فلم تكن سوى هياكل فارغة، انهارت أسطحها التي كانت مزينة برسومات جميلة إلى أكوام من البلاط المكسور، وجدرانها المتفحمة تقف بشكل هش، مهددة بالانهيار مع أدنى نسمة هواء. علق الدخان في كل مكان كضباب سام كثيف، قلل الرؤية إلى بضعة عشرات من الأمتار، وجعل كل نفس مؤلمًا، مهيجًا العينين والحلق.

اضطر آن ديهاي للتوقف للحظة، وقد غمره هول الدمار. لم تعد ساقاه قادرتين على حمله. جلس على حجر، ووضع رأسه بين يديه، محاولاً

كبح جماح بكائه الذي كاد أن يبتلعه. لقد كرّس حياته كلها لهذا المكان. والآن...

أخذ لي ليانيينغ يده.

— يا سيدي، يجب أن نواصل. لهذا السبب جئنا. لنرى. لنشهد.

أومأ آن ديهاي برأسه، مستعيداً رباطة جأشه. كان الشاب محقاً. مسح دموعه ووقف، مستخدماً ساقيه لحمله.

تحركوا بصمت عبر المشهد المروع، كأشباح تسكن أطلال حياتهم السابقة. دوّن آن ديهاي في ذهنه كل ما رآه، راسماً خريطة للدمار في ذاكرته - المباني التي اختفت تماماً، والمباني التي بقيت سليمة جزئياً، وأماكن تخزين الكنوز قبل سرقتها، والمسارات التي سلكها اللصوص. بين الحين والآخر، كان يُخرج ورقته وفرشاته ليسجل بعض الملاحظات السريعة.

اكتشفوا أن الجيشين البريطاني والفرنسي قد أسسا نظامًا منظمًا بشكل لافت لنهب الغنائم. لم يكن الأمر فوضى كما قد يتصور المرء، بل عملية عسكرية مُخططة بدقة. خُصصت مناطق جغرافية محددة لأفواج مختلفة - سيطر الفرنسيون بشكل أساسي على القطاع الشرقي من القصر، والبريطانيون على القطاع الغربي. أشرف الضباط على عمليات النهب، وسجلوا بيانات مفصلة، وضمنوا توزيع الغنائم بشكل عادل بين الوحدات وفقًا لنظام حصص. هذا ما جعل الأمر أكثر بشاعة - لم تكن فوضى جنود هاربين يفقدون السيطرة، بل عملية مُخططة ومنفذة بكفاءة باردة كآلة مُحكمة الصنع.

في ما تبقى من جناح بحر الحكمة - الجدران الخارجية لا تزال قائمة، لكن السقف انهار تمامًا، تاركًا فجوة مفتوحة على السماء - وجدوا مجموعة من الجنود البريطانيين يحزمون بعناية تماثيل بوذية برونزية. وكان ضابط ملتحٍ يطّلع على كتاب سميك بدا وكأنه فهرس فني، يدون بدقة ملاحظات باللغة الإنجليزية على كل قطعة، وهي ملاحظات لم يستطع آن ديهاي قراءتها.

اقترب بحذر، وسمع صوت خطواته وهي تدوس على الحطام المتناثر على الأرض. رفع الضابط رأسه وعقد حاجبيه، وتحركت يده لا شعورياً نحو المسدس المعلق على حزامه.

— من أنت؟ ماذا تفعل هنا؟ هذا المكان تحت السيطرة العسكرية البريطانية. لا يُسمح للمدنيين الصينيين بالتواجد هنا.

كانت لغة الضابط الإنجليزية دقيقة ومتعلمة، لغة رجل نبيل ربما من عائلة مرموقة.

انحنى آن ديهاي قليلاً بالتقدير الذي تعلمه.

— كنت أعمل هنا. في القصر. أعرف هذه المباني، وهذه التماثيل. كنت مسؤولاً عن الجرد.

قام الضابط بفحصه باهتمام أكبر الآن، وكانت عيناه تُقيّمانه وتُحسبانه.

— أنت أحد خصيان القصر، أليس كذلك؟ لقد سمعت عن نظامك. إنه أمر مثير للاهتمام من وجهة نظر أنثروبولوجية.

— نعم سيدي. أنا خصي. وأود التحدث إليك بشأن هذه التماثيل.

فكر الضابط في الاقتراح للحظة.

— همم. يمكنك بالفعل أن تفيدني. هل يمكنك إخباري بعمر هذه القطع البرونزية؟ وما هي أهميتها التاريخية والدينية؟

حدق آن ديهاي في التماثيل التي كان الجنود يلفونها بالقماش والقش. كان يعرف هذه التمثيلات المقدسة جيدًا: البوديساتفا الثلاثة الرئيسيين في بوذية ماهايانا: أفالوكيتشفارا، بوديساتفا الرحمة؛ مانجوشري، بوديساتفا الحكمة؛ وسامانتابادرا، بوديساتفا الممارسة الفاضلة.

— صُنعت هذه التماثيل خلال عهد أسرة تانغ، سيدي، قبل حوالي ألف ومائتي عام. وقد أمر بصنعها الإمبراطور تايزونغ لمعبد بوذي هام. وعندما دُمّر المعبد خلال الاضطهادات الكبرى ضد البوذية في عهد الإمبراطور ووزونغ، أنقذها رهبان شجعان خاطروا بحياتهم. وظلت مخبأة في كهوف لعقود. ثم أُعيد اكتشافها وحُفظت في المجموعات الإمبراطورية. وهي تُمثل...

لقد بحث عن كلماته باللغة الإنجليزية، محاولاً ترجمة المفاهيم البوذية المعقدة إلى لغة أجنبية.

ـــ إنها تمثل الكائنات البوذية المقدسة، البوديساتفا. هؤلاء كائنات بلغت التنوير الكامل، وكان بإمكانهم دخول النيرفانا والنجاة من دوامة المعاناة، لكنهم اختاروا البقاء في العالم لمساعدة جميع الكائنات الحية على بلوغ التنوير. إنهم مقدسون للغاية لدى الشعب الصيني. وقد صلى الملايين أمام هذه التماثيل لقرون. إنهم يمثلون أسمى التطلعات الروحية لحضارتنا.

دوّن الضابط ملاحظاته بعناية في دفتره، وقلمه يخدش الورق.

ـــ سلالة تانغ. عمرها ألف ومائتا عام. ذات أهمية دينية بالغة. رائعة. ستُرسل هذه القطع إلى المتحف البريطاني في لندن. ستُعرض بشكلٍ لائق في خزانة مُحكمة المناخ، وسيتولى الخبراء صيانتها، وسيدرسها الباحثون دراسةً وافية. سيشاهدها ملايين الزوار الذين سيتمكنون من تقدير الفن الصيني القديم. هذا أفضل بكثير من تركها هنا لتتلف بفعل النار أو عوامل التعرية، أو ما هو أسوأ، بسبب جهل شعبكم الذي قد لا يُدرك قيمتها.

شعر آن ديهاي بالغضب المألوف يتصاعد داخله كالموج.

ـــ أنت من أشعلت النار بنفسك يا سيدي. أنت وحلفاؤك الفرنسيون. أنتم تدمرون القصر بكفاءة ملحوظة. وتدّعون أنكم تنقذون التماثيل من الحريق الذي أشعلتموه بأنفسكم. هذا...

بحث عن الكلمة باللغة الإنجليزية، حتى وجد في النهاية الكلمة التي تجسد تماماً العبث الأخلاقي.

ـــ هذا نفاق من أسوأ الأنواع. إنه مثل رجل يشعل النار في منزل ثم يتباهى بإنقاذ الأطفال من النيران التي أشعلها بنفسه.

تصلب وجه الضابط بشكل واضح، واحمر وجهه غضباً أو ربما خجلاً.

ـــ نحن ننفذ أوامر اللورد إلجين. أنا لستُ متورطاً في سياسة الإمبراطورية. أنا مجرد جندي أؤدي واجبي تجاه الملكة وإنجلترا.

— كل جندي يقول هذا بالضبط يا سيدي. "أنا فقط أنفذ الأوامر. أنا فقط أقوم بواجبي. هذه ليست مسؤوليتي." لكن لا بد من وجود شخص مسؤول عن كل هذا. إذا كان الجميع ينفذون الأوامر دون تفكير، ودون التساؤل عن أخلاقية تلك الأوامر، فمن المسؤول حقًا؟ ماذا يمكن أن نسمي هذا إلا جريمة منظمة على نطاق دولي؟

لم يرد الضابط على الفور. أغلق كتابه بقوة واستدار، ناظراً إلى التماثيل المقدسة التي كان رجاله يجمعونها كما لو كانت بضائع عادية.

— انتهى هذا الحديث. يمكنك المغادرة. واعتبر نفسك محظوظاً لأنني رجل مهذب. ضباط آخرون كانوا سيطلقون النار عليك بسبب وقاحتك.

انحنى آن ديهاي بسخرية بالكاد تخفيها.

— شكراً لك على "حضارتك" يا سيدي. سيحكم التاريخ على من كان متحضراً حقاً في هذا الأمر.

وبينما كانوا يبتعدون عن الجناح المدمر، تنفس لي ليانييينغ بهدوء، وكان صوته متوتراً من القلق:

— يا سيد آن، أنت تخاطر كثيراً بالتحدث بهذه الطريقة. إذا أغضبت هؤلاء الرجال، فقد يقتلونك دون تردد. خصي صيني آخر، من سيهتم؟ لن يسأل أحد أي أسئلة.

واصل آن ديهاي سيره، وظهره متصلب من الغضب والكبرياء المجروح.

— أعلم أنني أخاطر يا ليانييينغ، لكن لا يسعني السكوت. لا يمكنني أن أشاهدهم يسرقون تراثنا ويتظاهرون بأنهم يقدمون لنا معروفًا، وأنهم "يحافظون" على ثقافتنا بسرقتها، وأنهم "يُحضّروننا" بتدمير حضارتنا. النفاق لا يُطاق. على الأقل، أريدهم أن يعلموا أننا لسنا منخدعين، وأننا نُدرك زيف تبريراتهم.

— لكننا عاجزون تماماً أمامهم جسدياً. كلماتنا لا تغير الواقع.

توقف آن ديهاي والتفت نحو الشاب.

— جسديًا، نعم، نحن عاجزون تمامًا. لديهم البنادق والمدافع والقوة العسكرية. لكن أخلاقيًا؟ أخلاقيًا، نحن متفوقون، وأريدهم أن يدركوا ذلك. أريدهم أن يشعروا بثقل عار ما يفعلونه، حتى لو لم يعترفوا به علنًا، حتى لو برروا أفعالهم في تقاريرهم الرسمية. أريد أن أزرع بذرة شك في عقولهم. ربما بعد عشر سنوات، أو عشرين سنة، عندما يتقدم بهم العمر وينظرون إلى الوراء لما فعلوه هنا، سيشعرون بذلك العار. إنه ليس بالكثير، ولكنه كل ما أملكه من أسلحة.

واصلوا استكشافهم المؤلم للقصر المدمر. في كل جناح زاروه، كان المشهد نفسه يتكرر ويفطر القلب: كنوز مُعبأة بعناية للتصدير إلى أوروبا، وحطام ما اعتُبر عاديًا جدًا للسرقة، ولكنه في الوقت نفسه جميل جدًا لدرجة لا يمكن تركه دون مساس، وآثار حريق في كل مكان كندوب على جسد مُعذَّب. كانت الأرض مُغطاة بشظايا تُصدر صوت طقطقة تحت أقدامهم - قطع من خزف مينغ تحولت إلى شظايا لا قيمة لها، وقطع قماش محترقة كانت أردية إمبراطورية مُطرزة على مدى شهور، وصفحات ممزقة من كتب قديمة كانت الرياح تُبعثرها ببطء.

كان آن ديهاي ينحني أحيانًا ليلتقط هذه الشظايا. حتى الشظايا كانت لها قيمة كشهادات، كبرهان على ما كان موجودًا.

داخل المكتبة الكبرى، كان المشهد أكثر رعبًا مما تخيله في زيارته الأخيرة. فقد أُفرغت المكتبة تمامًا من محتوياتها. لم يتبق من آلاف الكتب سوى رماد رمادي ناعم يصل إلى الكاحل، يتطاير مع أدنى نسمة هواء كالثلج الأسود. أما رفوف الأخشاب الثمينة - خشب الصندل، والأبنوس، وخشب الورد - فقد احترقت، ولم يتبق منها سوى مسامير ملتوية ومشغولات حديدية مشوهة بفعل درجات الحرارة القصوى. ولم يبقَ سوى عدد قليل من الجدران الحجرية، سوداء من السخام، متشققة من الحرارة كجلد محروق.

انحنى تسوي يوغوي والتقط برفق صفحة نصف محترقة من كتاب قديم. كانت الورقة هشة، قابلة للتفتت، تكاد تتفتت عند أدنى لمسة خشنة. بقيت بعض الأحرف مقروءة على الجانب الذي نجا من اللهب:

"...يدرك الحكيم أن المعرفة كنز لا يُسرق، وثروة لا تُحرق، وإرث لا..." أما الباقي فقد اختفى في اللهب، واختفت معه نهاية الفكرة.

هذا كل ما تبقى من تلك الحكمة. آلاف السنين من الفكر الفلسفي، ومئات الآلاف من الكتب المنسوخة يدويًا بعناية فائقة، ونصوص فريدة لم تكن موجودة في أي مكان آخر في العالم... اختُزلت إلى بضعة أحرف متناثرة على صفحة محترقة. كأن جزءًا من الروح الإنسانية نفسها قد احترق.

أخذ آن ديهاي الصفحة بحرص شديد، وتعامل معها كما لو كانت شيئًا مقدسًا، ووضعها بين ورقتين سليمتين لحمايتها.

— حتى قطعة صغيرة لها قيمة عظيمة. إنها دليل ملموس. سيأتي يوم يرى فيه أحدهم هذا ويدرك حقًا حجم الخسارة التي مُنينا بها. الأرقام الواردة في التقارير الرسمية لا تكفي. نحن بحاجة إلى أدلة مادية، أشياء يمكن لمسها، والشعور بها، ورؤيتها.

أمضوا ساعاتٍ في الاستكشاف، يستذكرون الماضي بألم، ويوثقون كل ما استطاعوا. كان عملاً مرهقاً ذهنياً وعاطفياً. كل منعطف كان يكشف عن دمار جديد، وخسارة جديدة تزيد من العبء الذي لا يُطاق أصلاً. لكنهم ثابروا، مدفوعين بإحساس بالواجب يتجاوز الألم المباشر.

عند الظهيرة، وقد أنهكهم التعب، جلسوا على ضفاف بحيرة فوهي ليستريحوا لبضع دقائق. كانت البحيرة، التي كانت زرقاء صافية كصفاء الكريستال، لدرجة أن الأسماك كانت تُرى تسبح على عمق أمتار تحت سطحها، مغطاة الآن بطبقة سميكة من الحطام العائم. أشياء اعتبرها اللصوص ثقيلة جدًا أو ضخمة جدًا أو غير ذات قيمة كافية لحملها، تطفو بحزن على الماء العكر: قطع من الأثاث الخشبي المنحوت استغرق صنعها شهورًا، وشظايا من الخزف كانت في يوم من الأيام مزهريات رائعة، وأردية ممزقة متناثرة كالجثث، وألواح زخرفية محطمة. بعض أسماك الكوي، تلك التي نجت بأعجوبة من الفوضى، تسبح ببطء بين الحطام، حركاتها مشوشة وخاملة، كما لو كانت هي الأخرى في حالة صدمة.

تأملت لي ليانيينغ في الكارثة المائية.

ـــ كانت في غاية الروعة. أتذكر مهرجانات الصيف عندما بدأت العمل هنا. قوارب التنين على البحيرة، هياكلها مطلية بالأحمر والذهبي، تتلألأ ببراعة تحت أشعة الشمس. المجذفون يغنون بإيقاع متناغم. جسور الرخام الأبيض التي تمتد فوق الماء كأقواس قزح متلألئة. الأجنحة تنعكس على سطح الماء الساكن كلوحات فنية مثالية، شديدة الوضوح لدرجة يصعب معها التمييز بين الواقع والانعكاس. الفوانيس ليلاً، تطفو على الماء كنجوم تساقطت من السماء. زهور اللوتس الوردية في الصيف، تغطي السطح بسجادة من الزهور الحية. والآن... أصبحت مقبرة. مقبرة مفتوحة لحضارة مندثرة.

لم يستطع آن ديهاي سوى الإيماء ببطء. خانته الكلمات. بدا أي وصف غير كافٍ أمام هذا الدمار الشامل.

فجأة، تصلب تسوي يوغوي، وأشار بإصبعه بتكتم.

ـــ انظر. هناك، في الأنقاض. هناك من يتحرك.

رأوا شخصًا يتحرك بخفة بين أنقاض جناح قريب، يرفع الحجارة وقطع الخشب، ويبحث عن شيء ما بحركات يائسة.

ـــ لقد بقي شخص آخر أو عاد. ربما ناجٍ آخر. يجب أن نذهب ونرى. ربما يحتاجون إلى مساعدة. ربما يكونون مصابين.

اقتربوا بحذر، متوخين الحذر حتى لا يفزعوا الشخص فجأة. اتضح أن الشخص امرأة شابة ترتدي ملابس متسخة ممزقة، ربما كانت في يوم من الأيام ثوب خادمة. كان وجهها ملطخًا بالسخام الأسود، وشعرها أشعث ومربوطًا للخلف بعنف. كانت تبحث عن شيء ما بين الأنقاض بعزيمة شبه جنونية، ترفع الحجارة رغم أن يديها تنزفان من جروح متعددة.

سعل آن ديهاي بهدوء للإشارة إلى وجودهم دون إخافتها.

استدارت المرأة فجأةً، وقد ارتجفت خوفاً، واتسعت عيناها كعيون حيوانٍ مطارد. ثم، عندما رأت أنهم صينيون، وأن ملابسهم تدل على

أنهم خدم قصر وليسوا جنوداً، بدت وكأنها استرخت قليلاً، على الرغم من أن عدم الثقة ظل واضحاً في نظرتها وتوتر جسدها.

— من هنا؟ ألستم جنوداً؟

— لا، نحن خدم القصر. عشنا وعملنا هنا من قبل... قبل كل هذا. من أنتم؟

ترددت المرأة لفترة طويلة قبل أن تجيب:

— اسمي تشين يو. كنت خادمة في جناح الانسجام، مثل أختي الصغيرة. عندما جاء الجنود قبل أربعة أيام - أم خمسة الآن؟ لقد فقدتُ الإحساس بالوقت - اختبأتُ في المطابخ تحت الأرض. كان هناك مخزن سري للإمدادات الطارئة لم يكن يعرفه إلا القليل. مكان ضيق، مظلم، ورطب. مكثتُ هناك يومين كاملين بلا طعام أو ماء، كنتُ مرعوبة لدرجة أنني لم أستطع حتى الخروج لشرب الماء. كنتُ أنتظر فقط أن يعثروا عليّ ويقتلوني.

— المطابخ تحت الأرض. بالطبع. هكذا نجوت من حريق الجناح. لم تصل النيران إلى ذلك الحد. كنت محظوظًا في مصيبتك.

— محظوظ؟ سمعت كل شيء ليومين. كل صرخة، كل استغاثة، كل طلقة نارية. صرخات أصدقائي حين عثر عليهم الجنود. أزيز النيران وهي تلتهم المبنى فوق رأسي. انهيار العوارض. تهاوي الجدران. ليومين، كنت وحيدًا في ظلام دامس، مرعوبًا، لا أجرؤ على الخروج، أستمع إلى عالمي كله وهو يُدمر فوقي. أحيانًا كنت أسمع أصواتًا فرنسية أو إنجليزية من فوقي مباشرة، يفصلني عنها بضع بوصات من الخشب. كان الأمر أشبه بالجحيم، محبوسًا حيًا في قبر. ربما كان الموت السريع أسهل، أرحم.

أدرك آن ديهاي هذا الألم على الفور. أحيانًا، يكون البقاء على قيد الحياة أصعب بكثير من الموت. يحمل الناجون عبء كل ما رأوه، وكل من لم يتمكنوا من إنقاذه.

— أنت على قيد الحياة. هذا هو المهم الآن. ما الذي تبحث عنه هنا؟

امتلأت عينا تشين يو بالدموع التي انهمرت بغزارة، تاركةً أخاديد نظيفة على خديها المتسختين.

— أختي. أختي الصغيرة، تشين مي. كانت في الخامسة عشرة من عمرها فقط. كانت تعمل هنا أيضًا، في الحدائق. كانت تعشق الزهور، وتقضي ساعات في رسمها. كان من المفترض أن نلتقي قرب جسر اليشم في اليوم الأول، عندما بدأ كل شيء. كان هذا هو مكان لقائنا في حالة الطوارئ - اتفقنا عليه معًا عندما سمعنا عن اقتراب الجيوش الأجنبية. لكنني لم أجدها في ذلك اليوم. حدث كل شيء بسرعة كبيرة. أتمنى بشدة أن تكون قد نجت، وهربت إلى قرية، وأنها بأمان في مكان ما. لكن إن لم تنجُ... إن كانت لا تزال هنا في مكان ما... يجب أن أعرف. لا أستطيع الرحيل دون أن أعرف. إنها أختي الصغيرة. ربيتها بعد وفاة والدينا. إنها عائلتي بأكملها.

تبادر إلى ذهن آن ديهاي على الفور السيدة ليو وبحثها اليائس عن ابنتها، مي فنغ. كان يدرك تمامًا مدى أهمية معرفة مصيرها، حتى عندما تكون الأخبار أسوأ ما يمكن تصوره. فالغموض شكلٌ قاسٍ من أشكال التعذيب لا ينقطع، ينخر في الروح يومًا بعد يوم.

— انضم إلينا. سنساعدك في العثور على أختك. بوجودنا أربعة، سنغطي مساحة أكبر بكثير، وبسرعة وكفاءة أكبر.

أمضوا الساعتين التاليتين في البحث بين أنقاض قطاع جسر اليشم، وهم ينادون باسم تشين مي مرارًا وتكرارًا، ويرفعون الأنقاض بحرص، ويستكشفون كل زاوية وركن حيثما كان من الممكن أن يختبئ أحدهم أو يُصاب. كان العمل خطيرًا وشاقًا، فالهياكل غير المستقرة كانت مهددة بالانهيار باستمرار، والعوارض المتفحمة كانت معلقة بشكل خطير، وكان هناك دائمًا خطر مواجهة دوريات من الجنود المعادين. لكنهم ثابروا، مدفوعين بأمل تشين يو اليائس وبإنسانيتهم التي رفضت الاستسلام.

بالقرب من موقع الجسر اليشمي السابق - الذي أصبح الآن مجرد قطع من الحجر الأبيض المكسور متناثرة على الأرض مثل بقايا هيكل

عظمي عملاق - وجد تسوي يوغوي شيئًا ما. لقد ابتعد قليلاً عن المجموعة، مستكشفًا منطقة لم يغطها الآخرون بعد.

ـــ هنا! تعال وانظر بسرعة!

كان هناك جثة. أو بالأحرى، بقايا بشرية شبه مجهولة الهوية، متفحمة بفعل النار لدرجة أنه لم يعد بالإمكان تمييز الملامح أو العمر أو حتى الجنس. لقد التهمت النار كل شيء، محولةً الإنسان إلى شكل أسود منكمش. ولكن بالقرب من البقايا، مدفونة جزئيًا في الرماد الرمادي، كان هناك جسم معدني - بروش فضي صمد أمام النيران بفضل المعدن.

سقطت تشين يو على ركبتيها كما لو أن ساقيها قد خانتاها فجأة. التقطت البروش بيدين مرتعشتين، وقلبته يمينًا ويسارًا، تفحصه من كل زاوية. رفعته أمامها، تحدق فيه كما لو أنها تستطيع قراءة القصة المأساوية الكاملة لأختها بداخله.

ـــ هذا بروش مي. سأتعرف عليه أينما كان. أهديته لها في عيد ميلادها الرابع عشر العام الماضي. ادخرنا المال لأشهر لشرائه. إنه على شكل فراشة - كانت مي تحب الفراشات كثيراً. قالت إنها ترمز إلى التحول والأمل. لم تخلعه أبداً، حتى أثناء النوم.

كان صوتها هادئاً بشكل غريب في البداية، كما لو أن الصدمة قد استنزفت كل مشاعرها. ثم صدمتها الحقيقة كطوفان جارف. انهارت تماماً في بكاء مرير، وهي تعانق البروش على صدرها، وتتمايل جيئة وذهاباً.

ـــ كانت في الخامسة عشرة من عمرها فقط. خمسة عشر. حياتها كلها أمامها. أشياء كثيرة كانت تتمنى فعلها. أرادت الزواج، وإنجاب الأطفال، وربما حتى أن تصبح رئيسة البستانيين. كانت تعشق الغناء - كان لديها أجمل صوت سمعته في حياتي، نقيّ كصفاء ماء الينابيع. كانت ترسم الزهور بموهبة استثنائية. والآن... الآن، لم يبقَ منها سوى بروش ورماد. هذا كل شيء. حياة كاملة اختُزلت إلى هذا.

ركعت بجانب الرفات المتفحمة وانهمرت دموعها، وارتجفت أكتافها من شدة البكاء. تركها آن ديهاي والآخرون تحزن، واقفين على مسافة

محترمة، مشكلين دائرة واقية حولها. بعض الأحزان أعمق من أن تُشارك، وأكثر خصوصية من أن تُقاطع بكلمات مواساة فجة. أحيانًا، كل ما يمكن للمرء فعله هو أن يكون حاضرًا، شاهدًا على ألم الآخرين.

بعد لحظة طويلة - ربما خمس عشرة دقيقة، ربما ساعة؛ بدا وكأن الزمن قد توقف في هذا المكان المشؤوم - نهض تشين يو ببطء على قدميه. كان وجهها قناعاً من العزيمة المأساوية رغم الدموع التي استمرت في الانهمار.

— علينا أن ندفنها. لا أستطيع تركها هكذا. إنها تستحق أفضل من هذا. إنها تستحق دفنًا لائقًا، حتى لو كان بسيطًا. لقد كانت فتاة طيبة، مجتهدة، ولطيفة مع الجميع.

وجدوا مكاناً مناسباً في ما كان يُعرف بحديقة البرقوق، والتي أصبحت الآن منطقة مدمرة حيث لم يتبق من الأشجار سوى جذوع متفحمة. أوضحت تشين يو، وهي تمسح دموعها، أن هذا كان المكان المفضل لدى تشين مي في القصر بأكمله - كانت تأتي إلى هنا كل ربيع لمشاهدة أزهار البرقوق، وتجلس لساعات تحت الأشجار المزهرة، وترسم بدقة الأغصان والزهور في دفتر ملاحظات كانت تحتفظ به دائماً في متناول يدها.

لعدم امتلاكهم الأدوات المناسبة، اضطروا للحفر بأيديهم العارية وقطع الخشب التي عثروا عليها بين الأنقاض. كانت الأرض صلبة ومتماسكة، مليئة بالحجارة والجذور. سرعان ما غطت أيديهم بثور مؤلمة انفجرت ونزفت، لكنهم واصلوا العمل، مدفوعين باحترامهم للموتى وتعاطفهم مع تشين يو. دفن لائق، جزء صغير من الكرامة الإنسانية.

عندما انتهى العمل - حفرة بعمق متر تقريبًا، ليست مثالية، لكنها كافية - وضعوا الرفات برفق في الأرض بكل خشوع كما لو كانت جنازة كاملة. رتبت تشين يو الجثة بعناية فائقة، وهمست بكلمات صينية رقيقة مطمئنة كما لو أن أختها لا تزال تسمعها. ثم وضعت بروشًا فضيًا على ما كان صدر أختها، هدية أخيرة، وصلة أخيرة.

ـــ وداعًا يا أختي الصغيرة، شياو مي. لقد عشتِ حياةً قصيرةً، قصيرةً بشكلٍ مأساوي. خمسة عشر عامًا فقط على هذه الأرض. لكنكِ كنتِ طيبةً وحنونةً ولطيفةً، وكنتِ تستحقين نهايةً أفضل بكثير من هذه النهاية المروعة. كنتِ تستحقين أن تكبري، وأن تتزوجي كما حلمتِ، وأن تنجبي الأطفال الذين تمنيتِهم، وأن تصبحي البستانية العظيمة التي كان بإمكانكِ أن تكوني. كنتِ تستحقين أن تري البحر، وأن تسافري، وأن تغني أغنياتكِ. أنا آسف. أنا آسف جدًا لأنني لم أستطع حمايتكِ. لقد وعدتُكِ بأنني سأعتني بكِ دائمًا بعد وفاة والدينا، وقد فشلتُ. أرجوكِ سامحيني.

قاموا بتغطية القبر بالتراب ببطء، ثم وضعوا فوقه حجارة مسطحة لتمييزه وحمايته. لم يكن الأمر فخمًا - لا شاهد قبر منقوش عليه حروف أنيقة، ولا طقوس بوذية متقنة مع رهبان يرددون التراتيل، ولا لوحة تذكارية في معبد - لكنه كان مثوىً معروفًا. مكانًا تستطيع تشين يو العودة إليه لتكريم أختها، والتحدث إليها، والحفاظ على الصلة.

أخرج آن ديهاي ورقته وفرشاته الثمينة، وكتب بعناية فائقة: "تشين مي، مساعدة البستاني، خمسة عشر عامًا، شقيقة تشين يو، من تيانجين. عملت في حدائق القصر الصيفي منذ الرابعة عشرة من عمرها. تخصصت في زهور الزينة. غنت بصوت جميل صافٍ وعذب. رسمت الزهور بموهبة فذة. حلمت بالزواج والإنجاب ورؤية البحر. كانت ترتدي دائمًا بروش فراشة فضي أهدته إياها أختها. توفيت قرب جسر اليشم أثناء الغزو، على الأرجح في 18 أو 19 أكتوبر 1860، محترقة بنيران أشعلتها القوات الغازية. دُفنت في حديقة البرقوق، مكانها المفضل، بحضور أختها تشين يو وثلاثة شهود: آن ديهاي، ولي ليانييينغ، وتسوي يوغوي. فلترقد روحها بسلام. ولتكن الفراشات التي أحبتها كثيرًا دليلًا لروحها إلى حياة أفضل. "

راقبه تشين يو وهو يكتب بتعبير عن امتنان عميق يتجاوز الكلمات.

ـــ ما الذي تفعله بالضبط؟

ـــ أحتفظ بسجل مفصل. بأسماء جميع الذين لقوا حتفهم في هذه المجزرة. حتى لا تُنسى أسماؤهم أبدًا، حتى يعرف الناس بعد مئة عام، وبعد ألف عام، أن تشين مي كانت موجودة، وأنها عاشت، وأنها كانت لديها أحلام ومواهب، وأنها كانت ذات قيمة.

انهمرت دموع جديدة على خدي تشين يو، لكن هذه المرة كانت مختلفة. لم تكن مجرد حزن خالص، بل كانت أيضاً امتناناً، وربما حتى قدراً ضئيلاً من الراحة.

ـــ شكرًا لكم. شكرًا لكم على تذكرها. على تذكركم لنا جميعًا. أحيانًا أشعر أننا تافهون لدرجة أن لا أحد سيتذكر وجودنا أبدًا.

ـــ كل حياة لها قيمة. كل موت له قيمة. سيكتب الأقوياء التاريخ الرسمي بأحداثهم ومعاهداتهم الكبرى. لكن القصص الصغيرة، والحياة العادية، هي ما يكشف حقيقة الحضارة. هي ما يُظهر من كنا حقًا. وأنا أرفض أن تُطوى هذه القصص.

ـــ هل ستأتي معنا الآن؟ لقد وجدنا ملجأً في كهوف التلال غرباً. إنه مكان متواضع - بارد ورطب وغير مريح - لكنه آمن، وبعيد عن الجنود. هناك ناجون آخرون، وطعام مشترك، وشيء من التكاتف. لا يجب أن تبقى هنا وحدك. إنه ليس مكاناً آمناً، ولم يعد مكاناً صالحاً للعيش.

ألقى تشين يو نظرة أخيرة طويلة على القبر الذي قاموا ببنائه للتو، وحفظ الموقع الدقيق وترتيب الأحجار.

ـــ نعم، سآتي معك. لا أريد البقاء هنا أكثر من ذلك. لم يعد هذا القصر الذي عرفته وأحببته. لقد أصبح مقبرة ضخمة.

بدأوا بالابتعاد، وألقى تشين يو نظرة خاطفة إلى الوراء حتى اختفت حديقة البرقوق عن الأنظار.

سمعوا صوتاً جديداً – دويّاً منتظماً وإيقاعياً. اختبأوا خلف جدار منهار وراقبوا بحذر.

دخلت قافلة من العربات البريطانية إلى الحديقة، تجرها خيول منهكة. لا بد أن عددها كان حوالي خمسين عربة. وصلت العربات فارغة. لكن آن ديهاي اشتبه في أنها ستكون مليئة بالكنوز المسروقة في طريق عودتها.

— هذه هي عملية الإجلاء الأخيرة. إنهم يأخذون كل شيء ذي قيمة. قريباً، لن يبقى شيء على الإطلاق.

انتظروا مرور العربات، ثم ركضوا نحو التلال، وأخذوا تشين يو معهم. وخلفهم، حلّ الشفق على القصر الصيفي المحتضر.

22 أكتوبر 1860، وداع القصر

مع غروب الشمس، تجمعوا للمرة الأخيرة على حافة بحيرة فوهي.

— لم يعد القصر الصيفي موجوداً. لكن عملنا يبدأ. نحن حراس ذكراه.

في تلك الليلة الأخيرة، أقاموا مراسم تأبين. قرأ أن ديهاي جميع أسماء القتلى - ثلاثة وتسعون روحاً فقدت.

عندما انتهى، كانت الشمس تشرق. يوم جديد. اليوم الأول من حياتهم الجديدة.

— هيا بنا. نحو مستقبلنا. نحمل الذكريات. سيأتي يوم تُسمع فيه أصواتنا.

اتجهوا غرباً نحو التلال. وخلفهم، كانت الأنقاض لا تزال تتصاعد منها الأدخنة.

لكن في قلوبهم، سيبقى القصر خالداً. لقد أصبح الشهود الصامتون حراساً أبديين.

الفصل الرابع ـ الرحلة

ميناء داغو، مصب نهر بي هو، 4 نوفمبر 1860

كانت الصناديق مكدسة على رصيف ميناء داغو. نظر إليها القائد أوغست موران بعينٍ حزينة بينما كانت سفينة أفالانش تتمايل خلفه، مستعدة لتحميل حمولتها. اقترب ضابط المدفعية هنري روكس، المكلف بمرافقة القافلة إلى فرنسا، وهو يعدل قبعته.

ـــ يا قبطان، كم العدد الإجمالي؟

استشار موران سجله.

ـــ سبعة وستون صندوقاً.

ـــ مليئة بالكنوز الإمبراطورية. مُخصصة لجلالة الإمبراطورة.

ـــ تقصد مسروقة.

تصلّب روكس ونظر حوله ليتأكد من عدم وجود من يستمع. كان العمال الصينيون مشغولين بتحميل الصناديق تحت أنظار البحارة الفرنسيين.

ـــ تم التقسيم وفقًا لمرسوم 3 مايو 1832. المادة 119 واضحة جدًا...

ـــ كفى عن المصطلحات العسكرية! لقد قرأت الأمر. قد يكون كل شيء قانونياً، لكن هل هو أخلاقي؟ لقد نهبنا قصراً إمبراطورياً، وأفرغنا المتاحف، وأحرقنا المكتبات. والآن نغلف غنائم هذا النهب لنقدمها كهدية رخيصة.

شدّ روكس فكيه.

ـــ الجنرال دي مونتوبان نفسه أشرف على القسم...

ـــ ضمن القواعد؟ كنت هناك. رأيت الجنود يندفعون إلى القصور، ويمزقون المنسوجات، ويحطمون الأثاث لاستخراج الأحجار الكريمة.

خفض روكس عينيه. لم يستطع إنكار ذلك.

ـــ قرر الجيش تقديم هذه الأشياء إلى الإمبراطورة...

— هل حُسم الأمر؟ كان الجنرال هو من حسم الأمر. لم يكن أمام الرجال خيار سوى الموافقة.

قاطعهم صوت خطوات. جاء الملازم بالو إليهم، برفقة مشرف صيني كان يشير بيده إلى أحد الصناديق.

— لدينا مشكلة. هذا الصندوق ثقيل جداً. نحتاج إلى تقسيمه إلى قسمين.

اقترب موران. كان الصندوق يحمل نقشًا يقول "برونزيات ويشم - قاعة المحكمة".

— ماذا يحتوي؟

استشار روكس قائمة جرده.

— تماثيل برونزية طقسية من عهد أسرة شانغ، ومزهريات مطلية بالمينا، وعرش محفة ... وعصا القيادة المصنوعة من اليشم الأخضر للإمبراطور.

— عصا اليشم؟ صاح بالو. تلك التي أرادها اللورد إلجين للملكة فيكتوريا؟

— لا، تلك النسخة ذهبت مع الإنجليز. احتفظ الجنرال دي مونتوبان بهذه النسخة الثانية للإمبراطور.

هز موران رأسه.

— بديهي. كل شيء يجب أن يأتي في أزواج. كما لو كنا نقسم غنائم القراصنة...

— يا قبطان! اعترض بالو قائلاً.

— أوه، توقفوا عن النظر إلى هذه النظرة المرعبة! نحن قراصنة يرتدون الزي الرسمي.

انتظر المشرف الصيني بصبر.

— حسناً. قسّم هذا الصندوق. ولكن إذا تضرر أي عنصر فيه، فسوف تشرح ذلك للجنرال.

نظر موران شمالاً، حيث كانت أعمدة الدخان لا تزال تتصاعد.

ـــ أتعرفون ما يثير اشمئزازي أكثر من أي شيء آخر؟ النفاق. ندّعي أننا متحضّرون. نأتي إلى هنا لكي "نفتح" الصين للتجارة، ولنجلب لها نور الحضارة الأوروبية. وماذا نفعل؟ ننهب، ونحرق، ونقتل. ثم نحزم غنائمنا بعناية لنرسلها إلى باريس حيث تُعرض كغنيمة لعظمتنا.

التزم روكس الصمت. في قرارة نفسه، كان يشارك موران قلقه. لقد رأى القصر قبل تدميره: قاعات الاستقبال بأسقفها المزينة بالحرير، والحدائق بأجنحتها الرقيقة، والمكتبات بمخطوطاتها التي يعود تاريخها إلى آلاف السنين.

سار بحار نحوهم وأدى التحية.

ـــ عملية التحميل أوشكت على الانتهاء. سنتمكن من الإبحار خلال ساعتين.

ـــ تأكد من تثبيت جميع الصناديق بإحكام. لا أريدها أن تتحرك قيد أنملة أثناء العبور.

استدار موران نحو روكس.

ـــ هل سترافق هذه القافلة طوال الطريق إلى فرنسا؟

ـــ أمر بتسليم هذه الصناديق شخصياً إلى جلالته.

ـــ استعدوا لرحلة طويلة. وادعوا ألا نواجه عاصفة.

على متن سفينة أفالانش، 8 نوفمبر 1860

تم تحميل الصناديق وتثبيتها بإحكام في عنبر الشحن وعلى سطح السفينة الخلفي. غادرت سفينة أفالانش داغو وكانت تبحر على طول الساحل الصيني باتجاه شنغهاي.

قام روكس بفحص الشحنة. كان قد أعدّ قائمة جرد دقيقة، ووضع رقماً على كل صندوق، وسجّل محتوياته بدقة متناهية. كان الأمر شاقاً، ولكنه ضروري.

انضم إليه موران على الجسر.

ـــ هل كل شيء على ما يرام؟

ـــ نعم. سبعة وستون صندوقاً، جميعها مرقمة ومُدرجة في قائمة الجرد. كما كتبتُ تقريراً عن ظروف التوزيع.

ـــ أظن أنه تقرير مخفف.

لم يذكر روكس ذلك. ولم يتطرق تقريره إلى المشاهد التي شاهدها، ولا إلى الخلافات بين الضباط الفرنسيين والإنجليز.

ـــ لقد قمت بواجبي.

ـــ واجبك...

استند موران على الدرابزين وحدق في البحر. كانت السماء صافية، والبحر هادئاً.

ـــ أتساءل عما إذا كان أحفادنا سيحكمون علينا بقسوة.

ـــ لقد أطعنا الأوامر.

ـــ أوامر... أوامر دائمًا. إنه عذر مناسب، أليس كذلك؟

عبس روكس.

ـــ يبدو أنك متأثر جداً بهذا الأمر. هل لي أن أسأل لماذا؟

تردد موران، ثم تنهد.

ـــ لقد درستُ التاريخ. الإغريق، والرومان، والعرب... كل تلك الحضارات العظيمة. وهل تعلم ما يجمعها؟ قناعتها بتفوقها على الآخرين. قناعتها بأن تفوقها يمنحها الحق في الغزو والنهب والتدمير.

ـــ نحن متفوقون. لدينا العلم والتكنولوجيا والصناعة...

ـــ ولديهم حضارة عمرها آلاف السنين. فلاسفة، فنانون، علماء. ماذا نعرف حقاً عن الصين؟ نحكم عليها بالهمجية لأنها ترفض الانصياع لمطالبنا التجارية. ولكن من نحن لنحكم عليها؟

كانت هذه الأسئلة تتجاوز فهم روكس.

شنغهاي، 24 نوفمبر 1860

أتاحت فترة التوقف في شنغهاي فرصة لإعادة تزويد السفينة بالمؤن والتحقق من حالة الخزائن. واغتنم روكس الفرصة للقاء القنصل الفرنسي، السيد دي مونتيني.

استقبله القنصل في مكتبه، وهي غرفة واسعة مزينة بأثاث صيني ولفائف خطية.

— إذن، أنت مسؤول عن نقل الغنائم... عفواً، "الهدايا" المخصصة لجلالة الإمبراطورة؟

كانت ابتسامة مونتيني ساخرة.

— تم توزيع هذه المواد وفقًا للوائح، يا سيد القنصل.

— نعم، نعم. كل شيء قانوني تماماً. لكن أخبرني، ما رأي الصينيين في ذلك؟

تصلب روكس.

— لقد خسر الصينيون الحرب. الغنائم تذهب إلى المنتصرين.

— يا لها من عبارة أنيقة!

نهض القنصل واتجه نحو النافذة. ومن مكتبه، كان بإمكانه رؤية الميناء يعج بالحركة والنشاط.

— لقد عشت في الصين لمدة خمسة عشر عاماً. تعلمت لغتهم، ودرست ثقافتهم. ما فعلناه في القصر لا يُغتفر.

— أمر اللورد إلجين بإشعال النار، وليس نحن. عارضها البارون غروس والجنرال دي مونتوبان...

— أجل، لقد احتججنا. يا له من موقف نبيل! ولكن في غضون ذلك، حرصنا على أخذ حصتنا معنا. سبعة وستون صندوقًا.

— كان ذلك قبل الحريق. تم تقسيم الممتلكات في السابع من أكتوبر. ولم يُصدر أمر إشعال الحريق إلا في الثامن عشر من الشهر نفسه...

ـــ وهل تعتقد أن هذا يغير شيئاً؟ بالنسبة للصينيين، كلنا لصوص. فرنسيون أم إنجليز، ما الفرق؟

عاد القنصل إلى مقعده.

ـــ أنا لا ألومك شخصياً. لكن ما حدث ستكون له عواقب. لن ينسى الصينيون. ولن يغفروا. وسيطالبون بالتعويضات يوماً ما.

ـــ تعويضات؟ لقد وقعوا على المعاهدة.

ـــ أنت ساذجٌ للغاية. تُوقَّع المعاهدات، لكن التاريخ لا يُمحى. ما فعلناه سيبقى محفورًا في الذاكرة الجماعية الصينية. والجراح دائمًا ما تتقيح.

انحنى إلى الأمام.

ـــ سيأتي يوم تنهض فيه الصين من جديد. ستستعيد قوتها. وستتذكر. وستطالب بالعدالة.

ـــ ما هي نصيحتك لي أن أفعل؟

ـــ وأنت؟ لا شيء. لديك أوامرك. لكن احتفظ بسجل مكتوب لكل شيء. الجرد الكامل، وشروط التقسيم. لأنك ستُحاسب يوماً ما. ربما ليس أمامك، بل أمام فرنسا.

أومأ روكس برأسه.

ـــ سأحتفظ بمذكرات مفصلة.

ـــ افعل ذلك. وكن صادقاً. للأجيال القادمة الحق في معرفة ما حدث بالفعل.

وقف القنصل، مشيراً إلى انتهاء المقابلة.

ـــ أتمنى لك رحلة سعيدة.

في طريق عودته إلى الميناء، مرّ روكس بتجار صينيين راقبوه بنظرات حاقدة. كان مونتيني محقاً، فالصينيون لن ينسوا ذلك أبداً.

في البحر، بين شنغهاي وسنغافورة، 2 ديسمبر 1860

استمرت الرحلة دون أي حوادث. كانت سفينة أفالانش متجهة نحو سنغافورة. كان الطقس صافياً والبحر هادئاً.

اعتاد روكس على النزول كل يوم لإجراء فحص. فحص مراسي القوارب، وتأكد من عدم وجود أي علامات رطوبة أو تلف على أي صندوق.

في إحدى الأمسيات، لاحظ أن صندوقًا قد تحرك قليلًا. كان رقمه 23، ومكتوب عليه "خزف وبورسلين - جناح الطاووس". اتصل على الفور برئيس البحارة.

— لقد تحرك هذا الصندوق. أعد تثبيته فوراً.

قام رئيس البحارة، وهو بحار مخضرم يُدعى بارتيليمي، بفحص الصندوق.

— لا بد أنه قد ارتخى بسبب الحركة الدورانية. سنعيده إلى مكانه.

— انتبه. يحتوي على خزف مينغ. شديد الهشاشة.

ابتسم بارتيليمي ابتسامة ساخرة.

— خزف مينغ! ويا للعجب، نحن نعبر المحيط بكنوز تساوي ثروات، بينما شبابنا عالقون بأجورهم الزهيدة.

— لقد حصلوا على نصيبهم. مئة وثمانون فرنكاً لكل رجل.

— مئة وثمانون فرنكًا! هل تعلم كم تساوي قطعة واحدة فقط من هذه القطع الخزفية؟ آلاف الفرنكات. بل ربما عشرات الآلاف. يا له من كرم!

كان التوزيع غير متكافئ بشكل كبير. فقد حصل كبار الضباط على عشرات الآلاف من الفرنكات، والضباط الصغار على بضعة آلاف، والجنود العاديون بالكاد يكفيهم لدفع إيجار بضعة أشهر.

— أعد تثبيت هذا الصندوق. وتأكد من جميع الصناديق الأخرى.

— حسناً جداً، أيها الملازم.

أشار بارتيليمي إلى بحارين. راقبهم روكس لبضع لحظات، ثم عاد إلى سطح السفينة. كانت الشمس تغرب في الأفق.

كان موران ينتظره على جسر المشاة.

— مشكلة؟

— صندوق غير مُحكم الإغلاق. لا شيء خطير.

أومأ موران برأسه ونظر إلى البحر.

كان الليل قد حلّ. انحنى روكس ونزل إلى مقصورته. أخرج دفتر ملاحظات فارغاً من صندوقه، وغمس قلمه في الحبر، وبدأ يكتب.

"2 ديسمبر 1860. في البحر، بين شنغهاي وسنغافورة. كنا ننقل سبعة وستين صندوقًا من البضائع المنهوبة من سفينة يوانمينغ يوان. منهوبة. يجب أن نسمي الأشياء بمسمياتها."

توقف، وأعاد قراءة ما كتبه للتو. كانت تلك المرة الأولى التي يدون فيها على الورق ما يشعر به حقاً.

وتابع.

"قال لي الكابتن موران إن التاريخ سيحكم علينا. وأعتقد أنه محق. لقد شاركنا في شيء فظيع. يجب أن نتحمل المسؤولية عنه."

كتب هكذا لساعة، يُفرغ ما في قلبه، ويُحرر نفسه من شكوكه. ولما انتهى، أغلق دفتر الملاحظات ووضعه جانبًا. ثم ذهب إلى فراشه، وقد غمره شعور غريب بالسلام. ولأول مرة، قال الحقيقة.

سنغافورة، 12 ديسمبر 1860

رست سفينة "أفالانش" في ميناء سنغافورة في الصباح الباكر. وكان من الضروري التزود بالوقود من الفحم، وإصلاح تسرب بسيط، وقبل كل شيء، فحص حالة خزانات الوقود بعد أسبوعين في البحر.

نزل روكس إلى الشاطئ برفقة موران. وكان من المقرر أن يلتقيا بالحاكم البريطاني، السير ويليام أورفيور كافيناغ. كانت سنغافورة

آنذاك تحت السيطرة البريطانية، وكانت العلاقات بين الفرنسيين والإنجليز متوترة.

استقبلهم الحاكم في مقر إقامته الاستعماري ذي الشرفات الواسعة. وقام خادم هندي بتقديم الشاي لهم.

ـــ أيها السادة، لقد تلقيت تعليمات من لندن بخصوص شحنتكم...

تبادل موران ورو نظرة قلقة.

ـــ تعليمات، يا صاحب السعادة؟

ـــ لقد كتب اللورد إلجين شخصياً إلى حكومتي. ويبدو أن بعض المواد قد وُزّعت بطريقة... لنقل، غير عادلة.

شعر روكس بتصاعد غضبه.

ـــ تم تنفيذ التقسيم وفقًا للقواعد التي وضعتها الوصيتان...

ـــ أوه، لا أشك في ذلك. لكن اللورد إلجين يدعي أنه تم نقل بعض القطع القيّمة للغاية قبل التقسيم الرسمي.

نهض موراند فجأة.

ـــ هذا كذب! حتى أن الجنرال دي مونتوبان أصر على أن يكون للملكة الخيار الأول!

ـــ تفضل بالجلوس. أنا لا أتّهمك بشيء. أنا فقط أنقل مخاوف حكومتي.

جلس موران مجدداً. وتحدث روكس بصوت هادئ.

ـــ معاليكم، لديّ جرد كامل لشحنتنا، بالإضافة إلى تقرير مفصل. يمكنني عرضهما عليكم.

لوّح كافيناغ بيده.

ـــ لن يكون ذلك ضرورياً. أنا أصدقك. لكن عليك أن تدرك أن هذا أمر حساس. اللورد إلجين غاضب جداً.

ـــ لقد كان هناك! لقد شارك في اتخاذ القرار!

— أعلم. لكن هذه هي السياسة. يحتاج اللورد إلجين إلى كبش فداء ليُبرر للملكة سبب كون الحصة البريطانية أصغر من المتوقع. والفرنسيون كبش فداء ممتاز.

ارتشف كافيناغ رشفة من الشاي.

— سأمنحكم الإذن بالبقاء في الميناء لإجراء الإصلاحات. مع ذلك، أنصحكم بالمغادرة في أقرب وقت ممكن. فالتوترات تتصاعد بين بلدينا، ولا يمكنني ضمان سلامة شحنتكم.

— هل تعتقد أن الإنجليز قد يحاولون الاستيلاء على صناديق أموالنا؟

— لا أرى في الأمر أهمية. ألاحظ فقط أن بعض الضباط البريطانيين لديهم آراء قوية جدًا بشأن هذا التقسيم. وأن هناك محامين هنا يسعدهم الترافع في قضية استرداد أمام المحاكم الاستعمارية.

وقف موراند.

— نحن نتفهم ذلك. سنغادر في غضون ثلاثة أيام على الأكثر.

— قرارٌ حكيم. هل لديك أي نصيحة شخصية؟ لا تُطل البقاء في الموانئ البريطانية على طريقك. عدن، كيب تاون... مرّ بهما سريعًا. للورد إلجين حلفاء في جميع أنحاء الإمبراطورية.

انحنى الفرنسيان وغادرا المنزل. وفي الشارع، أطلق موران العنان لغضبه.

— يا لهؤلاء الإنجليز اللعينين! بعد أن أحرقوا القصر، وبعد أن أجبرونا على مشاهدة تخريبهم، ها هم الآن يتهموننا بالسرقة!

— اهدأ. نحن في الأراضي البريطانية.

— معك حق. لنعد إلى السفينة. ولنضاعف الحراسة حول الصناديق.

وبعد عودتهم إلى السفينة، استدعى روكس بارتيليمي.

— أريد أربعة رجال يحرسون عنبر السفينة ليلاً ونهاراً، ورجلين على سطح السفينة قرب الصناديق الخارجية، مسلحين.

اتسعت عينا بارتيليمي.

— هل أنت مسلح؟ هل تتوقع هجوماً؟

— الإنجليز غير راضين عن شحنتنا.

— آه. كانوا يرغبون في الاحتفاظ بكل شيء لأنفسهم، أليس كذلك؟

— فقط اتبع الأوامر. واختر رجالاً موثوقين.

في تلك الليلة، لم يستطع روكس النوم. بقي على سطح السفينة، يراقب الأرصفة الخافتة الإضاءة. وفي عدة مرات، ظن أنه رأى ظلالاً تتجول بالقرب من السفينة.

انضم إليه موران حوالي الساعة الثانية صباحاً.

— أنت لست نائماً؟

— أفكر فيما قاله الحاكم. ماذا لو حاول الإنجليز الاستيلاء على الخزائن؟

— لن يجرؤوا على ذلك. سيكون ذلك سبباً للحرب.

— رسميًا. ولكن بشكل غير رسمي؟

تنهد موراند.

— بشكل غير رسمي، يكرهنا الإنجليز. ما زالت معركة واترلو حاضرة في أذهانهم. هذا التحالف على وشك الانهيار.

— يجب أن نغادر غداً.

— مستحيل. لم يتم إصلاح التسريب. إذا أبحرنا الآن، فإننا نخاطر بالغرق. علينا البقاء يومين آخرين. لكن توخّوا الحذر.

كان اليومان التاليان اختبارًا للأعصاب. كان روكس يتفقد الخزائن كل ساعتين، ويتأكد من وجود الحراس، ويمسح الرصيف بنظره. في عدة مرات، كان الضباط البريطانيون يتسكعون بالقرب من السفينة، ويطرحون أسئلة تبدو بريئة. كان موران يتجاهلهم بأدب وحزم.

وأخيراً، في صباح الخامس عشر من ديسمبر، تمكنت سفينة أفالانش من الإبحار. تنفس روكس الصعداء وهو يشاهد سنغافورة تبتعد في الأفق.

المحيط الهندي، 3 يناير 1861

هبت العاصفة عند منتصف الليل. وفي غضون ساعتين، اجتاح البحر الهائج سطح سفينة "لافالانش". فأمر موران بإنزال الأشرعة وتأمين كل ما يمكن تأمينه.

في عنبر السفينة، كان روكس وبارتيليمي يتفقدان بشكل محموم مراسي الصناديق. فقد بدأ الماء يتسرب إلى الداخل، وكانت السفينة تتمايل بشدة لدرجة أن العديد من الصناديق كانت تهدد بالانفصال.

— هذا يتحرك! سبعة عشر! صرخ بارتيليمي.

هرع روكس نحوها. كانت إحدى أكبر الصناديق، وهي التي تحتوي على تماثيل برونزية من عهد أسرة شانغ. إذا انفصلت، فقد يتسبب وزنها في زعزعة استقرار السفينة.

— يجب إعادة تأمينه! اتصلوا ببعض الرجال!

غرق أربعة بحارة وهم يكافحون ضد التمايل. حاولوا تمرير حبال جديدة، لكن السفينة كانت تميل بشدة لدرجة أنه كان من المستحيل تقريباً العمل.

— يا ملازم! السفينة رقم 23! لقد انقلبت! صرخ أحد البحارة.

شعر روكس بانقباض قلبه. كان الصندوق رقم 23 يحتوي على خزف مينغ، وهو الأكثر هشاشة من بين جميع الشحنات.

شق طريقه عبر عنبر السفينة المغمور بالمياه. كان الصندوق ملقى على جانبه، وأحد ألواحه متصدع. ومن خلال الشق، استطاع أن يرى شظايا من الخزف.

— لا...

انضم إليه بارتيليمي.

— يجب تقويمه. إذا بقي على هذا الحال، فسوف ينهار كل شيء.

تمكن الثمانية منهم من إصلاح الصندوق، لكن الضرر كان قد وقع.

سُمع صوت طقطقة مشؤوم. انفصل الصندوق رقم 32 للتو وانزلق على الهيكل.

— يا إلهي! لن ننجو!

نظر روكس حوله. كان حوالي عشرة صناديق في خطر.

نزل موراند إلى عنبر السفينة، وقد تبلل حتى النخاع.

— نحتاج إلى تخفيف حمولة السفينة! إنها تغرقنا بكمية كبيرة من الماء!

— هل نخفف من حدة الأمور؟

— ألقوا بالصابورة في البحر. ليس لدينا خيار آخر.

— لكن صناديق النقود...

— إذا غرقنا، ستغرق خزائننا معنا!

أصدر موران أوامر سريعة. عاد الرجال إلى السطح وبدأوا بإلقاء كل شيء غير ضروري في البحر: البراميل، وصناديق المؤن، والمعدات.

استمرت العاصفة طوال الليل وجزء من اليوم التالي. وعندما هدأت، كان فريق أفالانش قد نجا، لكن الجميع كانوا منهكين.

نزل روكس فوراً إلى عنبر السفينة. كان المنظر محزناً. خمسة صناديق تضررت بشدة. الصندوق رقم 23، الذي يحتوي على خزف مينغ، كان الأكثر تضرراً. فتحه بحذر.

من بين القطع الخزفية الثمانية والعشرين التي كانت تحتويها، كانت اثنتا عشرة قطعة مكسورة إلى قطع. أما البقية فكانت متشققة أو متكسرة.

أطلق بارتيليمي فحيحاً من بين أسنانه.

— آلاف الفرنكات تبخرت في الهواء.

لم يبدِ روكس أي رد فعل. كان يفكر في تلك الخزفيات التي يعود تاريخها إلى قرون مضت، والتي نجت من حروب كثيرة، ومن سلالات حاكمة كثيرة، لتنتهي محطمة في عنبر سفينة فرنسية.

فحص الصناديق الأخرى المتضررة. فقد الصندوق رقم 17 لوحًا خشبيًا، لكن القطع البرونزية بدت سليمة. احتوى الصندوق رقم 32 على لفائف من الحرير المبلل. أما الصندوقان رقم 45 و51 فقد تعرضا لأضرار طفيفة.

عاد إلى حيث كان موران ينتظره.

— لذا؟

— خمسة صناديق متضررة. اثنتا عشرة قطعة من خزف مينغ محطمة. بعض الحرير مبلل. أما الباقي فيبدو سليماً.

مرر موران يده على وجهه.

— اثنتا عشرة قطعة من الخزف... ستحتاج إلى ذكر هذا في تقريرك.

— نعم.

— ستغضب الإمبراطورة غضباً شديداً. وكذلك الجنرال.

— ليس خطأنا. لقد كانت العاصفة...

— هل تعتقد أنهم سيهتمون؟ لقد كنا مسؤولين. لقد فشلنا.

شعر روكس بثقل هذه المسؤولية يقع على عاتقه.

— ماذا نفعل بالخزف المكسور؟

— احتفظ بالقطع. ربما يستطيع أحد المختصين ترميمها. دوّن ملاحظات مفصلة.

في تلك الليلة، كان روكس وحيداً في مقصورته، فكتب في مذكراته.

"في الرابع من يناير عام 1861، في المحيط الهندي، ألحقت العاصفة أضراراً بخمسة صناديق. ودُمّرت اثنتا عشرة قطعة من خزف مينغ. رأيتها محطمة إلى قطع. لقد صمدت هذه القطع عبر القرون. كانت تزين قاعات القصر، وتحظى بإعجاب الأباطرة. وقد دمرناها في غضون ساعات قليلة.

يزعم موران أننا فشلنا. وهو محق. لكن ألم نكن قد فشلنا بالفعل حتى قبل مغادرة الصين؟ هذه القطع الخزفية الاثنتي عشرة ليست سوى خسارة أخرى في قائمة طويلة من الدمار.

أتساءل إن كانت هذه الرحلة ملعونة. إن كانت هذه الأشياء تحمل لعنة في داخلها. كأنها لا تريد مغادرة الصين. كأنها تقاوم.

لكن هذه مجرد أفكار خرافية. الحقيقة أبسط من ذلك: نحن نحمل بضائع مسروقة. والبضائع المسروقة لا تجلب الحظ السعيد أبداً."

مرسيليا، 22 فبراير 1861

بعد عدة أشهر في البحر، دخلت سفينة "لافالانش" أخيرًا ميناء مرسيليا. كان يومًا باردًا من أيام فبراير، وكانت رياح الميسترال تهب بقوة، لكن بالنسبة لرو وموران، فقد وصلا أخيرًا إلى فرنسا.

كانت فرقة عسكرية، بقيادة عقيد مدفعية، تنتظرهم على الرصيف. نزل روكس إلى الشاطئ حاملاً تقريره.

— الملازم روكس؟ أنا العقيد دوماس. لقد تلقيت أوامر بتولي مسؤولية شحنتك ونقلها إلى باريس.

— في باريس يا كولونيل؟ وليس في فونتينبلو؟

— ترغب الإمبراطورة في رؤية القطع أولاً في قصر التويلري. وسيقام معرض خاص قبل عرضها النهائي.

سلم روكس تقريره.

— إليكم قائمة الجرد الكاملة. يجب أن أبلغكم أن خمسة صناديق قد تضررت جراء عاصفة في المحيط الهندي. كما دُمرت اثنتا عشرة قطعة من خزف مينغ.

تصلّب وجه العقيد.

— دُمِّرت؟ كيف؟

— عاصفة. كدنا نغرق.

ـــ فهمت. لن تكون الإمبراطورة سعيدة. كانت هذه القطع الخزفية تساوي ثروة طائلة.

ـــ احتفظت بجميع القطع. ربما مرمم...

ـــ أتظن أننا نستطيع إعادة لصق خزف مينغ الذي يعود لخمسة قرون كما نلصق الأواني الفخارية العادية؟ حسناً. ما حدث قد حدث. لنبدأ بتفريغ الشحنة. أريد كل شيء في باريس خلال أسبوع.

استغرقت عملية التفريغ يوماً كاملاً. نُقلت الصناديق إلى عربات عسكرية تحت حراسة مشددة. وأصر العقيد دوماس على فتح كل صندوق وفحص محتوياته.

عندما فتحوا الغرفة رقم 23، تلك التي تحتوي على الخزف المكسور، ظل دوماس صامتاً، ينظر إلى القطع.

ـــ يا لها من خسارة! تمتم.

استدار نحو روكس.

ـــ سيتعين عليك أن تشرح موقفك للجنرال. وربما للإمبراطورة نفسها.

ـــ أنا مستعد لتحمل مسؤولياتي.

ـــ مسؤولياتكم... الأمر يتعلق بالسياسة. يتعلق بالهيبة الإمبراطورية. كان من المفترض أن تُظهر هذه الأشياء عظمة فرنسا. وقد سمحتم بتدمير جزء منها.

تدخل موران، الذي كان يشاهد المشهد.

ـــ بذل الملازم قصارى جهده. كانت العاصفة عاتية لدرجة أننا خشينا على حياتنا. لم يكن الحفاظ على المعدات أولويةً أمام نجاة الطاقم.

حدق دوماس فيه ببرود.

ـــ إن بقاء الطاقم على قيد الحياة أمر بالغ الأهمية، لكن ليس على حساب المهمة. لقد أُسندت إليك هذه المعدات، وكان عليك حمايتها مهما كلف الأمر.

ـــ حتى مع خطر الغرق؟

ـــ حتى مع خطر الغرق.

تبادل روكس وموران نظرة خاطفة. لقد أدركا الآن مدى أهمية هذه الشحنة للإمبراطورية. إنها أهم من حياتهما.

في اليوم التالي، غادرت العربات إلى باريس برفقة مفرزة من سلاح الفرسان. ورافقهم روكس. أما موران فكان من المقرر أن يبقى في مرسيليا للإشراف على إصلاحات سفينة "لافالانش".

وعندما افترقا، تصافح الرجلان.

ـــ أتمنى لك التوفيق في باريس. ستحتاج إليه.

ـــ شكرًا لكم على دعمكم خلال هذه الرحلة.

ـــ قضيت وقتي في النقد والتشكيك. لا بد أنني لم أكن رفيقاً لطيفاً.

ـــ لقد فتحت عينيّ. لقد جعلتني أفهم ما فعلناه حقاً في الصين. أنا ممتن لك.

ـــ أدلوا بشهادتكم. عندما يُسألون، أدلوا بشهادتكم. قولوا الحقيقة. لا تدعوا المنتصرين يعيدون كتابة هذا التاريخ.

ـــ أعدك.

استغرقت القافلة ستة أيام للوصول إلى باريس. ستة أيام من السفر على طرق مغطاة بالثلوج، في برد الشتاء القارس. لم ينم روكس إلا قليلاً، معذباً بفكرة مواجهة الإمبراطورة.

وأخيراً، في مساء يوم 28 فبراير، دخلوا باريس. ونُقلت الصناديق مباشرة إلى قصر التويلري، إلى جناح مُجهز خصيصاً لهذا الغرض.

قصر التويلري، باريس، 2 مارس 1861

بدأ فتح الصناديق تحت إشراف الجنرال كوزين دي مونتوبان، كونت باليكاو، الذي كان قد عاد لتوه من الصين. وكان الجنرال في حالة مزاجية سيئة للغاية.

— اثنتا عشرة قطعة من الخزف تحطمت! صاح بصوت جهوري وهو يتفقد الصندوق رقم ثلاثة وعشرين. اثنتا عشرة! هل تصدقون ذلك؟

— نعم يا جنرال، أجاب روكس وهو يقف في وضع الانتباه. العاصفة...

— العاصفة! نفس العذر دائماً! لقد أُؤتمنتم على كنوز الإمبراطورية! وتركتموها تتحطم كأوانٍ فخارية عادية!

— يا جنرال، لقد بذل روكس كل ما في وسعه، قاطع العقيد دوماس قائلاً. لقد قرأت تقرير الكابتن موران. كادوا أن يغرقوا.

التفت إليه الجنرال غاضباً.

— سواء غرقت هذه الأشياء أم لا، كان لا بد من وصولها سليمة!

— يا جنرال، لقد أنقذنا 62 صندوقاً من أصل 67، قال روكس متحدياً. أما الباقي فسليم.

حدق الجنرال فيه بعيون متألقة.

— اثنان وستون من أصل سبعة وستين؟ أتظن أن الإمبراطورة سترضى بهذا؟ إنها تتوقع مجموعة كاملة! ممتاز! وأنت تحضر لها قطعًا مكسورة!

أدار ظهره وخطا بضع خطوات محاولاً تهدئة نفسه.

— أين الصناديق المتضررة الأخرى؟

أراها روكس له. القطعة السابعة عشرة ببرونزهاتها السليمة رغم وجود لوح مكسور. والقطعة الثانية والثلاثون بحريرها المبلل. والقطعتان الخامسة والأربعون والواحدة والخمسون بأضرارهما الطفيفة.

فحص مونتوبان كل صندوق في صمت. ثم تنهد أخيراً.

— يمكن تنظيف البرونز. والحرير أيضاً، ربما. أما الخزف... فهو خسارة لا تُعوَّض.

استدار نحو روكس.

— هل احتفظت بالقطع؟

— نعم يا جنرال. جميعهم.

— حسنًا. سأطلب من مرمم أن يأتي. سنرى ما يمكنه فعله.

دخل ضابط وأدى التحية العسكرية.

— يا قائدي، ترغب جلالة الإمبراطورة في رؤية هذه الأشياء. ستصل خلال ساعة.

تعافى مونتوبان على الفور.

— ساعة واحدة! بسرعة! يجب أن نعرض أروع القطع! أيها العقيد، أحضر الطاولات وحوامل العرض!

سادت حالة من الهياج في الغرفة. فُتحت الصناديق واحداً تلو الآخر، وأُخرجت منها الأشياء بعناية. مزهريات مطلية بالمينا متعددة الألوان، تتلألأ ببريقها. أحجار يشم خضراء وبيضاء، شفافة كالماء. تماثيل برونزية طقسية مغطاة بطبقة عتيقة. أقمشة حريرية مطرزة بالتنانين والعنقاء.

تعامل روكس مع كل قطعة بمزيج من التبجيل والشعور بالذنب. لقد انتُزعت هذه الروائع من قصرها. كان من المفترض أن تكون هناك، في الصين، لا هنا في إحدى غرف قصر التويلري.

وصل المصور الشهير يوجين ديسديري ومعه معداته.

— ضع الخزف هنا. والبرونز هناك. واليشم في المنتصف.

بينما كان روكس يُجهز كاميرته، كان يراقبه. ستخلد هذه الصور تلك اللحظة، وستكون بمثابة دليل.

— ها هي، قال ديسديري راضياً بعد التقاط عدة صور. الآن، لو أمكنك ترتيب المزهريات بشكل مختلف...

تدخل الجنرال.

— ليس لدينا وقت. الإمبراطورة قادمة. ضعوا معداتكم جانباً.

امتثل ديسديري على مضض. بعد دقائق قليلة، سُمعت ضجة في الممر. خطوات أقدام، أصوات. ثم فُتح الباب.

ـــ صاحبة الجلالة الإمبراطورة أوجيني!

وقف الجميع في وضع الانتباه. دخلت أوجيني برفقة عدد من وصيفاتها وخدمها. كانت ترتدي فستاناً حريرياً أخضر فاتحاً يتناقض مع لون شعرها الكستنائي.

توقفت على العتبة، تتأمل الأشياء المرتبة في الغرفة. ظل وجهها جامداً، لكن روكس ظن أنه رأى بريقاً من الدهشة في عينيها.

ـــ أيها الجنرال، اقترب.

تقدم مونتوبان إلى الأمام وانحنى انحناءة عميقة.

ـــ جلالة الإمبراطورة، يشرفني أن أقدم لكم الأشياء التي أراد جيش الشرق أن يقدمها لكم كعربون امتنان.

تقدمت أوجيني إلى الأمام، وهي تتفحص كل قطعة. توقفت أمام مزهرية مطلية بالمينا تصور التنانين.

ـــ إنهم رائعون. رائعون للغاية.

ـــ يعود تاريخ هذه المزهرية إلى عهد الإمبراطور تشيان لونغ، في القرن الثامن عشر...

ـــ أعرف ما هي يا جنرال. لقد درست الفن الصيني.

واصلت تفتيشها، وتوقفت أمام كل غرفة، وكانت تطرح أحياناً أسئلة فنية كان الجنرال يجيب عليها باحترام.

وأخيراً، وصلت أمام الصندوق المفتوح الذي يحتوي على قطع الخزف المكسور.

ـــ ما هذا؟

حدق الجنرال في روكس بغضب.

ـــ جلالة الإمبراطورة، وقع حادث أثناء النقل. عاصفة...

ـــ قطع خزفية مكسورة من عهد أسرة مينغ. كم عددها؟

— الثاني عشر يا جلالة الإمبراطورة.

— من كان مسؤولاً عن النقل؟

تقدم روكس للأمام وانحنى.

— أنا، جلالتكم. الملازم هنري روكس، ضابط المدفعية.

حدقت أوجيني فيه بعينيها الخضراوين، الثاقبتين كالشفرات.

— اشرح نفسك.

ابتلع روكس.

— جلالة الإمبراطورة، لقد واجهنا عاصفة شديدة في المحيط الهندي. كانت السفينة تتمايل بشدة لدرجة أن العديد من الصناديق انفصلت رغم احتياطاتنا. لقد بذلنا قصارى جهدنا...

— من الواضح أن كل ما فعلته لم يكن كافياً.

— يا صاحبة الجلالة، لقد أكد قبطان السفينة أن العاصفة... قاطع مونتوبان قائلاً.

— لا أهتم بالعاصفة يا جنرال! هذه القطع الخزفية عمرها خمسة قرون. لقد نجت من الحروب والثورات وسلالات بأكملها. وهذا الرجل يسمح لها بالتحطم في غضون ساعات قليلة!

شعر روكس بالغضب يتصاعد بداخله.

— يا صاحبة الجلالة، ما كان ينبغي لهذه الخزفيات أن تغادر الصين أبداً. كان مكانها في القصر. لقد انتزعناها منه. لقد سرقناها.

ساد صمت مطبق في الغرفة. حدق العديد من الضباط برعب شديد. واحمر وجه الجنرال غضباً.

— يا ملازم! كيف تجرؤ...

لكن أوجيني رفعت يدها، فأسكتته. ثم اقتربت من روكس، وهي تحدق فيه بتمعن.

— مسروقة، كما تقول؟

— نعم يا جلالة الإمبراطورة. مسروقة. منهوبة. انتُزعت من حوزتهم. هذه الأشياء لا تخصنا.

— إنها الآن تابعة لفرنسا. بحق الغزو.

— هل حق الغزو حق حقيقي؟ أم أنه مجرد قانون الأقوى متنكر في زي الشرعية؟

انفجرت مونتوبان.

— هذا يكفي! أنت رهن الاعتقال! أيها الحراس!

— لا، دعه يتكلم. هيا، أخبرني برأيك الحقيقي.

تردد روكس. كانت لحظة حاسمة. كان بإمكانه التزام الصمت، والاعتذار، وإنقاذ مسيرته المهنية. أو كان بإمكانه قول الحقيقة.

تذكر الكابتن موران. وتذكر كلماته: "أدلي بشهادتك. قل الحقيقة."

— يا صاحبة الجلالة، كنتُ هناك. رأيتُ القصر قبل تدميره. كان... لا يُوصف. تحفةً فنية. ونهبناه. أفرغنا غرفه كاللصوص. تقاتلنا فيما بيننا على أثمن القطع. رأيتُ الجنود يُحطمون الأثاث لاستخراج الأحجار. رأيتُ العمال الصينيين يُنهون النهب بعد رحيلنا. ثم أحرق الإنجليز كل شيء. كل شيء. المكتبات، والمحفوظات، والأجنحة. كنوزٌ عمرها آلاف السنين تحولت إلى رماد.

وتابع بصوت منخفض.

— هذه الأشياء هنا هي كل ما تبقى. كل ما تبقى من قصرٍ استثنائي. وقد دمرناه. بسبب الكبرياء. بسبب الجشع. بسبب الوحشية.

ساد صمت مطبق. وظلت أوجيني تحدق به.

— هل تعتقد أننا همجيون؟

— أعتقد أننا تصرفنا كالبرابرة. نعم.

أدارت أوجيني ظهرها وخطت بضع خطوات. وعندما عادت، كان وجهها قد أصبح أكثر رقة.

— لديك شجاعة. أو تهور. ربما كلاهما.

اقتربت من طاولة كانت موضوعة عليها قطعة من اليشم الأبيض منحوتة على شكل تنين.

ـــ هل تظن أنني لا أعرف من أين أتت هذه الأشياء؟ هل تظن أنني لا أعرف ما حدث في الصين؟

ـــ أنا... لا أعرف.

ـــ أعرف ما فعله اللورد إلجين. أعرف أن البارون غروس عارضه. أعرف أن الجنرال كوزين دي مونتوبان رفض المشاركة في إشعال النار.

داعبتها وهي تداعب اليشم.

ـــ أعلم أيضاً أن هذه الأشياء هي نتيجة نهب. لستَ أول من أخبرني بذلك. لقد كتب لي فيكتور هوغو نفسه رسالة لاذعة.

ـــ فيكتور هوغو؟

ـــ نعم. منذ نفيه في غيرنسي، لم يتردد قط في التنديد بما يسميه همجية الغزاة المتحضرين. أخشى أن يكتب لي يوماً ما شخصياً ليخبرني بذلك وجهاً لوجه.

التفتت نحوه.

ـــ لكن ماذا تريدني أن أفعل؟ أن أعيد هذه الأشياء إلى الصين؟ لقد أعطاني إياها الجيش. إذا رفضت هذه الهدية، فسأتبرأ من الحملة بأكملها. سأكون بذلك أهين جنودنا.

ـــ الشرف؟ أي شرف في نهب قصر؟

تنهدت أوجيني.

ـــ أنت شاب. ترى العالم بالأبيض والأسود. لكن السياسة الإمبريالية مصنوعة من الرمادي. من التنازلات. من الضرورات.

أشارت بإيماءة شملت جميع الأشياء.

ـــ ستبقى هذه القطع في فرنسا. سيتم عرضها في فونتينبلو، في متحف سأقوم بإنشائه. متحف صيني. حيث يمكن للناس أن يعجبوا بها

ويدرسوها. أليس هذا أفضل من تركها لتتعفن في أنقاض قصر محترق؟

ـــ الإنجليز هم من أحرقوا القصر، وليس الصينيون.

ـــ أعلم ذلك، وأنا آسف. لكن الضرر قد وقع. لم يعد القصر موجوداً. هذه الأشياء هي كل ما تبقى منه. وستبقى هنا في فرنسا، حيث سيتم الحفاظ عليها.

أراد روكس أن يحتج، لكن أوجيني رفعت يدها.

ـــ أُقرّ بمخاوفك، بل وأحترمها. لكن تفهّم موقفي. أنا إمبراطورة فرنسا، وواجبي تجاه فرنسا لا تجاه الصين.

واجهت مونتوبان.

ـــ جنرال، كم من الوقت سيستغرق نقل كل هذا إلى فونتينبلو؟

ـــ أسبوع واحد. حان وقت حزم كل شيء وتجهيز الغرف.

ـــ افعل ذلك. واستعن بأفضل مُرمِّم تجده للخزف المكسور. أريده أن يُرمَّم، حتى لو لم يكن مثاليًا.

ألقت نظرة أخيرة على روكس.

ـــ أما أنت، فلست رهن الاعتقال. بل على العكس، أريدك أن تشرف على تركيب هذه القطع في فونتينبلو. لقد رافقتها من الصين، وسترافقها إلى وجهتها النهائية.

ـــ لكن...

ـــ إنه أمر. وربما عقاب. أو مكافأة. لا أعرف. سيكون لديك متسع من الوقت للتفكير في الأمر أثناء تنظيمك لمتحفي الصيني.

وبعد ذلك، غادرت الغرفة. وما إن غادرت حتى التفت الجنرال إلى روكس غاضباً.

ـــ أنت أحمق! أنت محظوظ لأن الإمبراطورة متساهلة!

ـــ لم أقل إلا الحقيقة.

— الحقيقة! ما علاقة الحقيقة بكل هذا؟ نحن في عالم السياسة! الحقيقة هي ما يقرره الإمبراطور!

— الحقيقة موجودة بغض النظر عما يقرره الإمبراطور.

حدق مونتوبان فيه، ثم هز رأسه.

— أنتَ مُستحيل. هيا. استعد لفونتينبلو. وهذه المرة، حاول ألا تُكسر أي شيء.

قصر فونتينبلو، 12 مارس 1861

وقف قصر فونتينبلو شامخاً في برد شهر مارس. وكان روكس قد وصل قبل ثلاثة أيام للإشراف على تجهيز الغرف التي ستضم المتحف الصيني.

اختارت الإمبراطورة الطابق الأرضي من غروس بافيون. سيتم تحويل أربع غرف واسعة إلى متحف: غرفة انتظار، وصالون كبير يُطلق عليه أحيانًا اسم "صالون البحيرة"، ومعرض-صالون، وخزانة للورنيش.

كان روكس يقف في الصالون الكبير بصحبة المهندس المعماري الإمبراطوري، السيد ليفويل، والمصمم، السيد روسو.

— أرادت الإمبراطورة ديكورًا يُبرز القطع دون أن يطغى عليها، أوضح ليفويل. ستائر قرمزية، وأعمال خشبية مذهبة، ولكن بأسلوب بسيط.

— خزائن عرض لأكثر القطع هشاشة، وأرفف زاوية للخزف، أضاف روسو.

استمع روكس إليهم بنصف انتباه. كان يفكر في الأشياء التي ستملأ هذه الغرف قريباً.

— ملازم؟ هل تسمعني؟

قفز روكس.

ـــ سامحني. كنتُ... في مكان آخر.

ـــ كنت أقول إن القاعة الرئيسية ستعرض القطع الرئيسية: المزهريات المزخرفة بالمينا، والستوبا التبتية الكبيرة، والتماثيل البرونزية الطقسية.

ـــ الستوبا. هل تقصد الستوبا النحاسية المذهبة ذات اللون الفيروزي؟

ـــ بالضبط. إنها قطعة رائعة. ستكون محور غرفة المعيشة.

تذكر روكس تلك الستوبا. لقد رآها في القصر، في معبد. كان الرهبان يصلّون أمامها. لقد كانت شيئًا مقدسًا. والآن، ستصبح قطعة زخرفية.

ـــ وماذا عن خزانة الطلاء؟

ـــ ستُخصص الغرفة لأثمن القطع: اليشم، والكريستال الصخري، والمجوهرات. كما سنقوم بتركيب ألواح طلاء صينية من القرن الثامن عشر على الجدران.

ـــ ألواح مطلية بالورنيش؟ من أين أتت؟

ـــ من المجموعة الشخصية للإمبراطورة. وهي مأخوذة من شاشات عتيقة.

ـــ إذن، الأشياء المسروقة أيضاً من الصين.

عبس ليفويل.

ـــ عفو؟

ـــ لا شيء. استمر.

في الأيام التالية، أشرف روكس على تركيب الأثاث وخزائن العرض. عمل الحرفيون ليلاً ونهاراً لضمان جاهزية كل شيء قبل وصول القطع.

ورشة ترميم، 15 مارس 1861

في إحدى الظهيرات، بينما كان يتفقد العمل، دخل رجل مسن يحمل حقيبة.

— الملازم روكس؟ أنا السيد دوبوا، خبير ترميم. لقد كلفتني الإمبراطورة بفحص الخزف المكسور.

قاده روكس إلى غرفة مجاورة حيث كانت الصناديق مخزنة. فتح الصندوق رقم 23.

فحص السيد دوبوا القطع، يقلبها بين يديه، ويقربها من الضوء. كان رجلاً يحمل وجهه آثار عقود قضاها منحنياً فوق أشياء هشة. تعاملت أصابعه المتشابكة، لكن الدقيقة، مع الشظايا برقة متناهية.

— همم. خزف مينغ، من عهد شواندي إن لم أكن مخطئاً. القرن الخامس عشر.

— هل يمكنك إصلاحها؟

هز دوبوا رأسه ببطء.

— لا، لن نعيدها إلى حالتها الأصلية. ربما نعيد ربطها فقط. لكنها لن تستعيد حالتها الأصلية أبدًا. وستنخفض قيمتها بشكل كبير.

— تريد الإمبراطورة إصلاحها.

— سأبذل قصارى جهدي. لكن الأمر سيكون واضحاً. ستبقى الكسور ظاهرة. وهناك العديد من الأجزاء المفقودة.

— هل هناك أجزاء مفقودة؟

— نعم. انظر إلى هذا الخزف.

رفع دوبوا برفق قطع وعاء كبير أزرق وأبيض. ورتبها على الطاولة مثل أحجية غير مكتملة.

— ثلاثة أجزاء على الأقل مفقودة. من المحتمل أنها ضاعت أثناء العاصفة، وتناثرت خارج الصندوق.

انحنى روكس. كان دوبوا محقاً. لم تتلاءم القطع معاً تماماً. ظهرت فجوات في التصميم.

— ماذا يمكنك أن تفعل بدون هذه الأجزاء؟

ـــ أعد بناء الشكل العام. لكن الأجزاء المفقودة ستبقى فارغة. إلا إذا كنت تريدني أن أملأها بمزيج وأرسمها. يمكنني إعادة رسم النمط، وتقليد الطلاء. من بعيد، لن يلاحظ أحد الفرق.

نظر روكس إلى القطع الموضوعة على الطاولة. فكرة تزييفها، وخلق وهم الاكتمال، أثارت اشمئزازه فجأة.

ـــ لا، لا للتقليد. إذا كان لا بد من بقائها مكسورة، فلتبق كذلك. على الأقل سيكون ذلك صادقاً.

رفع دوبوا رأسه متفاجئاً.

ـــ هذا أمر غير معتاد. يفضل معظم هواة جمع المقتنيات المظهر الجميل على الأصالة. إنهم يريدون أن تبدو قطعهم مثالية، حتى لو كانت هذه المثالية مصطنعة.

ـــ لستُ جامعاً للتحف. أنا مجرد رجل يحاول ألا يضيف الأكاذيب إلى السرقة.

نظر إليه المرمم لفترة طويلة، ثم أومأ برأسه بتعبير يشبه الاحترام.

ـــ كما تعلم، في التقاليد اليابانية، يمارسون تقنية كينتسوجي. إنها تقنية لإصلاح الخزف المكسور.

ـــ لا أعرف.

ـــ عندما تنكسر قطعة خزفية، يُعاد لصق القطع معًا باستخدام طلاء ممزوج بمسحوق الذهب. فتصبح الشقوق مطلية بالذهب، ظاهرة، ومُحاطة. لا تُخفى، بل تُبرز.

مرر دوبوا إصبعه على طول أحد الشقوق.

ـــ لماذا يفعلون ذلك؟ لأن الكسر جزء من تاريخ الشيء. إخفاؤه إنكار لماضيه. بتذهيبه، يحولونه إلى شيء جميل. ندبة تصبح زينة.

اقترب روكس من الطاولة حيث كانت قطع الخزف الاثنتي عشرة قيد الفحص مصطفة.

— أرادت الإمبراطورة منك إصلاحها. لكن ربما تكون مخطئة. ربما ينبغي أن نتركها معطلة.

— لإثبات فشلك؟

— لإظهار الحقيقة. لقد انتُزعت هذه القطع من قصرها، ونُقلت آلاف الكيلومترات، وتقاذفتها العواصف. تحمل آثار هذه الرحلة. إن محوها هو بمثابة محو للتاريخ.

بدأ دوبوا في فرز الشظايا، وفصل تلك التي تنتمي إلى كل قطعة من الخزف.

— أنت تضعني في موقف صعب يا ملازم. لقد أُمرت بإعادتهم إلى أفضل ما أستطيع. الإمبراطورة تتوقع نتائج.

— أعد ترميمها. ولكن كما قلت: تقبّل الشقوق. دعها تبقى ظاهرة. دع الناس يرون ما حدث لها.

ابتسم المرمم، ابتسامة متعبة ولكنها تحمل في طياتها معرفة عميقة.

— هل تعلم أن بعض هواة جمع التحف سيدفعون لي ثروة طائلة لإخفاء هذه الشقوق تمامًا؟ إنهم يريدون وهم الكمال. قطعة من خزف مينغ "تم ترميمها بواسطة دوبوا" حيث لا يمكنك رؤية مكان الشقوق، تساوي ضعف سعرها في السوق.

— الإمبراطورة ليست جامعَة تحف عادية.

— لا، بالتأكيد. إنها مثقفة وحساسة. ربما ستفهم ما تحاول فعله.

أخذ دوبوا إحدى القطع ورفعها نحو الضوء القادم من النافذة. تألق اللون الأزرق الكوبالتي، عميقاً ونقياً.

— انظر إلى هذا اللون الأزرق. ألا ترى كيف يبدو وكأنه يهتز؟ إنه الأزرق السمرقندي، الذي كان يُستورد عبر طريق الحرير. كان حرفيو عهد أسرة مينغ يمزجون هذا الكوبالت مع معادن محلية أخرى للحصول على هذه الدرجة اللونية تحديدًا. إنه لون أزرق لم يعد بالإمكان صنعه اليوم، فقد فُقدت تركيبته.

أعاد وضع القطعة برفق إلى مكانها.

ـــ يعود تاريخ هذه القطع الخزفية إلى أكثر من أربعمائة عام. صُنعت خلال عهد الإمبراطور شواندي، أحد أعظم رعاة الفنون في التاريخ الصيني. لقد نجت من سقوط سلالة مينغ، وصعود سلالة تشينغ، ومن قرون من الحروب والاضطرابات. والآن...

ـــ والآن هم محطمون في قلعة فرنسية، اختتم روكس كلامه بمرارة قائلاً.

ـــ نعم. لكن على الأقل ما زالوا موجودين.

بدأ دوبوا في رسم اسكتشات، ملاحظاً كيف تتناسب الأجزاء مع بعضها البعض، وأين توجد الفجوات.

ـــ سيستغرق الأمر مني حوالي ثلاثة أسابيع. سأعمل هنا، في هذه الورشة. يمكنك الحضور والمشاهدة إن رغبت.

ـــ سآتي. أود أن أرى كيف ستسير الأمور.

ـــ جيد. لكن يجب أن أحذرك: سيكون من الصعب مشاهدة ذلك. إعادة لصق الخزف المكسور أشبه بـ... أشبه بمحاولة إصلاح شيء مكسور من الأساس. يمكنك تحسين المظهر، لكن السلامة الأصلية ستضيع إلى الأبد.

أومأ روكس برأسه. لقد فهم ما لم يقله دوبوا صراحةً: كانت قطع الخزف هذه استعارة. لقد مثلت العلاقة بين فرنسا والصين، التي مزقتها العنف والنهب. يمكن إعادة تجميع القطع، وخلق وهم بالإصلاح، لكن الشرخ الأصلي سيبقى دائمًا ظاهرًا.

ـــ سيد دوبوا، هل لي أن أسألك سؤالاً شخصياً؟

ـــ بالتأكيد.

ـــ ما رأيك في كل هذا؟ في النهب، وفي هذه الأشياء، وفي هذا المتحف الذي نقوم بإنشائه؟

وضع المرمم أدواته ونظر إلى روكس في عينيه.

ـــ هل تريد حقاً أن تعرف؟

ـــ نعم.

ـــ أعتقد أنها مأساة. مأساة معقدة، بلا مُذنبين واضحين أو أبرياء. الجنود الذين نهبوا القصر كانوا يُنفذون الأوامر. الضباط الذين نظموا الفرقة كانوا يتبعون اللوائح العسكرية. الإمبراطورة، بقبولها هذه الأشياء، تُؤدي واجبها الوظيفي. ومع ذلك، فالنتيجة واحدة: إرث ثقافي لا يُعوَّض قد انتُزع من سياقه الأصلي.

وأشار بيده نحو شظايا الخزف.

ـــ لكن إليكم الأمر: هذه الأشياء موجودة الآن. إنها هنا، في فرنسا. لا يمكننا تغيير التاريخ. السؤال الوحيد المتبقي هو: ماذا نفعل الآن؟ هل نخفيها خجلاً؟ هل ندمرها ندماً؟ أم نحافظ عليها قدر استطاعتنا، متذكرين مأساة اقتنائها؟

ـــ وأنت، ماذا ستفعل؟

ـــ ما أفعله دائمًا: عملي كمرمم. أصلح ما يمكن إصلاحه، وأحافظ على ما تبقى. لكنني لا أنسى أبدًا أصل هذه الأشياء. وعندما أستطيع، كما هو الحال اليوم، أترك آثار التلف ظاهرة. حتى لا يدّعي أحدٌ عدم وجود أي ضرر.

في الأيام التالية، كان روكس يأتي بانتظام لمراقبة دوبوا أثناء عمله. كان المرمم يعمل في ورشة عمل تغمرها الإضاءة الطبيعية، محاطًا بأدواته: مواد لاصقة حيوانية، وفرش بأحجام مختلفة، وعدسات مكبرة، وملاقط صغيرة، وورق صنفرة ناعم للغاية.

كانت العملية رائعة ومؤلمة في آن واحد. بدأ دوبوا بتنظيف كل قطعة على حدة، وإزالة الغبار والأوساخ وبقايا مياه البحر التي تسربت إلى الصندوق أثناء العاصفة. ثم قام بتجميع القطع كما لو كانت أحجية، وجرّب كل تركيبة، محاولاً معرفة كيفية تركيب القطع معًا.

ـــ أصعب شيء، كما أوضح لروكس. هو مقاومة إغراء إجبار الأمور على التوافق. عندما لا تتناسب قطعة ما تمامًا، تكون الغريزة

هي دفعها، والضغط عليها. لكن ذلك قد يخلق شقوقًا جديدة. عليك أن تتحلى بالصبر، وتدع القطع تكشف عن نفسها.

بالنسبة لأول قطعة خزفية، وهي عبارة عن وعاء كبير أزرق وأبيض مزين بالتنانين والغيوم، أمضى دوبوا أربعة أيام في تجميع جميع القطع المتاحة. وعندما انتهى، كان الوعاء مكتملاً، لكن ثلاثة مساحات كبيرة ظلت فارغة. خلقت القطع المفقودة فجوات في التصميم، مثل نوافذ تطل على الفراغ.

ـــ هذا أفضل ما يمكنني فعله دون تزييف أي شيء، قال دوبوا وهو يتراجع للخلف.

حدّق روكس في الخزف المُرمّم. كانت خطوط الغراء ظاهرة، مُشكّلةً شبكةً من الشقوق الفضية. قطعت الأجزاء المفقودة التنانين فجأةً، تاركةً إياها غير مكتملة. كان المنظر جميلاً ومُحزناً في آنٍ واحد.

ـــ إنها تبدو كخريطة، همس قائلاً.

ـــ خريطة لدمارها، نعم. كل خط يروي قصة اصطدام، وسقوط، وعمل عنيف. إنها قصة رحلتها، منقوشة في الخزف نفسه.

ـــ هل ستقبل الإمبراطورة بهذا؟

ـــ لا أعرف. لكنها الحقيقة. وأحياناً، تكون الحقيقة أثمن من الجمال.

مرت أسابيع. انتهى دوبوا من ترميم القطع الخزفية الاثنتي عشرة. بعضها كان شبه مكتمل، مع وجود شقوق قليلة ظاهرة فقط. أما البعض الآخر، مثل وعاء التنين الكبير، فكان من الواضح أنه لا يزال غير مكتمل، مع وجود مساحات فارغة كبيرة.

في اليوم الأخير، عندما انتهى دوبوا من صنع جميع الأشياء، رتبها على طاولة طويلة. وتأملها روكس لفترة طويلة.

ـــ لقد تغيروا الآن.

ـــ نعم. لقد اكتسبت تاريخاً جديداً. تاريخ تحطيمها وإصلاحها. لم تعد هي نفسها الأشياء التي كانت في القصر الإمبراطوري.

ـــ هل يقلل ذلك من قيمتها؟

ـــ يعتمد الأمر على تعريفنا للقيمة. هل هي قيمتها السوقية؟ بالتأكيد. سيدفع جامعو التحف مبلغًا أقل بكثير مقابل قطعة خزفية مكسورة ومُرممة مقارنةً بقطعة سليمة. أما قيمتها التاريخية؟ قيمتها كشهادة تاريخية؟ ربما تكون قد ازدادت.

قام دوبوا بتخزين أدواته.

ـــ كما تعلم يا ملازم، طوال مسيرتي المهنية، هذه هي المرة الأولى التي يُطلب مني فيها ترك آثار الجروح ظاهرة. عادةً ما يطلب مني الناس محو جميع آثار الضرر. لكنني أعتقد أنك محق. يجب أن تحمل قطع الخزف هذه بصمة ما حدث لها. يجب أن تشهد على ذلك.

ـــ أشهد على ماذا؟

ـــ عن الهشاشة. عن العنف. عن مأساة النهب. وربما أيضاً عن إمكانية التعويض، مهما كان ناقصاً.

باريس، معرض ليميرسييه، شارع دو بروفانس، 20 مارس 1861

حصل روكس على إجازة لبضع ساعات. وبدلاً من البقاء في فونتينبلو، استقل القطار إلى باريس. دفعه شيء ما إلى معرفة مصير الأشياء الأخرى المنهوبة من القصر، تلك التي لم تصل إلى الصناديق المخصصة للإمبراطورة.

كان قد سمع عن سيغفريد ليميرسييه، تاجر التحف الفنية المتخصص في القطع الآسيوية. وكان معرضه، الواقع في شارع بروفانس، مشهوراً بجودة قطعه.

عندما دخل روكس، رنّ جرس صغير. كان داخل المعرض أشبه بكهف علاء الدين: خزف صيني معلق بجانب مطبوعات يابانية، وبرونز تايلاندي بجوار اليشم البورمي. كل شيء مُرتب بذوق رفيع، ومضاء بضوء طبيعي يتدفق عبر نوافذ كبيرة.

كان سيغفريد ليميرسييه رجلاً نحيفاً أنيقاً يرتدي نظارة بإطار فولاذي وله لحية مهذبة. كان يفحص قطعة صغيرة من اليشم من خلال عدسة

مكبرة، قدمها له عميلٌ متحفظ. كان الرجل يرتدي ملابس مدنية، لكنه كان يتمتع بهيبة رجل عسكري.

ـــ سلالة تشينغ، أكد ليميرسييه. عمل استثنائي. المصدر؟

ـــ القصر الصيفي. كنت هناك.

ـــ مثل كثيرين غيرهم.

وضع ليميرسييه قطعة اليشم وكتب رقماً على قطعة من الورق، ثم دفعها نحو محاوره. شحب وجه الرجل.

ـــ هل هذا كل شيء؟

ـــ السوق مشبع يا عزيزي. كل باريس تبيع "كنوزاً أصلية من القصر الصيفي". نصفها مزيف، والنصف الآخر لا يوجد له مصدر يمكن التحقق منه.

ـــ لكن هذه الصورة أصلية! كنت هناك! لقد التقطتها بنفسي...

ـــ لا أشك في روايتك، لكن أثبتها. هل لديك شهادة؟ وثيقة تثبت أنك كنت بالفعل جزءًا من البعثة الصينية؟ بيان من ضابط رفيع المستوى؟

تردد الرجل.

ـــ لا، ولكن...

ـــ بالنسبة لي ولعملائي، قد يكون هذا اليشم قد أتى من أي مكان. ربما من القصر الصيفي، أو ربما من ورشة في بكين تصنع نسخًا للسياح الأوروبيين. وبدون توثيق لمصدره، لا أستطيع ضمان أصالته. وبدون ضمان، ينخفض سعره.

التقط الرجل قطعة اليشم خاصته، وقد بدا عليه خيبة الأمل والإحباط بشكل واضح.

ـــ هذا سرقة! لقد خاطرت بحياتي هناك!

ـــ لا يا سيدي. السرقة هي ما كنت تفعله في القصر الصيفي. أما أنا فأمارس التجارة.

غادر الرجل وأغلق الباب بقوة. تنهد ليميرسييه والتفت إلى روكس، الذي كان يلاحظه لأول مرة.

ـــ معذرةً، لقد كان يوماً طويلاً. هل يمكنني مساعدتك؟

ـــ لست متأكداً. هل تشتري أغراضاً من القصر الصيفي؟

تأمله ليميرسييه عن كثب. هيئته العسكرية، والزي العسكري تحت معطفه المدني غير المغلق بإحكام، ونظراته التي كانت غريبة ومثيرة للقلق في آن واحد.

ـــ هل أنت تشتري أم تبيع؟

ـــ لا هذا ولا ذاك. أردت أن أرى.

ـــ انظر ماذا؟

ـــ ماذا يحدث للأشياء التي لم ينتهي بها المطاف في فونتينبلو؟

ابتسم ليميرسييه، ابتسامة كانت تحمل في طياتها مزيجاً من التسلية والتعب.

ـــ آه. أنت من أولئك الضباط الذين يشعرون بالندم. ندمهم يتزايد باستمرار. اجلس. سأريك.

جلس روكس. ذهب ليميرسييه ليحضر دفتر حسابات كبير مجلد بالجلد وفتحه على المنضدة.

ـــ انظر. منذ أكتوبر 1860، اشتريتُ ثلاثة وسبعين قطعة يُزعم أنها من القصر الصيفي. ثلاثة وسبعون قطعة! وأنا مجرد تاجر واحد من بين عشرات التجار في باريس. هل يمكنك تخيل العدد الإجمالي؟

قام روكس بمسح السجل. كل إدخال يوضح تفصيلاً لشيء ما: الوصف، الأصل المفترض، اسم البائع، سعر الشراء.

ـــ لديك أسماء البائعين...

ـــ نعم. معظمهم جنود أو ضباط من البعثة. بعضهم بحارة، وقليل منهم عمال صينيون رافقوا القوات. جميعهم يروون القصة نفسها: لقد "عثروا" على هذه الأشياء، و"أنقذوا" هذه الكنوز من التدمير.

— وأنت تشتريها؟

— هذا عملي. أنا لا أحكم على أحد. ولا أسأل كيف حصلوا على هذه الأشياء. ما يهمني هو أصالتها وجودتها.

أغلق ليميرسييه السجل.

— لكن لنكن صريحين يا ملازم... إنه ملازم، أليس كذلك؟

— الملازم هنري روكس.

— الملازم روكس: لنكن صريحين. معظم هذه الأشياء مسروقة. ليست "مصادَرة وفقًا لقواعد الحرب" ولا "منقذة من التدمير". مسروقة. بكل بساطة. دخل الجنود قصرًا، وأخذوا ما أرادوا، والآن يعيدون بيعه ببضع مئات من الفرنكات.

— ألا يزعجك ذلك؟

— بالطبع يزعجني هذا! لستُ وحشًا. لكن ماذا تتوقع مني أن أفعل؟ إن لم أشترِها، سيشتريها غيري. على الأقل أضمن أنها ستنتهي مع هواة جمع جادين سيحافظون عليها.

نهض ليميرسييه وخطا بضع خطوات في المعرض.

— تعال، سأريك شيئاً.

اصطحب روكس إلى خزانة عرض في الجزء الخلفي من المعرض. كان بداخلها ثلاث قطع من الخزف الأزرق والأبيض، من الواضح أنها قديمة وذات جودة عالية للغاية.

— انظر إلى هذه القطع. إنها من عهد أسرة مينغ، القرن الخامس عشر. وبحسب البائع، وهو رقيب في سلاح المشاة، فقد أتت من القصر الصيفي. أخذها من إحدى غرف القصر، ولفّها ببطانيته، وأحضرها معه إلى فرنسا في حقيبته.

— واشتريتها.

— اشتريتها. خمسمئة فرنك للثلاثة. مبلغ زهيد. لم يكن الرقيب يعرف شيئًا عن الفن الصيني. ظنّ أنها لا تساوي أكثر من خمسين فرنكًا. كان بإمكاني الحصول عليها بمئة فرنك، لكنني أردت أن أكون منصفًا.

— عادل، كرر روكس.

— نعم، هذا صحيح. والآن، هذه القطع الخزفية موجودة هنا في معرضي. سأبيعها لأحد هواة جمع التحف، ربما مقابل ثلاثة أو أربعة آلاف فرنك. سيحتفظ بها هذا الجامع بعناية، ويدرسها، وربما يعيرها لمعارض. سيتم الحفاظ عليها وتقديرها وتوريثها للأجيال القادمة.

— كان ينبغي عليهم البقاء في الصين.

— بالطبع كان ينبغي أن تبقى في الصين! لكنها لم تعد هناك. لقد دُمّر القصر. لا يمكن إعادة هذه القطع الخزفية إلى هناك. ماذا نفعل؟ هل ندمرها بدافع الندم؟ هل نخفيها في قبو؟ أم نتقبل الواقع ونضمن على الأقل معاملتها بعناية؟

لم يرد روكس. كان ينظر إلى الخزف، الذي يشبه إلى حد كبير الخزف الذي نقله.

— كم عدد القطع الأثرية من القصر الصيفي التي تعتقد أنها موجودة في باريس الآن؟ سأل أخيراً.

— آلاف. بل ربما عشرات الآلاف. في المعارض، وفي المجموعات الخاصة، وفي علّيات الجنود الذين لا يعلمون ما يملكون. ناهيك عما هو موجود في إنجلترا وروسيا وألمانيا. لم يكن النهب عملاً فرنسياً فحسب، كما تعلمون.

عاد ليميرسييه إلى خلف منضدته.

— هل تريد أن تعرف ما يحزنني حقًا؟ ليس الأمر أن هذه القطع سُرقت، بل أنها تشتتت. مجموعة إمبراطورية استغرق تجميعها قرونًا، كانت تتمتع بتماسك ومنطق، أصبحت الآن مبعثرة في كل مكان. فقدت القطع سياقها. مزهرية كانت في غرفة محددة، إلى جانب قطع أخرى

محددة، تُشكل لوحة متناغمة، تجد نفسها الآن معزولة في واجهة عرض باريسية. لقد ضاع معناها.

— يحاول متحف فونتينبلو إعادة بناء شيء ما...

— بديل. محاكاة. لن يكون أبداً كما كان عليه القصر الصيفي. كيف يُمكنه ذلك؟

اتجه روكس نحو المخرج، ثم استدار.

— قلتَ إن العديد من الضباط جاؤوا لرؤيتك وهم يشعرون بالندم. ماذا تقول لهم؟

— الحقيقة. ما حدث قد حدث. لا يمكنهم تغيير الماضي. لكن بإمكانهم على الأقل ضمان معاملة الأشياء التي أخذوها معاملة حسنة. أعلم أنه عزاء ضئيل، لكنه أفضل من لا شيء.

— هذا لا يكفي.

— لا، هذا ليس كافياً. لكنه كل ما لدينا.

قصر التويلري، المكتب الخاص بالإمبراطورة، 25 نوفمبر 1861

قرأت أوجيني الرسالة التي سلمتها إياها سكرتيرتها مرارًا وتكرارًا. كان الخط خط فيكتور هوغو، لا لبس فيه. كبير، قوي، يكاد يكون مسرحيًا. كُتبت الرسالة من منزل هوتفيل في غيرنسي، حيث كان الشاعر يعيش في المنفى منذ معارضته لانقلاب نابليون الثالث.

كانت تعرف هوغو. بل كانت معجبة به قبل المنفى، قبل أن تفرق بينهما السياسة. والآن، من عزلته في غيرنسي، استمر في انتقادها وزوجها بلا هوادة.

كانت هذه الرسالة مختلفة عن غيرها. أكثر شخصية. وأكثر إيلاماً.

"سيدتي،

أُبلغتُ أنكم أنشأتم "متحفًا صينيًا" في فونتينبلو لعرض القطع الأثرية التي جُلبت من البعثة الصينية. وقيل لي إنكم تعتبرون هذه القطع هدايا من الجيش، وشواهد على عظمة فرنسا.

اسمحوا لي أن أخبركم، باحترام يليق بمكانتكم، ولكن أيضاً بصراحة ألتزم بها تجاه ضميري، ما رأيي في هذه "الهدايا".

في ركنٍ من أركان العالم، وقفت إحدى عجائب الدنيا؛ هذه الأعجوبة تُدعى القصر الصيفي. للفن مبدأان: الفكرة، التي تُنتج الفن الأوروبي، والخيال، الذي يُنتج الفن الشرقي. كان القصر الصيفي بالنسبة للفن الخيالي بمثابة البارثينون بالنسبة للفن المثالي.

ابنِ حلماً من الرخام واليشم والبرونز والخزف، وأطره بخشب الأرز، وغطه بالأحجار الكريمة، وزينه بالحرير، واجعله ملاذاً هنا، وحريماً هناك، وقلعة هناك، وضع فيه آلهة، وضع فيه وحوشاً، وقم بتلميعه، وطلائه بالمينا، وتذهيبه، ورسمه، واجعل المهندسين المعماريين الشعراء يبنون ألف ليلة وليلة، وأضف الحدائق والبرك ونوافير الماء والرغوة والبجع وأبو منجل والطواويس، باختصار تخيل نوعاً من الكهف المبهر للخيال البشري على شكل معبد وقصر، كان هذا هو النصب التذكاري.

في أحد الأيام، اقتحم لصان القصر الصيفي. نهب أحدهما، وأضرم الآخر النار. يبدو أن النصر قد يكون خاسراً. لحق بالقصر الصيفي دمار واسع النطاق، وتقاسم المنتصران الغنائم. ويرتبط اسم إلجين، الذي يحمل في طياته دلالة مشؤومة على البارثينون، بكل هذه الأحداث.

ما أنجزه البارثينون، أنجزه القصر الصيفي. كل ما يمكن أن ينتجه خيال شعبٍ يكاد يكون خارقًا كان موجودًا هناك. لم يكن، مثل البارثينون، عملًا نادرًا وفريدًا؛ بل كان أشبه بنموذج ضخم للخيال، إن جاز التعبير عن الخيال بنموذج.

تخيّل بناءً لا يوصف، أشبه بصرح قمري، وستحصل على القصر الصيفي. وكل ذلك لم يعد موجوداً.

نحن الأوروبيون هم المتحضرون، والصينيون هم البرابرة في نظرنا. هذا ما فعلته الحضارة بالبربرية.

سيخلد التاريخ اسمي هذين اللصين. أحدهما يُدعى فرنسا، والآخر يُدعى إنجلترا.

لكني آمل أن يأتي يوم تعيد فيه فرنسا، بعد تحريرها وتطهيرها، هذه الغنائم إلى الصين المنهوبة.

هذه هي السرقة التي ارتكبها أحد المنتصرين، والتي غضّ الطرف عنها الآخر. اليوم، نعجب بهذه "الكنوز" في متحفكم. لكن هل تعلمون من أين أتت؟ من السرقة. هل تعلمون أين يجب أن تكون؟ في الصين.

يشرفني أن أكون، سيدتي، خادمكم المحترم.

فيكتور هوغو"

وضعت أوجيني الرسالة جانباً. كانت يداها ترتجفان قليلاً. نهضت وسارت نحو النافذة، تنظر دون أن ترى حدائق التويلري حيث كان المتنزهون يتجولون في ضوء نوفمبر الخافت.

كانت وصيفتها، دوقة مالاكوف، تنتظر في زاوية الغرفة، وهي تطرز بصمت. لقد شعرت بعدم ارتياح الإمبراطورة.

— هل جلالتكم مستاءة؟

استدارت يوجيني.

— سيدتي دي مالاكوف، اقرئي هذا.

ناولته الرسالة. ألقت الدوقة نظرة سريعة على السطور، وبدا وجهها أكثر جدية تدريجياً. وعندما انتهت، وضعت الرسالة جانباً فجأة.

— هذا... هذا اتهامٌ شائن! هذا الرجل يجرؤ على وصف جلالتكم باللص! هو الذي يعيش في المنفى، والذي يبث سمومه من صخرته، والذي لم يحرك ساكناً قط من أجل فرنسا!

— هذا الرجل هو فيكتور هوغو. أحد أعظم شعراء عصرنا.

— مع ذلك، يبقى خائناً! خصماً! أ...

— رجل يقول الحقيقة.

اتسعت عينا الدوقة.

— لا يمكن لجلالتكم أن تفكر في ذلك!

عادت أوجيني إلى الجلوس على مكتبها. التقطت الرسالة وأعادت قراءتها، وتوقفت عند بعض المقاطع.

— "أحدهما نهب والآخر أحرق." هذا صحيح. الفرنسيون نهبوا، والإنجليز أحرقوا. هوغو محق.

— لكنها كانت حربًا! قواعد الحرب...

— هل تبرر قواعد الحرب كل شيء؟ نهب قصر؟ تدمير مكتبة عمرها ألف عام؟ حرق معابد؟

— اللورد إلجين هو المسؤول عن الحريق، وليس نحن!

— وماذا عن النهب؟ من المسؤول عن النهب؟

نهضت أوجيني مرة أخرى وبدأت تتجول في الغرفة، والرسالة في يدها.

— أتعرف ما يؤلمني أكثر في هذه الرسالة؟ ليس الاتهام، ولا اللهجة، بل كونه محقًا. هوغو محق. لقد جئنا إلى الصين متظاهرين بالتحضر والتفوق والتنوير، وتصرفنا كالبرابرة.

— جلالتكم...

— لا، دعني أتكلم. أتظن أنني لا أعرف من أين أتت هذه الأشياء؟ أتظن أنني لا أعرف ما حدث في القصر؟ لقد قرأت جميع التقارير. لقد استمعت إلى شهادات الضباط، أولئك الذين يملكون الشجاعة لقول الحقيقة. لقد رأيت رسومات تشارلز ويرغمان. قرأت مقالات توماس بولبي قبل وفاته في الأسر. أنا أعرف.

توقفت أمام صورة لنابليون الثالث معلقة على الحائط.

— أعرف ما فعلناه. وأحمل هذه المعرفة كعبء ثقيل.

— لماذا تم قبول هذه القطع الأثرية؟ ولماذا تم إنشاء هذا المتحف؟

— لأنني إمبراطورة فرنسا. ولأن رفض هذه الأشياء كان سيُعدّ تبرؤاً من الحملة، وإهانةً للجيش، وإذلالاً لزوجي. ولأن السياسة الإمبراطورية لا تسمح لي برفاهية اتباع ضميري.

عادت إلى مكتبها وجلست مترهلة على كرسيها.

— يطلب مني هوغو إعادة هذه الأشياء إلى الصين. هل تتخيلون؟ الفضيحة؟ الإهانة؟ لن يسامحني الإمبراطور أبدًا. سيكرهني الجيش. ستشوه الصحف سمعتي. ولماذا؟ حتى الصينيون أنفسهم لن يتمكنوا من استعادتها. القصر مدمر. أين سيضعونها؟

— ليس على جلالتكم ما تلومون أنفسكم عليه.

— أجل! لديّ كل ما ألوم نفسي عليه! لقد قبلت هذه الأشياء. لقد أنشأت هذا المتحف. لقد عرضتها كجوائز. لقد جعلت نفسي شريكاً في الجريمة.

— شريك في ماذا؟ في الحفاظ على الأعمال الفنية؟ لولا جلالتكم، لكانت هذه الأشياء قد تشتتت، أو بيعت، أو ربما حتى دُمرت!

هزت يوجيني رأسها.

— هذا ما أقوله لنفسي لأنام ليلاً. أنني أنقذت هذه الأشياء. أنني منحتها مكاناً لائقاً. لكن في أعماقي، أعلم أنها كذبة. كذبة مريحة، لكنها كذبة في النهاية.

أخذت ورقة بيضاء فارغة وغمست ريشتها في الحبر.

— هل ستجيبين فيكتور هوغو؟ سألت الدوقة.

— كيف لي أن أرد على ذلك؟ هل أنكر الحقائق؟ لا أستطيع. هل أبررها؟ لا أريد ذلك.

— لا ترد. تجاهل هذه الرسالة. هوغو منبوذ؛ لا أحد يصغي إلى تذمره.

— أنت مخطئ. كثيرون يستمعون إلى هوغو. في فرنسا، وفي أوروبا. إنه أحد الأصوات الأخلاقية في عصرنا.

بدأت أوجيني بالكتابة، ثم توقفت. قامت بتجعيد الورقة ورميها بعيداً.

— لا، لن أجيب. ماذا عساي أن أقول؟ أنه مخطئ؟ هو محق. أننا تصرفنا بشرف؟ لم نفعل. أنني سأعيد الأغراض؟ لا أستطيع.

نهضت وسارت نحو خزانة عرض صغيرة في مكتبها حيث كانت تحتفظ ببعض مقتنياتها الشخصية. من بينها قطعة صغيرة من اليشم الأبيض، وهي من أوائل القطع التي جُلبت من الصين، حتى قبل النهب الممنهج للقصر.

— انظر إلى هذه اليشم. إنها جميلة، أليس كذلك؟ نقية. مثالية. عندما أنظر إليها، أرى فنًا، أرى جمالًا. لكن هوغو يراها سرقة. وتعرف ماذا؟ إنه محق في رؤيتها سرقة. لأنها كذلك بالفعل.

— جلالتكم تقسو على نفسها كثيراً.

— لا، لستُ قويًا بما يكفي. لو كنتُ صادقًا حقًا، لو كنتُ شجاعًا حقًا، لأعدتُ تلك الأشياء. مهما كانت الفضيحة، ومهما كانت العواقب. لكنني لن أفعل. لأنني ضعيف. لأنني أفضل العيش مع الشعور بالذنب على مواجهة الإذلال العلني.

لم تكن الدوقة تعرف ماذا تقول. لم ترَ الإمبراطورة قط في هذه الحالة، ضعيفة إلى هذا الحد، ومعذبة إلى هذا الحد.

— ماذا أفعل برسالة هوغو؟ سألت أخيراً.

— احتفظوا بها. مع الوثائق الأخرى المتعلقة بالمتحف الصيني. دعوها تبقى في الأرشيف. ليعثر عليها المؤرخون في المستقبل. ليعلموا أن أحدهم، على الأقل، تحلى بالشجاعة ليقول الحقيقة. وليعلموا أيضاً أنني سمعت هذه الحقيقة، وأنني لم أفعل شيئاً.

— هذا قاسٍ جداً يا جلالة الإمبراطورة.

— سيكون التاريخ أقسى. هوغو محق في نقطة واحدة: سيتذكر التاريخ أسماءنا. ولن يكون ذلك رحيماً.

كان الليل يخيّم على باريس. في مكان ما من هذه المدينة، في المعارض والقصور الخاصة والعليّات، كانت هناك آلاف القطع الأثرية المسروقة

من الصين. وفي فونتينبلو، كان متحفها الصيني يتألق، شاهداً على الفن والجريمة معاً.

ـــ هل تعرف ما يؤلمني أكثر من غيره؟ ليس أن هوغو يدينني، بل أنه محق في إدانتي، وأنه لا حيلة لي في ذلك، همست قائلة.

اقتربت دوقة مالاكوف.

ـــ جلالتكم تفعل ما في وسعها في وضع مستحيل.

ـــ لا، أنا أفعل ما هو مناسب سياسياً، وما هو مقبول لدى البلاط، وما يحافظ على هيبة الإمبراطورية. لكن هذا لا يعني بالضرورة فعل الصواب.

التفتت إلى الدوقة.

ـــ أتعرفون ماذا سأفعل الآن؟ سأضع هذه الرسالة جانبًا. سأعود إلى مهامي. سأبتسم في افتتاح المتحف. سأتقبل الإطراءات على مجموعتي. وسأتعايش مع هذا التناقض.

ـــ يعيش العديد من السياديين في ظروف أسوأ بكثير.

ـــ هذا ليس عزاءً. إنها مجرد ملاحظة أننا جميعاً فاسدون بسبب السلطة، بشكل أو بآخر.

حلّ الظلام الدامس. أضاءت الدوقة المصابيح في غرفة الدراسة. وفي ضوئها الذهبي، بدت يوجيني فجأة أكبر سناً وأكثر إرهاقاً.

ـــ اتركني وشأني الآن. أحتاج إلى التفكير.

ـــ حسناً جداً يا جلالة الإمبراطورة.

غادرت الدوقة، آخذةً معها رسالة فيكتور هوغو. بقيت أوجيني وحيدةً في مكتبها، محاطةً بأثاثها الثمين ولوحاتها وكتبها. وفي مكانٍ ما، في فونتينبلو، كان متحفها الصيني ينتظرها، مليئًا بالكنوز المسروقة.

أخرجت مذكراتها الخاصة وكتبت:

"في الخامس والعشرين من نوفمبر عام ١٨٦١، كتب إليّ فيكتور هوغو من غيرنسي. وصفني باللص. وهو محق. أنا لص. أو على

الأقل، أنا شريك في السرقة. أقبل الأشياء المنهوبة. أعرضها. أُعجب بها. فماذا يجعلني هذا؟

أقول لنفسي إنني أحافظ عليها، وأنه لولا وجودي لتشتتت وضاعت. لكن هل أنشأت هذا المتحف حقاً للحفاظ عليها؟ أم لأجل التباهي؟ لإظهار قوة فرنسا؟ لأمتلك شيئاً جميلاً خاصاً بي؟

لا أعرف الإجابة. أو بالأحرى، أعرفها، لكنني لا أريد الاعتراف بها.

سيحكم علينا التاريخ. قالها هوغو، وهو محق. سيذكر التاريخ أسماءنا. وعندما ينطق بها، سيكون ذلك بإدانة."

أغلقت الجريدة وأطفأت المصابيح، فتركت الغرفة في ظلام دامس.

باريس، الحي اللاتيني، 10 يناير 1862

تجول روكس على ضفاف نهر السين. كان يوم عطلة، يوم نادر وثمين. كان العمل في فونتينبلو يسير على ما يرام؛ المتحف على وشك الانتهاء. قرر المجيء إلى باريس، دون سبب محدد، لمجرد التجول والتأمل.

أثناء مروره بجانب مقعد بالقرب من جسر بونت نوف، لاحظ رجلاً يجلس، يحدق بثبات في متحف اللوفر على الجانب الآخر من النهر. شيء ما في وضعيته، في سكونه، لفت انتباه روكس.

كان الرجل يرتدي ملابس على الطراز الأوروبي - بنطال داكن، وسترة صوفية، وقبعة بولر - لكنه كان لا يزال يرتدي ذيل الحصان الصيني التقليدي المتدلي على ظهره. بدا في الخمسين من عمره تقريباً، ووجهه يحمل آثار الزمن والحزن.

اقترب روكس دون أن يعرف السبب تمامًا. ربما كان شعور الرجل بالوحدة الواضحة. ربما كان شعوره بالذنب هو ما دفعه للبحث عن نوع من التكفير عن الذنب.

— هل أنت معجب بمتحف اللوفر؟

استدار الرجل نحوه. عبّرت عيناه عن حزن عميق، ولكن أيضاً عن وميض من عدم الثقة.

ـــ أنا معجب وأحتقر، أجاب بتردد ولكن بالفرنسية الصحيحة.

ـــ كيف ذلك؟

ـــ إنه جميل. لكنه نصب تذكاري للسرقة. كل تلك التماثيل اليونانية، وتلك اللوحات الإيطالية، وتلك الكنوز من كل مكان. مسروقة. مأخوذة. ممزقة.

شعر روكس بانقباض في قلبه. جلس على المقعد، على مسافة محترمة.

ـــ أنت صيني.

ـــ كنتُ بستانياً في القصر الصيفي. أما الآن فأنا... لا شيء. منفيّ. رجل بلا وطن، بلا عمل، بلا مستقبل.

ـــ كيف وصلت إلى فرنسا؟

ـــ مع مُبشّر فرنسي، الأب دوراند. أخفاني بعد الدمار. أخذني معه عندما عاد إلى فرنسا. ظنّ أنه يُنقذني. ربما كان يُديننني.

أخرج الرجل منديلًا ومسح عينيه.

ـــ سامحني. لا ينبغي لي أن أبكي أمام شخص غريب. لكن في بعض الأحيان، يكون الحزن شديداً للغاية.

ـــ اسمي هنري روكس.

ـــ تشين وي: تشرفت بلقائك، سيد روكس.

صمتوا للحظة، وهم يحدقون في متحف اللوفر. وصاحت طيور النورس فوق نهر السين.

ـــ تقول إنك كنت بستانياً في القصر الصيفي؟

ـــ نعم. كنت مسؤولاً عن الحدائق في جناح الباون. هل تعرفه؟

هز روكس رأسه.

ـــ لا. أنا... كنت هناك، لكنني لم أرَ سوى جزء صغير من القصر.

نظر إليه تشين وي بتمعن.

ـــ هل كنت هناك؟ هل كنت جندياً؟

ـــ ضابط مدفعية.

تصلّب الرجل، وقبضت يده على منديله. رأى روكس الخوف والغضب يلمعان على وجهه.

ـــ كنتَ واحداً منهم. واحداً من اللصوص.

ـــ نعم.

كان بإمكانه أن يكذب، وينكر، ويختلق قصة أخرى. لكن شيئًا ما في داخله رفض. الحقيقة هي كل ما يستطيع تقديمه الآن.

نهض تشين وي، كما لو كان سيغادر. ثم جلس برفق.

ـــ لماذا تخبرني بهذا؟ ألا تخشى أن أضربك؟ أن أتصل بالشرطة؟

ـــ ماذا ستقول للشرطة؟ هل ستقول إنني شاركت في عملية عسكرية مصرح بها من قبل الحكومتين؟ هذا ليس جريمة بموجب القانون الفرنسي.

ـــ لكنها جريمة في نظر الإنسانية.

ـــ نعم، إنه واحد.

نظر إليه تشين وي لفترة طويلة، محاولاً فهم هذا الفرنسي الغريب الذي كان يعترف بذنبه.

ـــ أخبرني عن قصرك، أخبرني عن الحدائق التي كنت تعتني بها، قال روكس فجأة.

ـــ لماذا؟ للسخرية منك؟

ـــ لا، بل لأتذكر. لأشهد. لأنني كنت هناك عندما دُمِّر، وأريد على الأقل أن أعرف ما دمرناه.

تردد تشين وي، ثم بدأ يتحدث. في البداية كان يبحث عن كلماته بالفرنسية، ثم أسرع فأسرع، كما لو أن سداً قد انهار.

كان جناح الطاووس من أجمل أجنحة القصر، وقد شُيّد في عهد الإمبراطور تشيان لونغ في القرن الثامن عشر. امتدت الحدائق

المحيطة بالجناح على مساحة عدة هكتارات، وتضم أشجارًا معمرة، وبركًا تعجّ بالأسماك الذهبية، وممرات حجرية بيضاء تلتف بين أحواض زهور الفاوانيا.

تحدث بيديه، راسماً في الهواء أشكال الحديقة التي اختفت.

ـــ قضيت سنواتٍ أعتني بهذه الحدائق. كنت أستيقظ كل صباح قبل الفجر، وأتفقد النباتات، وأقلم الأغصان، وأنظف البرك. لقد كان هذا عالمي، حياتي.

ـــ هل كان جميلاً؟

ـــ جميلة؟ هذه الكلمة لا تفيها حقها. لقد كانت... كانت أشبه بحلم. كما تعلم، الحدائق الصينية تختلف عن حدائقكم الفرنسية. في بلدكم، كل شيء متناظر، هندسي، ومنضبط. أما حدائقنا فتحاول محاكاة الطبيعة، لكنها طبيعة مثالية، متقنة.

أغمض تشين وي عينيه، متذكراً.

كان هناك جسر صغير مقوس يمتد فوق المجرى الرئيسي. من أعلى هذا الجسر، كان بالإمكان رؤية الحديقة بأكملها. في الربيع، كانت أشجار الكرز تتفتح، وتتساقط بتلاتها الوردية على الماء كالثلج. في الصيف، كانت زهور اللوتس تتفتح بأزهارها البيضاء والوردية في البرك. في الخريف، كانت أشجار القيقب تتحول إلى اللون الأحمر الناري. في الشتاء، كان الثلج يغطي كل شيء بغطاء أبيض، وتنحني أغصان الصنوبر تحت وطأته.

ـــ من أتى إلى هذه الحدائق؟

ـــ الإمبراطور أحيانًا، ومحظياته غالبًا، والعلماء والفنانون والرهبان. كان مكانًا للتأمل والشعر والتفكر. رأيتُ رسامين يقضون أيامًا كاملة في محاولة التقاط الضوء على البرك. سمعتُ موسيقيين يعزفون على آلة الغوتشين تحت أشجار الصفصاف الباكية. قدمتُ الشاي لفلاسفة يناقشون كونفوشيوس ولاو تزو.

فتح عينيه مرة أخرى، ورأى روكس أنهما ممتلئتان بالدموع.

— ثم جئتم أنتم. أيها الجنود الأجانب. كنت في الحديقة ذلك الصباح. كنت أقلم أزهار الأقحوان. سمعت صيحات، وطلقات نارية. رأيت دخاناً.

انقطع صوته.

— ركضتُ نحو الجناح. كان الجنود هناك بالفعل. فرنسيون. إنجليز. لا أدري. بدوا جميعًا متشابهين. كانوا يُحطمون كل شيء. كانوا يُمزقون الستائر الحريرية. كانوا يُكسرون الأثاث. كانوا يتشاجرون فيما بينهم على أثمن الأشياء.

— حاولتُ التدخل. صرختُ: "توقفوا! هذا قصر الإمبراطور!" ضربني جنديٌّ بمؤخرة بندقيته فسقطتُ أرضًا. عندما نهضتُ، رأيتُ ضابطًا فرنسيًا - ربما أنتَ، من يدري؟ - يُشرف على عملية النهب. كان يُصدر الأوامر بصوتٍ عالٍ. وكان الجنود يُخرجون المسروقات ويُحمّلونها على العربات.

استمع روكس بقلب مثقل. تذكر ذلك اليوم. لقد أشرف بالفعل على تحميل بعض الصناديق. لقد صرخ بالأوامر. لقد كان هو ذلك الضابط.

— قضيت ثلاثة أيام مختبئاً في الحدائق، تابع تشين وي قائلاً. شاهدت عمليات النهب. رأيت زملائي، والبستانيين الآخرين، وخدم القصر، يفرون أو يختبئون. قُتل بعضهم. رأيت جثثاً.

— في اليوم الثالث، ازداد الدخان كثافة. كان الإنجليز يحرقون كل شيء.

استدار نحو روكس.

— أتسألني أن أخبرك عن قصري؟ لم يعد موجوداً. كل ما تبقى هو ذكرياتي. وقريباً، عندما أموت، حتى تلك الذكريات ستختفي.

— لا، لن تختفي. سأحتفظ بها. سأكتبها.

— ما الفائدة؟ لن يعيد ذلك القصر.

لا. لكن على الأقل سيعرف أحدهم. سيشهد أحدهم أن القصر الصيفي لم يكن مجرد مجموعة من المباني المليئة بالأشياء الثمينة. لقد كان

مكانًا نابضًا بالحياة. مكانًا عمل فيه أناس مثلك، وأبدعوا، ورعوا الجمال.

ـــ لماذا تفعل هذا؟ ما الذي يهمك؟

ـــ لأنني كنت هناك. لأنني شاركت. ولأنني يجب أن أتحمل هذه المسؤولية.

جلسوا في صمت، يحدقون في متحف اللوفر. كان ضوء شهر يناير باهتًا وباردًا.

ـــ هل تعلم ما هو الأمر الأكثر قسوة؟ قال تشين وي أخيرًا. ليس تدمير القصر، بل أنك لا تدرك حتى ما دمرته. بالنسبة لك، كان مجرد قصر للعدو. أما بالنسبة لنا، فقد كان قلب حضارتنا. كان يضم قرونًا من الفن والثقافة والمعرفة. كل ذلك ذهب أدراج الرياح.

ـــ فهمت الآن.

ـــ لا، أنت لا تفهم. لا يمكنك أن تفهم. كان عليّ أن آخذك إلى هناك، لأريك كيف كان القصر في السابق. لكن هذا مستحيل. لأنه لم يعد موجوداً.

نهض تشين وي.

ـــ قلتَ إنك ستكتب مذكراتي. هل ستفعل ذلك حقاً؟

ـــ نعم.

ـــ اكتب هذا: كان قصر يوين مينغ يوين أكثر من مجرد قصر. لقد كان حلماً تحقق. حلماً بالكمال والجمال والانسجام. وأنت قتلته. أنت قتلت حلمنا.

ابتعد بضع خطوات.

ـــ هناك شيء واحد أود رؤيته قبل أن أموت. الأشياء. تلك التي أخذتها معك. قيل لي إنها في فونتينبلو. هل هذا صحيح؟

ـــ نعم. في متحف أنشأته الإمبراطورة.

ـــ أود رؤيتهم. لمرة واحدة فقط. لأتذكرهم.

— أستطيع أن آخذك إلى هناك. أنا أعمل هناك. أستطيع الحصول على الإذن.

تردد تشين وي، ثم أومأ برأسه.

— حسناً. متى؟

— خلال أيام قليلة. سأرسل لك رسالة. أين تقيم؟

— في منزل الأب دوراند. شارع دو باك. كنيسة سانت توماس داكين.

— سأرسل لك رسالة من هناك.

سار تشين وي مبتعداً على طول نهر السين، وذيله الصيني يتأرجح خلفه، كشخصية وحيدة في باريس الشتوية.

بقي روكس على المقعد، مرتجفًا. ولأول مرة، سمع صوتًا من الجانب الآخر. لم يكن ضابطًا صينيًا، ولا مسؤولًا حكوميًا، بل بستاني بسيط. رجل كرس حياته لخلق الجمال، وشهد تدمير ذلك الجمال في غضون أيام قليلة.

أخرج جريدته وكتب:

"10 يناير 1862. باريس. التقيت بتشين وي، البستاني السابق للقصر الصيفي. أخبرني عن عمله، والحدائق التي كان يعتني بها. أثناء استماعي إليه، فهمت شيئًا لم أكن قد أدركته حتى الآن.

ظننا أننا ننهب قصر عدو. ظننا أننا نأخذ نفائس. لكننا فعلنا أكثر من ذلك بكثير. لقد دمرنا عالماً. عالماً من الجمال والثقافة والحضارة.

أمضى تشين وي عشرين عاماً في رعاية حدائق جناح الطاووس. عشرون عاماً من العمل الدؤوب، والعناية اليومية، والشغف بفنه. ثم دمرنا كل ذلك في غضون ساعات قليلة.

يقول إنني لا أستطيع الفهم. وهو مُحق. كيف لي أن أفهم حقًا؟ لم أرَ القصر إلا هدفًا عسكريًا. لم أرَ الحدائق في الربيع، ولا أشجار الكرز المُزهرة، ولا البرك بأسماكها الذهبية. لم أسمع الموسيقى تُعزف هناك، ولا القصائد تُلقى هناك.

لكنني على الأقل أعرف الآن أن كل هذا كان موجوداً. وأننا دمرناه.
سآخذه إلى فونتينبلو. سيرى الأشياء. ربما سيخفف ذلك عنه قليلاً. أو ربما سيزيد الألم حدة. لا أدري.
كل ما أعرفه هو أنني مدين له بذلك."

قصر فونتينبلو، 15 يناير 1862

حصل روكس على إذن خاص. كان ينتظر تشين وي عند مدخل القلعة. وصل الرجل الصيني في وقت متأخر من الصباح، برفقة الأب دوراند، وهو مبشر من الرهبنة اللعازرية قضى ثلاثين عامًا في الصين.

— الملازم روكس؟ أنا الأب دوراند. أخبرني تشين وي عن اجتماعكم.

تصافحا. كان وجه الكاهن قد أثرت عليه شمس الصين، وعيناه زرقاوان ثاقبتان تحت حاجبين كثيفين.

— إنه لمن دواعي سروري أن رتبت هذه الزيارة، تابع الأب دوراند قائلاً. تشين وي بحاجة إليها. لقد كان يعاني من الوهن منذ وصولنا إلى فرنسا. إن رؤية الأشياء الموجودة في القصر، حتى في ظل هذه الظروف، قد تساعده.

لم ينطق تشين وي بكلمة. نظر إلى القلعة بقلق.

— هيا بنا، قال روكس، المتحف من هنا.

عبروا ساحات القلعة. سار تشين وي ببطء، كما لو كان متجهاً نحو إعدامه. وعندما وصلوا أمام مدخل المتحف الصيني، توقف فجأة.

— لا أستطيع.

— نعم، يمكنك ذلك. تعال.

أمسك الأب دوراند بذراع تشين وي برفق.

— هيا يا صديقي، لقد قطعت كل هذه المسافة للوصول إلى هنا.

دخلوا الغرفة الأمامية. توقف تشين وي فوراً أمام عرش الهودج. بدأت يداه ترتجفان.

ـــ هذه لوحة الإمبراطورة الأرملة، همس. لقد رأيتها مئة مرة. كانت في قاعة الجمهور الكبير.

اقترب، وبرقة بالغة، لمس الخشب المطلي بأطراف أصابعه. ثم سحب يده كما لو أنه قد أحرق نفسه.

ـــ آسف. لا ينبغي لي أن ألمس.

ـــ لا بأس، قال روكس. المسها. هذه الأشياء كانت في منزلك قبل أن تكون هنا.

دخلوا إلى غرفة المعيشة الكبيرة. توقف تشين وي أمام كل قطعة، وكان يتمتم أحيانًا بكلمات باللغة الصينية، وأحيانًا أخرى يلمس الخزائن الزجاجية برفق بأطراف أصابعه.

أمام الستوبا التبتية العظيمة، أغمض عينيه.

ـــ كان ذلك في معبد الصفاء الكوني. ذهبتُ إلى هناك للتأمل. الرهبان...

ـــ خذ وقتك يا تشين.

أمام المزهريات المزخرفة بالمينا، انحنى تشين وي ليصبح على نفس مستوى الأشياء.

ـــ كان هذا التمثال في جناح المئة زهرة. أتذكر اليوم الذي جاء فيه الإمبراطور ليُعجب به. قال إن التنانين بدت وكأنها حية، لدرجة أنك تكاد تراها تتحرك. كنتُ هناك، أُقدّم الشاي.

نهض وانتقل إلى مزهرية أخرى.

ـــ هذه القطعة أتت من صالون التحف. كانت الإمبراطورة تحب أن تنظر إليها في الصباح، عندما تجعل أشعة الشمس المشرقة المينا تلمع.

واصلوا جولتهم. في صالة العرض، تعرفت تشين وي على الحرير والبرونز واليشم. كل قطعة منها أثارت ذكرى، أو حكاية، أو لمحة من الحياة اليومية في القصر.

ثم دخلوا غرفة الطلاء. توقف تشين وي، وقد انقطع نفسه. خلقت الألواح الصينية الخمسة عشر القابلة للطي التي تزين الجدران جواً حميماً، يكاد يكون مقدساً.

— هذه اللوحات... إنها من جناح الانسجام العظيم. لقد رأيتها هناك، قال بصوت هامس.

اقترب وفحص المشاهد المرسومة على اللوحات: مناظر جبلية، أنهار، أجنحة تقع على المنحدرات، علماء يتأملون الطبيعة.

— هذا من عمل الأستاذ ليانغ. لقد عمل على هذه اللوحات لمدة ثلاث سنوات. وشهدتُ تركيبها. كان ذلك قبل خمسة عشر عاماً.

بقي تشين وي واقفاً لفترة طويلة أمام خزائن العرض التي تحتوي على أحجار اليشم. تعرف على العديد من القطع، وسرد تاريخها وأصلها وكيفية استخدامها.

ثم وصل أمام واجهة عرض الخزف المرمم. ولاحظ على الفور الشقوق والمناطق المفقودة.

— هل تعطلت أثناء الرحلة؟

— عاصفة. في المحيط الهندي.

أومأ تشين وي ببطء، دون غضب، فقط بحزن شديد.

— لقد نجوا لخمسة قرون في الصين. بضعة أشهر معك كانت كافية.

قام بفحص كل قطعة من الخزف المرمم، متتبعاً بإصبعه الشقوق المرئية من خلال زجاج واجهة العرض.

— من قام بهذا الترميم؟

— السيد دوبوا. أحد أفضل المرممين في فرنسا.

— لقد قام بعمل جيد. لقد ترك الندوب ظاهرة. هذا هو الصدق.

استقام تشين وي ودخل المكتب بخطوات قليلة.

ـــ هل تعلم ما هو الغريب؟ هذه الأشياء معروضة هنا بشكل جميل. خزائن العرض رائعة، والإضاءة مثالية، والتنسيق متناغم. ومع ذلك، لا تنتمي إلى هنا.

قام بحركة شملت الغرفة بأكملها.

ـــ في القصر، كان لكل قطعة مكانها المحدد. كان هذا الخزف بجانب هذا اليشم، الذي كان بجانب هذا البرونز. معًا، كانوا يخلقون معنىً وتوازنًا. أما هنا، فهم معروضون فحسب... كما في متجر. بلا سياق. بلا روح.

تدخل الأب دوراند بلطف.

ـــ لكن على الأقل هي محفوظة. على الأقل يمكن للناس رؤيتها والإعجاب بها.

ـــ يستطيع الناس رؤية الأشياء، لكنهم لا يرون ما كانت تمثله. إنهم لا يرون القصر، ولا يرون الحياة التي دارت فيه.

استدار تشين وي نحو روكس.

ـــ شكرًا لك على إحضاري إلى هنا. كان هذا الأمر مهمًا بالنسبة لي. ولكنه مؤلم أيضًا. إن رؤية هذه الأشياء خارج سياقها أشبه برؤية أجزاء من جسد مقطوعة ومعروضة بشكل منفصل. أنت تدرك أنها تنتمي إلى جسد، لكن الجسد نفسه ميت.

تجولوا في أرجاء المتحف مرة ثانية. توقف تشين وي لفترات أقصر الآن، كما لو أن الألم قد أصبح شديداً للغاية.

وبينما كان على وشك المغادرة، استدار للمرة الأخيرة في غرفة المعيشة الكبيرة.

ـــ هذه الأشياء ليست ملكًا لكم، ولكنكم الآن أوصياء عليها. كونوا أوصياء صالحين.

ـــ أعدك.

— وعود الجنود...

لم يُكمل جملته. أمسك الأب دوراند بذراعه واتجها نحو المخرج. رافقهم روكس إلى بوابات القلعة.

— تشين وي، أود أن أدون قصتك، قال روكس قبل مغادرتهم. ما أخبرتني به عن الحدائق، وعن عملك، وعن القصر. حتى يعرف الناس. حتى يتم حفظ شهادتك.

نظر إليه تشين وي لفترة طويلة.

— ما الفائدة؟ من سيهتم بقصة بستاني صيني بسيط؟

— مؤرخو المستقبل. الأشخاص الذين سيرغبون في فهم ما حدث بالفعل.

— افعل ما تشاء. إذا كان ذلك يخدم أي غرض...

أخرج شيئًا صغيرًا من جيبه. كانت حصاة من اليشم المصقول، بحجم بيضة، ذات لون أخضر داكن.

— خذ هذا. إنه كل ما استطعت إنقاذه من القصر. وجدته في الحدائق في اليوم التالي للحريق. احتفظ به. تخليداً لذكرى الحدائق التي فُقدت.

التقط روكس اليشم بعناية. كان ناعماً ودافئاً عند اللمس، وذو جمال بسيط ونقي.

— لا أستطيع أن أقبل...

— نعم. خذها. أنت الآن حارسها. تمامًا كما أنت حارس كل شيء في هذا المتحف.

انصرف تشين وي والأب دوراند. راقبهم روكس وهم يغادرون، ثم نظر إلى اليشم الذي في يده.

عاد إلى القلعة وصعد إلى الغرفة التي كانت بمثابة مكتبه المؤقت. أخرج مذكراته وكتب بإسهاب عن كل ما أخبره به تشين وي: حدائق جناح الطاووس، وأزهار الكرز، والبرك التي تعج بالأسماك الذهبية، والجسر الصغير المقوس، والعلماء الذين أتوا للتأمل، والموسيقيين

الذين عزفوا تحت أشجار الصفصاف، والرسامين الذين أمضوا أيامًا في تصوير الضوء.

كتب حتى احمرّت يده، حتى نفدت الشموع تماماً. وعندما انتهى، وضع اليشم بجانب مذكراته.

"15 يناير 1862. فونتينبلو. جاء تشين وي لرؤية الأشياء اليوم. لقد تعرف على كل واحدة منها. وروى قصتها، وموقعها في القصر، وكيف تم استخدامها.

عندما استمعت إليه، أدركت شيئاً جوهرياً. هذه الأشياء ليست مجرد أعمال فنية، بل هي شظايا من عالم زائل، عالم دمرناه.

قال تشين وي إنها لا تنتمي إلى هنا. وهو محق. لن تنتمي أبدًا. مهما كان المتحف جميلًا، ومهما كانت المعروضات رائعة، ستبقى هذه الأشياء غريبة.

أهداني قطعة من اليشم. حصاة مصقولة بسيطة. قال إنها كل ما استطاع جمعه من الحدائق. ربما تكون هذه القطعة الصغيرة عديمة القيمة من اليشم أثمن شيء على الإطلاق. لأنها تحمل في طياتها ذكريات رجل، ذكريات حياة كرسها لخلق الجمال.

سأحتفظ بها دائماً. لأتذكر. لأتذكر أبداً ما دمرناه."

في 18 مارس 1862، انتهى كل شيء

أجرت أوجيني تفتيشاً نهائياً برفقة روكس.

تجولوا في الغرف الأربع، معجبين بالنتيجة. لقد كانت رائعة. كان المتحف الصيني جوهرة، ومكاناً يليق بالكنوز التي يحتويها.

في غرفة الطلاء، توقفت أوجيني أمام خزانة العرض التي تحتوي على الخزف المُرمم. كانت الكسور ظاهرة، كأنها ندوب. أما الأجزاء المفقودة فبقيت فارغة.

— كان قرارك برفض الندوب المزيفة صائباً. هذه الندوب مهمة. إنها تذكرنا بهشاشتنا. وربما أيضاً بمسؤوليتنا.

التفتت نحوه.

ـــ لقد أنجزت مهمتك. لقد رافقت هذه الأشياء إلى هنا. لقد راقبتها، وحميت ما يمكن حمايته. شكرًا لك.

ـــ كان ذلك مجرد واجبي.

ـــ كان واجبك يقتصر على نقلهم. لكنك فعلت أكثر من ذلك. لقد شهدت على كل شيء. قلت الحقيقة، حتى وإن كانت مؤلمة. احتفظ بمذكراتك. احفظها في مكان آمن. ففي يوم من الأيام، ربما بعد زمن طويل، سيرغب أحدهم في معرفة ما حدث بالفعل.

ـــ سأحتفظ به.

ـــ جيد. أنت حر الآن. عد إلى فوجك. استأنف حياتك.

انحنى روكس واتجه نحو المخرج. وعلى العتبة، استدار للمرة الأخيرة. بقيت أوجيني واقفة أمام خزانة عرض الخزف المكسور، بلا حراك، غارقة في التأمل.

غادر القلعة وسار عبر الحدائق. كان يوماً جميلاً من أواخر الشتاء. بدأت البراعم الأولى بالظهور على الأشجار. فكّر في تشين وي، وفي حدائق جناح الطاووس التي لن تخضرّ مجدداً.

فكّر في الرحلة التي قام بها. من بكين إلى فونتينبلو. من الصين إلى فرنسا. رحلة استغرقت عدة أشهر، عبر خلالها المحيطات، وتحدى العواصف.

فكّر في الكابتن موران، بشكوكه وتساؤلاته. وفي القنصل دي مونتيني، بتحذيراته النبوئية. وفي الإمبراطورة أوجيني، الممزقة بين ضميرها وواجباتها. وفي تشين وي، البستاني الذي لا يملك حديقة.

وفكر في الصينيين. في إذلالهم. في غضبهم. في رغبتهم في العدالة التي ستأتي يوماً ما، كما تنبأ مونتيني.

أخرج دفتر يومياته وجلس على مقعد. كانت قطعة اليشم التي أهداها له تشين وي في جيبه. أخرجها، وأمسكها في راحة يده، وشعر بسطحها الناعم الدافئ. ثم كتب تدوينة أخيرة.

"18 مارس 1862. فونتينبلو. تم الانتهاء من المتحف الصيني. وجدت القطع الأثرية المنهوبة من القصر موطنها الجديد. إنها رائعة. لكنها ليست في موطنها.

تظن الإمبراطورة أنها تحافظ عليها، لكنها لا تستطيع محو حقيقة أنها سُرقت، وأننا انتزعناها منها.

لا أعرف ماذا سيقول التاريخ عنا. ربما سيديننا. ربما سيفهمنا. أو ربما سينسانا ببساطة.

لكن هذه الأشياء ستبقى. في هذا المتحف. شهود صامتون على جريمة. شهود صامتون على حقبة ظننا فيها أن تفوقنا يمنحنا كل الحق."

أغلق جريدته ووضعها جانباً. ثم نهض وغادر فونتينبلو.

خلفه، في القلعة، كشفت الصناديق السبعة والستون عن أسرارها. تألقت الأشياء في خزائن عرضها، محط إعجاب وحماية.

وانتظروا.

كانوا ينتظرون اليوم الذي يستطيعون فيه العودة إلى ديارهم.

قصر فونتينبلو، 3 يناير 1863

اجتذبت الجولة العامة الأولى المصحوبة بمرشدين في المتحف الصيني حشدًا كبيرًا. وتوافد الأرستقراطيون والفنانون والعلماء والمتفرجون الفضوليون على الغرف، معجبين بالكنوز المعروضة.

كان من بينهم رسام شاب يُدعى جول أرماند. كان يتجول حاملاً دفتر رسمه، ويتوقف أمام كل شيء. وكان يرافقه صديقه ومعلمه، الناقد الفني الشهير تيوفيل غوتييه.

— هذه الألوان، همس أرماند وهو يرسم مزهرية من المينا. انظر إلى هذه الدرجات من اللون الأزرق يا ثيوفيل. إنها درجات من اللون الأزرق لا نعرف كيف نعيد إنتاجها في فرنسا.

كان غوتييه يراقب المزهرية.

ـــ إنه طلاء المينا. تقنية صينية عمرها آلاف السنين.

ـــ استثنائي. وذلك التنين... دقة الرسم...

دخلوا إلى غرفة الطلاء حيث عُرضت أحجار اليشم. توقف غوتييه أمام تمثال يمثل تنينًا من اليشم الأخضر.

ـــ هذا مثير للاهتمام. من المحتمل أن يكون هذا اليشم من شينجيانغ. هل ترى هذه الشفافية؟ إنها علامة على جودة اليشم العالية.

اقترب منهم زائر آخر، رجل في منتصف العمر يرتدي نظارات. كان إرنست رينان، الفيلسوف والمؤرخ.

ـــ أيها السادة، اسمحوا لي أن أقدم نفسي. أنا إرنست رينان. لقد سمعتكم تتحدثون عن هذه الأمور بمعرفة واسعة.

ـــ تيوفيل غوتييه، ناقد فني. وهذا صديقي جول أرماند، رسام.

ـــ تشرفت بلقائك. ما رأيك في هذه المجموعة؟

تردد غوتييه.

ـــ إنها رائعة. بلا شك. لكن لا يسعني إلا أن أفكر في ظروف حصولها على هذه الفرصة.

ـــ آه. أنت أيضاً تشعر بالقلق حيال أصل هذه الكنوز.

ـــ ألا تشعر بالقلق يا سيدي؟

ـــ نعم، بالطبع. لكنني مؤرخ. لقد درستُ الفتوحات والنهب والسلب عبر العصور. وأستطيع أن أؤكد لك أمراً واحداً: ما فعلناه في الصين لا يختلف عما فعله الرومان باليونانيين، أو ما فعله الصليبيون بالبيزنطيين.

ـــ هل هذا يجعله أكثر قبولاً؟

ـــ لا، لكن هذه هي الحقيقة. لطالما بُنيت الحضارة على النهب. كل أمة عظيمة شيدت متاحفها بغنائم الأمم المغلوبة.

ـــ هذا رأي متشائم للغاية يا سيد رينان.

ـــ ربما. أو ربما هو الواقعي فقط.

واصلوا زيارتهم في صمت. وفي الصالون الكبير، كانت سيدة أنيقة تُبدي إعجابها بالستوبا التبتية الضخمة.

ـــ إنها كونتيسة مونتيخو، والدة الإمبراطورة، همس أرماند قائلاً.

كانت الكونتيسة تتحدث بحماس إلى شابة كانت ترافقها.

ـــ لقد أبدعت ابنتي شيئاً رائعاً هنا. متحف حقيقي يليق بأعظم المجموعات الأوروبية.

ـــ صحيح يا كونتيسة. ولكن أليس صحيحاً أن هذه الأشياء تأتي من القصر الذي تم ... تدميره؟

عبست الكونتيسة.

ـــ أحرقها الإنجليز يا عزيزتي، لا نحن. لقد أنقذنا هذه الأشياء من الدمار. لولا مبادرة ابنتي، لكانت قد ضاعت إلى الأبد.

ـــ فهمت يا سيدتي.

ـــ هذه الأشياء الآن في أمان. سيتم دراستها والإعجاب بها وحفظها للأجيال القادمة. أليس هذا هو الأهم؟

انصرف أرماند ورفاقه بهدوء. وفي الغرفة الأمامية، صادفوا مجموعة من الضباط يرتدون الزي الرسمي وهم يفحصون عرش الهودج.

ـــ كنت هناك، قال أحدهم، وهو عقيد مدفعية. شاركت في معركة باليكاو. سحقنا الصينيين في ذلك اليوم. كان نصراً مجيداً.

ـــ وماذا عن القصر؟

ـــ عظيم. ولكنه أيضاً مُنحط. ثرواتٌ مُكدّسة بينما شعبهم يموت جوعاً. لقد أسدينا لهم معروفاً بأخذ كل شيء منهم.

ـــ هل كنتَ قد قدمتَ خدمة؟ كرر صوت أنثوي.

استداروا. كانت امرأة ترتدي ملابس سوداء بسيطة تراقبهم. كان وجهها صارماً.

ـــ ومن أنتِ يا سيدتي حتى تشككي في كلامي؟

— أنا السيدة بولين جاريكو، مؤسسة جمعية نشر الإيمان. لقد كرست حياتي للتبشير في الشرق. وأؤكد لك يا أيها العقيد، أن نهب قصر ليس خدمة.

— سيدتي، كنا في حالة حرب...

— الحرب لا تبرر كل شيء. لقد قرأت تقارير مبشرينا في الصين. إنهم يصفون مشاهد مروعة.

— الإنجليز هم من أحرقوا القصر، وليس نحن!

— لكنكم نهبتموها. لقد أفرغتم كنوزها. أنتم شركاء في الجريمة.

احمر وجه العقيد بشدة.

— سيدتي، أحثك على توخي الحذر في كلامك.

— أنا فقط أذكر الحقائق. هذه الأشياء نُهبت.

توقف الزوار الآخرون للاستماع إلى الحوار. فتدخل غوتييه.

— السيدة جاريكو محقة في طرح هذه الأسئلة. إنها أسئلة مشروعة. وأعتقد أننا جميعًا بحاجة إلى طرحها على أنفسنا. الفن ثمين، بلا شك. ولكن بأي ثمن نحصل عليه؟

— ثمن النصر يا سيدي. هذا هو قانون الحرب.

— ربما حان الوقت لتغيير هذا القانون.

استدار العقيد على عقبيه وغادر الغرفة مع ضباطه. تنهدت مدام جاريكو.

— إنهم لا يريدون أن يفهموا. إنهم يفضلون الاختباء وراء المجد العسكري بدلاً من مواجهة الحقيقة الأخلاقية.

— كثيرون يفعلون الشيء نفسه يا سيدتي.

— ما الذي تقترحه؟ أن نعيد كل شيء إلى الصين؟

— هذا هو الصواب، نعم. لكنني أعلم أنه مستحيل. لن تتخلى الإمبراطورة عن متحفها أبدًا. على الأقل، يجب أن نذكر مصدر هذه القطع الأثرية، لا أن نزيّف التاريخ.

ـــ الملصقات التوضيحية متكتمة جداً بشأن هذه النقطة، كما لاحظ غوتييه.

غادروا المتحف. وعلى درجات القلعة، تبادلوا انطباعاتهم الأخيرة.

ـــ إنه أمر مقلق، قال أرماند. فمن جهة، هذه الأشياء استثنائية. أود أن أقضي ساعات في دراستها. ولكن من جهة أخرى، لا يمكنني أن أنسى أنها سُرقت.

ـــ هذه هي معضلة عصرنا، أجاب رينان. نريد أن نستمتع بثمار الغزو دون تحمل العواقب الأخلاقية.

ـــ وأنت يا سيد غوتييه؟ ماذا ستكتب؟

يعتقد غوتييه.

ـــ سأكتب أن هذه المجموعة رائعة، وأن القطع الأثرية فيها ذات جودة لا مثيل لها، وأن المتحف منظم بشكل مثالي. لكنني سأشير أيضاً إلى مصدرها، وسأذكر القراء بأنها من القصر، وسأترك لهم حرية استخلاص استنتاجاتهم.

ـــ إنه حل وسط.

ـــ نعم. لكن هذا أفضل ما يمكنني فعله.

وزارة الخارجية، باريس، 10 فبراير 1863

استقبل وزير الخارجية إدوارد دروين دي لويس زائراً غير متوقع في مكتبه. فقد وصل تشو رويلين، وهو دبلوماسي صيني في مهمة سرية في أوروبا، إلى باريس في اليوم السابق.

كان تشو رويلين رجلاً ذا وجه جاد. كان يرتدي رداءً حريرياً داكناً طويلاً وقبعة صينية. وكانت لغته الفرنسية مثالية.

ـــ معالي الوزير، شكراً لكم على استقبالي.

ـــ السيد تشو، زيارتك تفاجئني. لم تُبلغنا الحكومة الصينية بمهمتك.

ـــ مهمتي غير رسمية. أنا هنا بصفتي الشخصية. لأمر حساس.

عبس دروين دي لويس.

ـــ من أي طبيعة؟

أخذ تشو رويلين نفساً عميقاً.

ـــ القصر. والأشياء التي أُزيلت منه.

ـــ السيد تشو، تم الحصول على هذه الأشياء بشكل قانوني وفقًا لقوانين الحرب. معاهدة بكين...

ـــ لم تذكر معاهدة بكين هذه البنود. بل تحدثت عن التعويضات والموانئ والحقوق التجارية، لكنها لم تذكر الكنوز الإمبراطورية.

التزم دروين دي لويس الصمت. كان تشو رويلين محقاً من الناحية الفنية.

ـــ كانت هذه الأشياء موجودة في القصر عندما احتلته قواتنا. ووفقًا لأعراف الحرب، كانت ملكًا للمنتصرين.

ـــ هل يُعدّ نهب المتاحف وحرق المكتبات من أعراف الحرب؟

ـــ ماذا تريد يا سيد بين؟

ـــ عودة القطع الأثرية. جميعها. تلك الموجودة في فونتينبلو، وتلك الموجودة في مجموعات خاصة. جميعها.

ـــ هذا مستحيل.

ـــ لماذا؟ لأن إمبراطورتك لا تريد التخلي عن متحفها؟

ـــ لأن هذه الأشياء تنتمي الآن إلى فرنسا. إنها جزء من التراث الوطني.

نهض تشو رويلين وهو يرتجف من الغضب المكبوت.

ـــ تراث وطني؟ هذه الأشياء تراث صيني! كيف تجرؤون على ادعاء ملكيتها؟

ـــ سيد بين، أتفهم مشاعرك...

ـــ لا! أنت لا تفهم!

استغرق تشو رويلين بضع لحظات ليهدأ.

تخيل أن جيوشًا صينية غزت باريس، واحتلت متحف اللوفر، واستولت على تمثال فينوس دي ميلو، تمثال النصر المجنح لساموثراس، وأحرقت القصر، ثم عرضت هذه الكنوز في بكين. كيف سيكون شعورك؟

كان التشبيه مزعجاً.

— ستشعر بالخجل. ستطالب بالإنصاف. أليس كذلك؟

— الوضع مختلف...

— بأي طريقة؟ لأننا صينيون؟ لأنكم تعتبروننا أدنى منكم؟

— لا! الأمر لا يتعلق بالعرق...

— هل المسألة مسألة قوة؟ أنت أقوى، لذا يمكنك أن تأخذ ما يخصنا؟

عاد دروين دي لويس إلى مقعده.

— لنكن واقعيين. الحكومة الفرنسية لن تعيد هذه الأشياء. الإمبراطورة لن تستسلم أبداً.

— ستبقى سارقة. وستبقى فرنسا متواطئة في الجريمة.

— انتبه لكلامك. أنت تهين الإمبراطورة.

— أنا لا أهينه. أنا أذكر حقيقة.

قام دروين دي لويس بالنقر بأصابعه بعصبية.

— حتى لو أردت مساعدتك، لما استطعت. سيتطلب الأمر موافقة الإمبراطور. وموافقة الإمبراطورة أيضاً.

— ثم اسألهم. باسم العدالة.

— أنت لا تفهم. السياسة لا تسير بهذه الطريقة...

— أفهم تماماً. السياسة أهم من الأخلاق.

سار باتجاه الباب، ثم استدار.

— سأقول لك شيئًا يا معالي الوزير. الصين لن تنسى أبدًا. قد نكون ضعفاء الآن، لكن التاريخ طويل. سيأتي يوم نعود فيه أقوياء. وحينها، سنطالب بالتعويضات.

ـــ هل هذا تهديد؟

ـــ لا، إنه وعد. ستعود هذه الأشياء إلى الصين. ربما ليس في حياتي، لكنها ستعود. لأن العدالة تنتصر في النهاية.

فتح الباب.

ـــ وداعاً سيدي الوزير. آمل أن تتأمل في كلماتي.

بعد رحيله، بقي دروين دي لويس جالساً، قلقاً. كان تشو رويلين محقاً في شيء واحد: هذه الأشياء مسروقة. وشرعية الحصول عليها لا تغير من هذه الحقيقة.

شاتو دو فونتينبلو، 1 أبريل 1863

لم يعد هنري روكس إلى فونتينبلو لأكثر من عام. وقد تلقى رسالة من الإمبراطورة تدعوه فيها لزيارة المتحف والاطلاع على اللوحات التعريفية الجديدة.

دخل الغرف التي يعرفها جيداً. وما لفت انتباهه على الفور هو الملصقات الجديدة، الأكثر تفصيلاً بكثير.

"مزهرية مطلية بالمينا، من عهد أسرة تشينغ، فترة تشيان لونغ (القرن الثامن عشر). من القصر الصيفي (يوين مينغ يوين)، بكين. دُمر القصر الصيفي، المقر الصيفي لأباطرة الصين، خلال حرب الأفيون الثانية عام 1860. هذه القطعة جزء من المجموعات التي أُنقذت من الدمار وقُدمت إلى جلالة الإمبراطورة أوجيني من قبل جيش الشرق."

أعاد روكس قراءة الكارتل. "أنقذ من الدمار". طريقة ذكية للتعبير. ليس كذباً تماماً، ولكنه ليس الحقيقة تماماً أيضاً.

ـــ الملازم روكس؟

استدار. كانت الإمبراطورة تقف خلفه، وحيدة. كانت ترتدي فستاناً بسيطاً من المخمل بلون خمري.

ـــ جلالتكم. لم أكن قد رأيتكم.

ـــ أحب المجيء إلى هنا أحياناً، بمفردي. ما رأيك في العصابات الجديدة؟

ـــ إنها... أكثر تفصيلاً من ذي قبل.

ـــ لكنهم ليسوا صادقين بما فيه الكفاية، أليس كذلك؟

ـــ لم أقل ذلك.

ـــ لا، لكنك تعتقد ذلك. أستطيع أن أرى ذلك.

اقتربت أوجيني من الخزف الذي تم ترميمه.

ـــ هذه الندوب. لقد طلبت من المرمم عدم إخفائها. لماذا؟

ـــ لأنها جزء من تاريخ هذه الأشياء. إخفاؤها كان سيكون كذباً.

ـــ وماذا عن الكارتلات؟ أليست شكلاً من أشكال الكذب عن طريق الإغفال؟

ـــ أعتقد أنهم يقولون جزءًا من الحقيقة. ليس الحقيقة كاملة، ولكن جزءًا منها. إنه حل وسط.

ـــ حل وسط. نعم. هذا هو بالضبط ما هو عليه.

التفتت نحوه.

ـــ لقد كنت تدون يومياتك، أليس كذلك؟

ـــ نعم.

ـــ وماذا كتبت عني؟

شعر روكس بقشعريرة تسري في جسده.

ـــ كتبتُ أن جلالتكم كانت عالقة بين واجباتها وضميرها، وأنكم سعيتم لفعل الصواب، حتى وإن لم يكن الصواب واضحاً دائماً.

ابتسمت أوجيني ابتسامة حزينة.

ـــ هذا سخاء. أخشى أن يكون لدى فيكتور هوغو رأي أقل سخاءً.

ـــ لم يكن فيكتور هوغو حاضراً. لقد حكم من بعيد.

ـــ لكن أليس محقاً؟ أليس هذا سرقة؟

— نعم.

— ومع ذلك، فقد ساعدتني في إنشاء هذا المتحف. لماذا؟

— لأن هذه الأشياء كانت موجودة. ولأنه لا يمكن إعادتها إلى الصين. ولأنه كان من الأفضل الحفاظ عليها هنا بدلاً من تركها تضيع. لكن هذا لا يجعل الفعل الأولي أقل استهجاناً.

أومأت يوجيني برأسها.

— هل تعلم ما قاله الدبلوماسي الصيني، تشو رويلين؟

— لا.

— لن تنسى الصين ذلك أبداً. حتى لو استغرق الأمر مئة عام، أو مئتي عام، فإنها ستطالب بالعدالة.

— هل تعتقد أنه على حق؟

— نعم. التاريخ طويل. أطول من أعمارنا. أطول من إمبراطورياتنا. وله ذاكرة لا تُمحى.

— احتفظ بمذكراتك.

— أنا سأفعلها.

— والملازم؟ شكرًا لك. على صدقك. إنه أمر نادر.

غادرت الغرفة، تاركة روكس وحيداً.

أخرج دفتر يومياته وكتب ملاحظة أخيرة.

"1 أبريل 1863. فونتينبلو. عدتُ اليوم إلى المتحف الصيني. اللوحات التعريفية الجديدة أفضل، لكنها لا تزال غير مكتملة. إنها تُخبرنا بجزء من الحقيقة، وليس كلها.

تحدثتُ مع الإمبراطورة. إنها تعلم أن هذه الأشياء سُرقت. تعلم ذلك وتتحمل تبعاته. لكنها لا تستطيع إعادتها. السياسة، والهيبة، والكبرياء الإمبراطوري... كل شيء يمنعها.

لذا فهي تقدم حلاً وسطاً. تنشئ متحفاً. تغير اللافتات. هل هذا كافٍ؟ لا. لكنه أفضل ما يمكنها فعله."

أغلق جريدته.

في خزائن العرض، استمرت الأشياء في التألق. جميلة. ثمينة. مسروقة.

خاتمة

نجت دفاتر آن ديهاي. بعد أن تم إخفاؤها أولاً في دير ووفو، ثم تشتتت بين مكتبات مختلفة خلال اضطرابات القرن العشرين، تم جمعها أخيرًا ونشرها في عام 1985. كانت قيمتها التاريخية لا تقدر بثمن: فقد قدمت واحدة من الوصفات التفصيلية النادرة للقصر الصيفي قبل تدميره، كما رآه من الداخل، من قبل شخص كان يعرف كل زاوية وركن فيه عن كثب.

لم تُنشر مذكرات هنري روكس، التي أوصى بها لأحفاده، إلا في عام ١٩٣٢. وقد أثار نشرها جدلاً وطنياً في فرنسا حول الاستعمار واسترداد الأعمال الفنية. أشاد البعض بنزاهة روكس، بينما اتهمه آخرون بالخيانة العظمى ضد الجيش الفرنسي. أما حجر اليشم الذي أهداه إياه تشين وي، فقد أوصى به لمتحف غيميه مع مذكرة توضيحية. ولا يزال هناك حتى اليوم، في خزانة عرض صغيرة تحمل النقش التالي: "حصاة من اليشم من القصر الصيفي، أهداها تشين وي، البستاني، إلى هنري روكس، ١٨٦٢".

أنهى أوغست موران مسيرته المهنية كنائب أميرال. لطالما رفض التحدث علنًا عن القصر الصيفي، لكنه كتب في رسالة خاصة إلى ابنه عام 1875، عُثر عليها في أرشيف العائلة: "لقد أطعت الأوامر طوال حياتي. مرة واحدة فقط كان ينبغي عليّ أن أعصيها. كان ذلك في أكتوبر 1860".

أما الكولونيل دوماس، فقد حظي بمسيرة مهنية لامعة في ظل الجمهورية الثالثة. وعندما سأله صحفي عام 1890 عن قضية القصر الصيفي، أجاب ببساطة: "كانت حرباً. وفي الحرب، لا مجال للعواطف".

توفي عام 1895 دون أن يبدي أدنى ندم.

عاش تشين وي خمسة عشر عامًا أخرى في باريس، حيث عمل بستانيًا في حدائق متفرقة في أنحاء المدينة. توفي عام ١٨٧٧ وحيدًا في غرفة صغيرة في مونمارتر. وذكر الأب دوراند، الذي اعتنى به حتى النهاية، أن كلماته الأخيرة كانت: "الحدائق... أريد أن أرى الحدائق..."

لطالما دافع الجنرال كوزين دي مونتوبان، الذي أصبح فيما بعد كونت باليكاو، عن أفعاله في الصين. عُيّن وزيرًا للحرب عام ١٨٧٠، وحُمِّل مسؤولية الهزيمة في سيدان، وانتهى به المطاف في عزلة. في مذكراته، التي نُشرت بعد وفاته، لم يُخصِّص سوى أقل من ثلاث صفحات للحملة الصينية، دون أن يُشير إلى الغنائم.

واصل فيكتور هوغو انتقاداته. فقد أصبحت رسالته المفتوحة حول نهب القصر الصيفي، والتي نُشرت في العديد من الصحف الأوروبية، من النصوص الأساسية للتأمل في النهب الثقافي في زمن الحرب. ولا تزال تُستشهد بها حتى اليوم في النقاشات حول استرداد الممتلكات.

احتفظت الإمبراطورة أوجيني بمتحفها الصيني حتى سقوط الإمبراطورية الثانية عام ١٨٧٠. وبعد نفيها إلى إنجلترا عقب هزيمة فرنسا، حاولت دون جدوى نقل القطع الأثرية إلى مقر إقامتها في فارنبورو، لكنها بقيت في فونتينبلو. وفي مذكراتها، التي عُثر عليها بعد وفاتها عام ١٩٢٠، تعود أوجيني باستمرار إلى المتحف الصيني، معربةً عن شكوك متزايدة في شرعية مجموعتها.

لا يزال المتحف الصيني في فونتينبلو قائمًا. وقد عُدّلت اللوحات التعريفية عدة مرات. ففي عام ١٩٢٠، أُضيفت إشارة إلى "الظروف المأساوية" التي أحاطت بعملية الاقتناء. وفي عام ١٩٦٠، بمناسبة مرور مئة عام على الاقتناء، وُضعت لوحة تذكارية تُقرّ بـ"النهب" وتُعرب عن "الأسف". ومنذ عام ٢٠٢٠ فصاعدًا، تنص اللوحات التعريفية صراحةً على ما يلي: "هذه القطع تعود إلى نهب القصر الصيفي على يد القوات الفرنسية البريطانية في أكتوبر ١٨٦٠".

في عام ١٩٠٠، خلال ثورة الملاكمين، تعرض قصر يوين مينغ يوين (أو ما أُعيد بناؤه جزئيًا) للنهب والتدمير مرة أخرى. أما الآثار التي

نراها اليوم في بكين فهي في الغالب تلك التي خلّفها حريق عام ١٨٦٠. وقد اختارت الحكومة الصينية الحفاظ عليها على حالها، كنصب تذكاري لـ"قرن الإذلال".

في ثمانينيات القرن الماضي، بدأت الصين رسميًا بالمطالبة باسترداد القطع الأثرية المنهوبة. وفي عام ٢٠٠٩، عُرض للبيع في مزاد بباريس رأسان برونزيان يمثلان الأبراج الصينية من القصر الصيفي. احتجت الصين بشدة. واشتراهما رجل أعمال صيني مقابل ٢٨ مليون يورو ورفض الدفع، مما أدى إلى أزمة دبلوماسية كبيرة. وأُعيد الرأسان أخيرًا في عام ٢٠١٣.

منذ ذلك الحين، أعادت المؤسسات أو هواة جمع التحف بعض القطع الأثرية. لكن الغالبية العظمى منها لا تزال في فرنسا وإنجلترا ودول أخرى. ويضم المتحف البريطاني وحده ما يقرب من 23 ألف قطعة أثرية صينية، كثير منها من القصر الصيفي.

لا تزال قطع الخزف التي رمّمها المعلم دوبوا موجودة في فونتينبلو. وبمرور الوقت، أصبحت شقوقها رمزًا لهذا التاريخ الممزق. وقد أتى طلاب فنون من عدة جامعات صينية لدراستها، مفتونين بهذا "الترميم الصادق" الذي يرفض إخفاء الصدمة.

في عام ٢٠١٥، أطلق باحثون صينيون وفرنسيون مشروعًا لإعادة بناء القصر الصيفي رقميًا. وباستخدام وصف آن ديهاي، وملاحظات روكس، ورسومات ويرغمان، وصور ديسديري، تمكنوا من إعادة بناء جزء كبير من القصر افتراضيًا. عُرضت النتيجة في وقت واحد في بكين وباريس عام ٢٠١٨، وكان رد الفعل هائلًا من كلا الجانبين. بالنسبة للعديد من الصينيين، كانت هذه هي المرة الأولى التي يُتاح لهم فيها "رؤية" قصر يوين مينغ يوين قبل تدميره.

في عام 2023، زار وفد من الطلاب الصينيين متحف فونتينبلو كجزء من برنامج للتبادل الثقافي. أحد الطلاب، وهو ينظر إلى قطع الخزف المرممة ذات الشقوق الظاهرة، همس باللغة الصينية (ترجمها المترجم لاحقًا): "على الأقل لم يكذبوا بشأن الشقوق".

وأضاف آخر: "لقد احتفظوا بالندوب".

ربما كانت تلك بداية. لم تكن مصالحة، فالصدمة كانت أعمق من ذلك. ولم تكن غفراناً، فكيف يُغفر تدمير كنز ثقافي لا يُعوَّض؟ بل كانت اعترافاً متبادلاً بما حدث، وقبولاً بأن التاريخ لا يُمكن إعادة كتابته، بل فهمه فقط.

لا يزال الجدل قائماً حول استرداد القطع الأثرية. وفي فرنسا، يُعدّ هذا الجدل مثيراً للانقسام. يرى البعض ضرورة بقاء القطع في فونتينبلو، حيث تُحفظ وتُتاح للجمهور. بينما يرى آخرون أن الحلّ الوحيد المقبول أخلاقياً هو إعادتها كاملةً إلى الصين. ويقترح فريق ثالث حلولاً وسطاً: قروض طويلة الأجل، أو ملكية مشتركة للقطع، أو متاحف مشتركة.

في الصين، أصبح القصر الصيفي رمزاً وطنياً. ففي الثامن عشر من أكتوبر من كل عام، ذكرى حريق عام 1860، تُقام مراسم إحياء الذكرى في موقع الأنقاض. ويأتي طلاب المدارس لوضع الزهور، ويتحدث المتحدثون عن "مئة عام من الإذلال" وولادة الصين من جديد.

كتب آن ديهاي في دفتر ملاحظاته الأخير: "لا تنسى أبداً".

لم تنسَ الصين. فالمقتنيات في متحف فونتينبلو، حتى وإن حُفظت، بل وأُعجب بها، تبقى رمزًا لجرح لم يندمل. وهي تُثير تساؤلات تتجاوز مسألة الملكية البسيطة: من يُقرر ما ينتمي إلى "تراث الإنسانية"؟ هل للمنتصرين الحق في إعادة تعريف ثقافة المهزومين؟ هل يُمكن أن يُبرر الحفاظ على هذه المقتنيات السرقة الأصلية؟

كتب هنري روكس في مذكراته: "هذه الأشياء لا تنتمي إلينا. لكننا الآن أوصياء عليها."

بعد مرور مئة وستين عاماً، بات لهذا القول صدى مختلف. هل يمكن للأوصياء أن يصبحوا مالكين شرعيين بمجرد مرور الزمن؟ أم أن مسؤولية الوصاية تشمل في نهاية المطاف مسؤولية ردّ الحقوق؟

لم يُصدر التاريخ حكمه بعد، وربما لن يُصدره أبدًا. لكن ثمة أمرٌ واحدٌ مؤكد: إنّ القطع الأثرية في المتحف الصيني في فونتينبلو ليست مجرد أعمال فنية، بل هي شهود. شهود على ما حدث في أكتوبر 1860، شهود على الغطرسة الإمبريالية، شهود على العنف الثقافي.

وما زالوا ينتظرون، في خزائن العرض المذهبة، تحت الأضواء الخافتة للقلعة.

إنهم ينتظرون تحقيق العدالة. بطريقة أو بأخرى. يوماً ما.

****